محمد الخير عبد القادر



الدار السودانية للكتب
ص.ب ٢٤٧٣ — الخرطوم

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

محمد الخير عبد القادر

نكبة الأمة العربية

بسقوط الخلافة العثمانية

دراسة للقضية العربية في خمسين عاماً

١٨٧٥م / ١٩٢٥م

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعـة الأولى

١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر: ٣ حيضان الموصلي
بجوار جامع الدعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير » .

« صدق الله العظيم »

* * *

شــكر وتقــدير

الحمد لله رب العالمين •• والصلاة والسلام على رسوله الأمين •• محمد بن عبد الله الذى أرسله رحمة للعالمين •• بلسان عربى مبين •

يسعدنى أن أتقدم بالشــكر والثناء الى من أسهموا فى تقويم هــذه الدراسة بالنقد والتعليق وأسداء النصح •• وأخص منهم نخبة كريمة من علمــاء الدراسات الانســانية فى جامعة الخرطوم وبعض الجامعات العربية الأساتذة : الدكتور يوسف فضل حسن ، والدكتور ابراهيم الحاردلو ، والدكتور عثمان سيد أحمد اسماعيل ، والدكتور مدثر عبد الرحيم الطيب ، والدكتور تاج السر حران ، والدكتور حسن عبد الله الترابى ، والدكتور عبد العزيز كامل •

ومن الأصدقاء الأستاذ محمد عثمان محمد العوض •

والاخوة الذين أشرفوا على الطباعة التمهيدية •

فلهم جميعا تحية تقدير واعزاز •• ولهم من الله حسن المثوبة وخير الجــزاء •

المؤلف

* * *


To: www.al-mostafa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يمتد الوطن العربى عبر مساحات كبيرة فى القارتين الآسيوية والافريقية ولكن الدراسة التى عنيت بها فى هـذه الفصول تتناول قضية الأمة العربية متمثلة فى وادى النيل والهلال الخصيب ، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، لأن هذه المنطقة كانت قبلة أنظار الدول الغربية الطامعة فى اقتسام تركة « الرجل المريض »[1] نظرا الى أهميتها الاستراتيجية وما يرتبط باحتلالها من آثار ومزايا فى مجال السياسة الدولية والتنافس على مواقع النفوذ بين الدول الأوروبية الكبرى ، وكانت فى الوقت ذاته تمثل أهم الأقاليم العربية المنضوية تحت لواء الخلافة العثمانية [2] وقد تميزت الفترة موضع البحث (١٨٧٥ — ١٩٢٥) بأنها شهدت الارهاصات الأولى لميلاد القضية العربية الحديثة كما شهدت نموها ودخولها مرحلتها الحاسمة •

لقد درج بعض الباحثين على الفصل بين القضية العربية فى الهلال الخصيب وما كان يعرف « بالمسألة المصرية » أو « مسألة السودان »[3] وهو فصل ينطوى على عزل للأحداث بعضها عن بعض بحيث تتوارى الصورة الكلية للقضية خلف الجزئيات •

---

(١) تعبير ساخر أطلقته الديبلوماسية الأوروبية على الدولة العثمانية المحتضرة فى ذلك العصر .

(٢) على الرغم من انفراد محمد على بمصر منذ مطلع القرن التاسع عشر فانها ظلت من الوجهة القانونية خاضعة للسيادة العثمانية حتى عام ١٩١٤ (اعلان الحماية البريطانية)

(٣) Mekki Abbas, The Sudan Question (1884 - 1951) Faber and Faber, Ltd, London, 1951.

ومهما كانت الدوافع لهذا الفصل ، فان المسألة واحدة هى قضية « الأمة العربية » بكل مقوماتها الحضـــارية المتميزة ووحدتها اللغوية وانتمائها الاســـلامى • بل هكذا كان الغربيون ينظرون اليها دون أن يسموا الأشياء بأسمائها •

ولعل أكثر الذين يدركون هـــذه الحقيقة قادة الحركة الصهيونية ، فعندما تحدث دافيد بن جوريون فى المؤتمر الصهيونى السابع عشر فـــى « بال » بسويسرا (يونيو — يوليو ١٩٣١) كان يضع هـــذه الحقيقة نصب عينيه •

قال بن جوريون : « ان الخطر علينا لا يأتينا من عرب فلسطين وحدهم ، ولكن علينا أن نفكر فى مصر وشمال افريقيا وكافة المسلمين وكل من يتحدث اللغة العربية »(٤) •

* * *

وقد رأيت أن أتناول الموضـــوع فى الصفحات التالية بقـــدر ما تيسر لى من مصادر أحسب أنها تلقى مزيداً من الأضواء على هـــذه القضية ، ان لم يكن فى صورتها الكلية فعلى الأقل فى بعض جوانبها •

اننى مدين لمكتبة جامعة الخرطوم والمكتبة البريطانية « المتحف البريطانى » بلندن ومكتبة الكونجرس فى واشنطون وقد أثبت فى ذيل هـــذا الكتاب المصادر التى تيسر لى الأطلاع عليها فى تلك الدور • لقـــد أفدت كثـــيرا من مجمـــوعة الوثائق الرســـــمية التى نشرها « Albert M. Hyamson » فى مجلدين عام ١٩٣٩ بعنوان :

« The British consulate in Jerusalem in Relation to The Jews of Palestine., »

وهى مجموعة الرسائل المتبادلة بين وزارة الخارجية البريطانية وبعض سفارات بريطانيا وقنصلياتها فى الشرق الأوسط حول وضع اليهود، ويشمل الجزء الأول رسائل الفترة (١٨٣٨ — ١٨٦١) والجزء الثانى ، الفترة بين عامى (١٨٦٢ — ١٩١٤) •

---

(٤) D. Ben - Gurion, Rebirth. and Destiny of Israel, New - York, 1954, p. 31.

تلقى هـــذه الرسائل ضوءاً كبيراً على مساعى اليهود فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لدى الحكومة البريطانية لتيسر لهم الهجرة الى فلسطين والاستقرار فيها بممارسة الضغط على الدولة العثمانية لأن فلسطين كانت جزءاً من الولايات العربية العثمانية وذلك قبل ظهور دعوة « هرتزل » مؤسس الحـــركة الصهيونية بنحو خمسين عاما . كما توضح الرسائل مقاومة الدولة العثمانية لهـــذا الضغط اليهودى البريطانى لا سيما فى عهد السلطان عبد الحميد .

وهناك مجموعة أخرى من الوثائق البريطانية اعتمدت عليها فى دراسة فترة ما بعد الحرب (١٩١٩ — ١٩٢٥) وهى وثائق السياسة البريطانية الخارجية المجموعة الأولى (١٩١٩ — ١٩٣٩) .

« Documents on British Foreign Policy, First Series 1919 — 1939 Ed. Woodward and Butler, London, 1952 »

وهـــذه المجموعة حافلة بالمعلومات الهامة عن سياسة الغرب نحو البلاد العربية فى الشرق الأوسط وفلسطين بوجه خاص . ومن الوثائق التى أفدت منها مذكرة عن منشأ وعد «بلفور» لم تنشر وهى للكاتب الصهيونى الأرمنى «جيمس مالكولم» بعنوان: **«Origins of The Balfour Declaration»** مؤرخة فى يوليـــو ١٩٤٤ ومحفوظة تحت رقم **« Cup 1247c. 28 »** فى مكتبة المتحف البريطانى . أما عن الحركة الصهيونية فقد استعنت بمذكرات « هرتزل » وكتابه « الدولة اليهودية » ومذكرات « حاييم وايزمان » وبعض مؤلفات أحدها عام « أشر جنزبرج » وتاريـــخ « سوكولوف » للحركة الصهيونية ، وبعض مقالات « لوى براندايس » عن اليهودية والصهيونية ، والتاريخ الاجتماعى والدينى لليهود للأستاذ **«Salo Wittmayer Baron»** وتاريخ اليهود للمؤرخ **«Heinrich Graetz»**

***

وفيما يتعلق بأمر فلسطين اعتمدت على بعض التقارير الرسمية لحكومة فلسطين — حكومة الأنتداب البريطانى — وتقارير لجان التحقيق التى ألفتها الحكومة البريطانية ووقائع اجتماعات اللجنة الدائمة لشئون الانتداب فى جنيف وهى احـــدى لجان عصبة الأمم كما أخذت عن

الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين : المجموعة الأولى (١٩١٥ — ١٩٤٦) وهى من منشورات جامعة الدول العربية بالقاهرة (١٩٥٧) ، ووجدت كثيرا من المعلومات القيمة فى مذكرات السير « رونالد ستورز » وبعض مؤلفاته •

وفى دراسة الحركة العربية وأهدافها بعد الانقلاب العثمانى فى عام ١٩٠٨ اعتمدت على قرارات المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس فى يونيو ١٩١٣ وعلى البيانات الرسمية لحزب اللامركزية العثمانى فى القاهرة وعلى أقوال قادة العمل السياسى فى الوطن العربى آنذاك التى كانت تنشر فى مجلة « المنار » من أمثال « رفيق العظم » « وعبد الحميد الزهراوى » والشيخ « محمد رشيد رضا » ومذكرات « أسعد داغر » على هامش القضية العربية •

* * *

ولما كانت القضية العربية الحديثة ذات صلة وثيقة بنمو الشعور القومى والتراث الحضارى للأمة العربية فقد آثرت أن أستهل هذا البحث فى « الفصل الأول » بحديث عن مفهوم « الأمة العربية » ومقوماتها والعوامل التى مهدت لظهور « القومية العربية » خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين •

* * *

وأفردت الفصل الثانى لدراسة القضية العربية ومعالمها فى ظل الدولة العثمانية (١٨٧٥ — ١٩١٤) وهذه الفترة تشمل بالتقريب حكم السلطان « عبد الحميد الثانى خان » (١٨٧٦ — ١٩٠٨) كما تشمل السنوات الخمس الأولى من حكم الأتراك الاتحاديين « جمعية الاتحاد والترقى » وتمتد من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٤ وتتميز هذه الفترة بأنها كانت تمثل مرحلة الدعوة الى الاصلاح لدعم الخلافة العثمانية وتأكيد وحدتها السياسية وذلك على الرغم من ظهور بعض النزعات العنصرية والقومية والطائفية التى لم يكن لها شأن يذكر ، ولم يكن لدى قادة الحركة العربية حتى ذلك الوقت سعى حقيقى للانفصال عن الخلافة العثمانية أو الثورة عليها بل كان العرب فى

مصر والهلال الخصيب يصفون أنفسهم بأنهم « عرب عثمانيون » يعملون على تقوية الدولة بالنقد البانى والاصلاح السياسى والدينى والاجتماعى.

وعنيت فى هـذا الفصل بايضاح سياسة الدولة العثمانية فى عهد خلفاء آل عثمان نحو حماية فلسطين من الهجرة اليهودية الاستيطانية ، ومقابلة هـذه السياسة بما أصبح عليه الحال فى عهد جمعية الاتحاد والترقى بين سنتى ١٩١٣ — ١٩١٤ عندما جردت الجمعية الخليفة العثمانى من سلطاته الحقيقية على اثر عزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ ، واتجهت سياستها الى ممالأة الصهيونية والتمكين لها فى المناصب القيادية وفتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين والاستيلاء على أرضها عن طريق التملك وهو ما كان محظورا فى عهد الخلفاء العثمانيين منذ عام ١٨٤٠ الى نهاية حكم السلطان عبد الحميد .

* * *

أما سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) فموضع دراستها الفصل الثالث لأنها تمثل الفترة التى طفح فيها كيل الأتراك الاتحاديين ، ووضحت فيها اتجاهاتهم المعادية للعروبة والاسلام ، وعنفهم فى قمع حركة الاصلاح الناشئة ، واعدام قادة الحركة العربية أفراداً وجماعات فى دمشق وبيروت ، والحكم غيابيا على قادتها فى مصر . ومن ثم شهدت هـذه الفترة التحول الخطير فى اتجاه القضية عندما قرر قادة العرب الثورة على حكم الأتراك الاتحاديين والدعوة الى الاستقلال الكامل ولم تأل بريطانيا جهدا فى استغلال هذا الموقف وتوجيهه لتحقيق مآربها ، رافعة شعار استقلال البلاد العربية واحياء الخلافة فى دار العروبة فكانت الخديعة الكبرى التى واجهتها الأمة العربية فى تاريخها الحديث .

* * *

ويعالج الفصل الرابع تصاعد الشعور القومى ضد الغزو الأوروبى وردود الفعل لهذه الخديعة بين عامى ١٩١٩ — ١٩٢٥ عندما ثارت مصر بقيادة «سعد زغلول» « وعبد الرحمن فهمى » (مارس — ابريل ١٩١٩)

وأعلن فيصل قيام الدولة العربية فى سوريا (مارس ١٩٢٠) وثار شعب فلسطين على الزحف الصهيونى المنظم ولكن سرعان ما تحول حلفاء الأمس من أدعياء الصداقة العربية الى أعداء لحركة التحرر العربى فقمعت هـذه الثورات كلها بقوة وعنف وظفرت الأمة العربية بقبض الريح بعـد أن تمردت على دولة الخلافة العثمانية وساعدت على اسقاطها وحصدت خيبة الأمل .

* * *

ونظراً الى خطورة الحركة الصهيونية وصلتها بوحدة الأمة العربية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها فقد أفردت الفصل الخامس لدراسة الصهيونية الحديثة وما تستند اليه من دعاوى فلسفية ودينية والظروف التى أتاحت للصهيونية أن تنمو من طور الفكرة المنبوذة فى نظر أكثر يهود العالم الى حركة سياسية تسخر صناع السياسة الدولية لخدمة أهدافها ومطامعها .



مقدمة

● رصد مسار القضية فى خمسين عاما — تحولات سياسية فى المنطقة العربية — دراسات حول القضية — ابعادها ومقوماتها التاريخية — الصعاب التى تكتنف الدراسة — الوجود العربى قبل الاسلام — المد العربى بعد الاسلام — مسيرة الاسلام بعد العرب — الأتراك العثمانيون — القسطنطينية حاضرة الاسلام — اوروبا أمام تحدى العثمانيين — الدولة العثمانية تحتضر — العرب على مفترق الطرق — عناصر الصراع الفكرى والسياسى — انبثاق القضية العربية .

* * *

ليس هذا الكتاب تاريخا للحركة القومية الحديثة فى الشرق العربى أو ما يسميه الكتاب الغربيون « الشرق الأوسط » ولكنه محاولة لدراسة القضية العربية فى تلك المنطقة ورصد مسارها خلال خمسين عاما كانت حافلة بأعمق التحولات السياسية التى قلبت ميزان القوى فى المنطقة وكانت لها آثار بعيدة المدى فى تشكيل مستقبل الأمة العربية .

لقد تناول عدد كبير من الكتاب والباحثين دراسة القضية العربية فى مراحلها الزمنية المختلفة ، مع تباين تصورهم لأبعاد هذه القضية ومقوماتها وجذورها التاريخية فمنهم من تصدى لدراستها باعتبارها جزءاً من تاريخ الشرق الأوسط كالأستاذ « برنارد لويس » فى كتابه « العرب فى التاريخ » وكتابه « الشرق الأوسط والغرب » والأستاذ « ب . م . هولت » فى كتابه « مصر والهلال الخصيب » والأستاذ « محمد أنيس » فى دراسته عن « الدولة العثمانية والشرق العربى » ومن الطبيعى فى مثل هذه الدراسة أن تنال القضية نصيبها بالقدر

الذى يتفق ومكانتها فى الفترة التاريخية موضع البحث ومن ثم يغلب على معالجتها الايجاز والاجمال •

وهناك باحثون تناولوا القضية فى اطارها العام دون تركيز على جانب معين من جوانبها كالأستاذ جبرائيلى « البعث العربى » وجورج أنطونيوس « يقظة العرب » وأمين سعيد « الثورة العربية الكبرى » والأستاذ محمد بديع شريف وزكى المحاسنى وأحمد عزت عبد الكريم « دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة » وغير هؤلاء ولكن هناك من عنى بدراسة بعض جوانب القضية دراسة تقوم على نوع من التخصص والتفصيل أذكر منهم الأستاذ زين نور الدين زين « العلاقات العربية التركية وظهور القومية العربية » وكتابه « ظهور القومية العربية » والأستاذ مكى شبيكة « العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الأولى » والأستاذ توفيق على برو « العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى » وذلك فضلا عن عشرات المؤلفات والمقالات التى ظهرت عن القومية العربية بوجه عام وعن « قضية فلسطين » على وجه التحديد •

ولا شك أن القضية العربية موضوع خصب يفتح أمام الباحث آفاقاً رحبة للتأمل والدراسة ولكنها آفاق محفوفة بالصعاب ، لا يتيسر لفرد أن يوفيها حقها لأن القضية تضرب بجذورها فى الماضى القريب والبعيد وتمتد أبعادها عبر الزمان والمكان وتتنوع مصادرها بين وفرة هنا وندرة هناك وتتناثر أخبارها بين ثقات الرواة وضعاف الأسانيد ومن ثم تصبح مهمة الباحث عسيرة لأنه يواجه كل هذه الصعاب مجتمعة •

ان جذور التاريخ العربى قديمة قدم الممالك التى شهدتها الجزيرة العربية منذ عهد معين وسبأ وحمير (١٣٠٠ ق•م — ٥٢٥ م) وعهد الحيرة والغساسنة وحواضر الحجاز ، مكة والمدينة والطائف ، ولكن العرب الذين غيروا وجه الحياة فى الشرق الأوسط وأناروا ظلمات العصور الوسطى بقبس الحضارة الاسلامية ونقلوا تراث الفكر اليونانى الرومانى الى أوروبا واتصل تاريخهم بالعالم المعاصر هم العرب المسلمون الذين

نهلوا من معين الاسلام ثم خرجوا من المدينة المنورة فى هجرة فريدة غيرت مجرى التاريخ فى رقعة فسيحة من العالم ، وبنت حضـــارة سماها أحد الكتاب الغربيين «المعجزةالعربية Le Miracle Arabe »[1] مشيرا بصفة خاصة الى عصر الرشيد والمأمون .

غير أن المد العربى ما كاد يبلغ مداه خلال ثلاثة قرون بعد ظهور الاسلام حتى أخذ العرب يتوارون من المسرح السياسى خلف شعوب ودول أخرى شرح الله صدرها للاســلام فحملت رايته عبر قارات الكرة الأرضية ، وكانت آخر دولة من تلك الدول التى بسطت نفوذها على العالم العربى وارتبط بها مصير الأمة العربية حتى يقظتها الحديثة هى دولة الأتراك العثمانيين أو الخلافة العثمانية التى أضحت مبعث قلق عظيم لساسة أوروبا منذ أن اتخذت الآستانة « القسطنطينية » حاضرة لها سنة ١٤٥٣ م الى ظهور « المسألة الشرقية » فى القرن التاسـع عشر .

وعندما أخذ بناء الدولة العثمانية فى التصدع الداخلى وانهزمت جيوشها أمام الزحف الخارجى ، وتصاعدت المطامع السياسية الأوروبية لاقتسام أراضيها وتسربت الأفكار الغربية الى أقاليمها العربية ، أخذ العــرب يبحثون عن ذاتهم ولغتهم وحضارتهم ويتطلعون الى تغيير حاضرهم وبناء مستقبلهم ولكنهم لم يجدوا الطريق ممهدا لتحقيق آمالهم .

لقد انفرط العقد الذى كان يربطهم تحت راية الخلافة العثمانية وأطلت عليهم دول غريبة عنهم ، تفوقهم علما وقوة ودهاء فوقف العرب حائرين أمام هــذا التحدى : وقفت كثرتهم مع الدولة العثمانية تشد أزرها وتدعو الى اصلاحها لمواجهة الغزو الأوروبى ، وجنح آخرون الى الانفصال عنها تحت تأثير الأفكار الجديدة داعين الى « دولة قومية » تفرق بين الدين والدنيا [2] وبين العبادة والسياسة ، على غرار ما حدث فى أوروبا ، وانبرت طائفة منهم تمجد الحضارة الجديدة وتتخذ منها

---

(١) Max Vintejoux. Le Maracle Arabe, Charlot, Paris 1950, pp. 85 - 107. Introduced by Louis Massignon.

(٢) رفيق العظم : عن اسباب تقهقر المسلمين ، المنار م ٧ نوفمبر ١٩٠٤ ص ٦٦٠ — ٦٦١

مثلا أعلى وتتشبه بأهلها حتى فى عجمة اللسان فظهرت الدعوة الى « الاستلتان »(٣) واتخاذ العامية لغة مقام العربية الفصحى ، واستجاب آخرون لدعوة « الفرنجة المحدثين » وتحريضهم على اعلان الحرب ضد الدولة العثمانية لقاء وعد كاذب باعادة الخلافة الاسلامية الى مهدها فى الجزيرة العربية وسلالتها القرشية وبين هؤلاء وهؤلاء كان « فرنجة القرن العشرين » يخططون لابتلاع الوطن العربى بأسره وتدمير الخلافة العثمانية(٤) على السواء ، واقامة دولتهم الجديدة على أرض فلسطين تحت علم الصهيونية ومن خلال هذا الصراع السياسى الفكرى العقدى برزت القضية العربية الشائكة فى صورتها الحديثة ، لتحكى قصة أمة عصفت بها رياح الفرقة والشتات بعد سقوط الخلافة .

أما العوامل التى مهدت لظهور هـذه القضية وحددت اتجاهاتها فى خمسين عاما فهى الموضوع الذى تتناوله الفصول التالية بشىء من التفصيل والتحليل .

* * *

(٣) أى استخدام الحروف اللاتينية فى كتابة اللغة العربية .

(٤) كان لالغاء الخلافة العثمانية فى عام ١٩٢٤ صدى واسع فى العالم العربى والاسلامى ونعاها أحمد شوقى فى قصيدة بعنوان « خلافة الاسلام » :

عادت أغانى العرس رجع نواح	ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه	ودفنت عند تبلج الاصباح
ضجت عليك مآذن ومنابر	وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة	تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس	امحا من الأرض الخلافة ماح
هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم	موشية بمواهب الفتاح
نزعوا عن الأعناق خير قلادة	ونضوا عن الاعطاف خير وشاح

(الشوقيات : دار الكتاب العربى ، بيروت ص ١٠٥ — ١٠٦ — لم يذكر تاريخ النشر) . لكن شيخا من شيوخ مصر كان له رأى آخر فأصدر كتابا (١٩٢٥) ندد فيه بفكرة الخلافة منكرا صلتها بالاسلام ووصف الصديق أبا بكر رضى الله عنه بأنه كان « أول ملك فى الاسلام » وأن ملكه « قام على أساس القوة والسيف » وأن ذلك كان « أمرا مفهوما للمسلمين حينما كانوا يتآمرون فى السقيفة عمن يولونه أمرهم » .

على عبد الرازق : الاسلام وأصول الحكم ص ١٨٣ — ١٨٤ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (لم يذكر تاريخ النشر) .

للاطلاع على تفنيد هذا الزعم ، راجع هامش ٣٩ بالفصل الأول وانظر : محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٠ .

الفصل الأول

مقومات الأمة العربية

● فكرة القومية ومضمونها — الأمة الاسلامية — الوطن العربى القلب النابض للعالم الاسلامي — بين العروبة والاسلام — اسراف وغموض فى تعريف القومية العربية — التراث الاسلامى ولغة القرآن قوام الأمة العربية — وحدة الأمة ووحدة الدولة — تيارات فكرية تشكك فى عروبة مصر والجزائر — الافتتان بالغرب ونظرية ابن خلدون — سبيتا وولكوكس وسلامة موسى ولويس عوض — آتاتورك والأستلتان — الاسلام يحطم العنصرية — الاخوة الاسلامية — ايمان بالكتب المنزلة من عند الله — الأمة العربية والخلافة العثمانية — ظهور القومية فى الوطن العربى — الاستشراق والتبشير — اصالة الفكر الاسلامى — تحدى الاستشراق — الصحافة الاسلامية — العقد الاجتماعى والبيعة فى الاسلام — روسو وابن خلدون — برنارد لويس يخطىء الطريق — الحرية السياسية فى الاسلام — بيعة أبى بكر — الكواكبى ونجيب العازورى .

* * *

مقومات الأمة العربية

ان كلمة « القومية » تعبير غربى تلقته شعوب الشرق الأوسط فيما تلقت من مؤثرات خلال القرن التاسع عشر وليس هناك اجماع بين الغربيين أنفسهم حول مضمون هذا التعبير . ففى اللغتين الانجليزية والفرنسية — فيما يروى الأستاذ « برنارد لويس » يقصد بكلمة « Nationality » القطر أو الدولة التى ينتمى اليها الفرد أو المواطن[1] بينما نجد فى الألمانية كلمة مماثلة تحمل نفس هذا المعنى وكلمة غيرها « Nationalitat » وهى ذات دلالة اجتماعية بشرية أكثر منها سياسية أو قانونية[2] .

وفى القارة الأمريكية والأوروبية يخضع تحديد الذاتية القومية — بوجه عام — للموطن الجغرافى أو القطر ورابطة النسل واللغة المشتركة[3] أما العالم العربى — وهو القلب النابض للعالم الاسلامى — فقد كانت له حتى نهاية القرن التاسع عشر معاييره الخاصة فى تحديد ذاتيته وولاء الأفراد المنتمين اليها ، وتنبع هذه المعايير من مفهوم « الأمة الاسلامية » وذلك أن اعتناق الاسلام لا يعنى قبول العقيدة الاسلامية من الزاوية الشخصية فحسب بل يعنى أيضا الانتماء الى الأمة الاسلامية والتمتع بكل ما تحمله عضوية الأمة من تبعات ومسئوليات وجزاء وما تفرضه من عقاب . اننا لا نستطيع أن نتحدث عن وجود « أمة عربية » فى العصر الجاهلى . حقا لقد كانت هناك قبائل عربية تفاخر بأصلها فى أشعارها وتتحدث عن أيامها وأخبارها وتحس احساسا بدائيا بذاتيتها المتميزة عن الأعاجم المحيطين بها من

---

(1) Bernard Lewis, The Middle East and the West, Bloomington, 1964, pp 70 - 71.

(2) المصدر نفسه ص ٧١

(3) المصدر نفسه والصفحة

الفرس والبيزنطيين وتنزع الى الحرية بمعنى عـدم الخضوع لأية سلطة مركزية أو أى سلطان غير سلطان القبيلة ولكن هذا الاحسـاس لم يكن احساسا قوميا لأن بواعثه قبلية توحى بجنوح نحو الفوضى وعـدم المسئولية وهـذا يتفق وروح العصر الذى وصف بعصر « الجاهلية » والجاهلية هنا كما يقول الدكتور شوقى ضيف « ليست مشتقة من الجهل الذى هو ضد العلم ونقيضه ، انما هى مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق فهى تقابل كلمة الاسـلام التى تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز وما ينطوى فيها من سلوك كريم »(٤) •

ومع أن الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية شهدت ظهور بعض الامارات قبل الأسـلام كامارة الغساسنة على تخوم الشـام والمناذرة على حدود العراق وكندة فى شمالى نجد فان بعض هـذه الامارات كان خاضعا لنفوذ الدولة البيزنطية وبعضها لنفوذ الفرس ولم تستطع أية واحدة منها أن تصهر القبائل المختلفة داخل الجزيرة العربية فى اطار من الوحدة الثقافية والاجتماعية والسياسية كما فعلت الدولة الاسلامية الناشئة فى المدينة المنورة •

أما الأجزاء الجنوبية من بلاد العـرب فقد كانت لها حضاراتها القديمة ودولها وممالكها ، يذكر منها المؤرخون مملكة معين وسبأ ومملكة قتبان والمملكة الأوسانية ومملكة حضرموت(٥) وانتهت آخر مملكة عربية جنوبية — بعد فترة من الضعف والتدخل البيزنطى الفارسى — بالانضمام الى الدولة العربية الاسـلامية فى القرن السابع الميلادى ولم تكن تلك الممالك القديمة بأسعد حظا من الامارات العربية الشمالية فى توحيـد العـرب والخروج بهم من عزلتهم الجغرافية والسـياسية الى رحاب العالم الفسيح •

وكانت مكة فى العصر الجاهلى أهم مدينة عربية ، أصحاب النفوذ فيها سادة قريش : هاشم وأمية ومخزوم وتميم وعدى وجمح وسـهم

---

(٤) شوقى ضيف ، تاريـخ الأدب العربـى ، العصر الجـاهلى ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٠. ص ٣٩

(٥) المصدر نفسه ص ٢٧

وأسد ونوفل وزهرة وكانوا أهل ترف وثراء بفضل ما تدره عليهم تجارة القوافل الرابحة من أرزاق ولهم صلات تجارية واسعة خارج الجزيرة العربية[٦] ولكنهم مع ذلك كانوا يمثلون مجتمعا قبليا « لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض فى حلف لغرض سدانة الكعبة من جهة والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى ولا سلطان لعشيرة على عشيرة »[٧] .

لم يكن عرب الجاهلية يفتقرون الى الوحدة السياسية فحسب وانما كانوا يفتقدون كذلك وحدة الهدف والتجانس الثقافى بقدر ما كانوا يعانون من التمزق العقائدى فى ظل الوثنية ، والنظرة المحلية المغلقة فى اطار القبيلة . كان الشعر رصيدهم الثقافى وكان لا يخرج فى أغراضه عن المدح والهجاء وان كانت الفضائل النفسية كالشجاعة والمروءة والكرم من المعانى التى يدور حولها المدح ، وكانوا يؤمنون بوجود علاقة بين الشعر والكهانة والسحر ولهم عناية خاصة بالفراسة والقيافة[٨] أى تتبع الأثر فى الأرض ولكن لم تكن لديهم نظرة شاملة الى الحياة والكون والى الأسرة البشرية خارج نطاق جزيرتهم ولا الى حياة أخرى غير الحياة الدنيا لأن أكثرهم كانوا وثنيين يؤمنون بقوى الهية كثيرة ، بعضها نبات وبعضها جماد ، فقد اتخذت هذيل من الأصنام « سواعا » وعبدت كلب « وداً » وألهت مذحج « يغوث » واتخذت خيوان « يعوق » وقدست حمير « نسراً »[٩] . وكان أقدم آلهتهم « مناة » وكانت العرب تسمى « عبد مناة » « وزيد مناة »[١٠] ثم اتخذوا « اللات » وهى

---

(٦) لم تخرج هذه الصلات عن اطار العلاقات التجارية التى كانت تربط الجنوب العربى والمحيط الهندى بشرقى البحر المتوسط وأسواق الهلال الخصيب وعلى الرغم من اتساع دائرة هذا النشاط التجارى ، ظل دور العرب فى تاريخ الشرق الأدنى دورا هامشيا .

راجع :

The Cambridge History of Islam 1 A Co - Ed P. M. Holt Cambridge University Press, 1970, pp. 10 , 25 , 26.

(٧) المصدر نفسه ص ٥٢ (٨) المصدر نفسه ص ٨٥

(٩) هشام الكلبى : كتاب الأصنام ، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٠ — ١١

(١٠) المصدر نفسه ص ١٣

صخرة مربعة « والعزى » وهى أعظم أصنام قريش يزورونها ويهدون اليها ويتقربون عندها بالذبح وقد أنشد زيد بن عمرو بن نفيل :

تركت اللات والعزى جميعـــا كذلك يفعـــل الجلد الصـــبور
فلا العـــزى أدين ولا ابنتيهـــا ولا صنمـــى بنـــى غنـــم أزور
ولا هبـــلا أزور وكـــان ربـــاً لنا فى الدهر اذ حلمى صغير(١١)

حقا كانت هناك عناصر تدين باليهودية والنصرانية وكان هنـــاك الحنفاء الذين ساورتهم الشكوك فى دين آبائهم وأخذوا يتطلعون الى دين جديد من أمثال ورقة بن نوفل وأسيد بن عبد العزى وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث ولكن تيار الوثنية كان جارفا •

وبظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى لم تنته الوثنية فحسب بل تغيرت الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية داخل الجزيرة العربية كما تغيرت معالم الشرق الأوسط وقيمه الحضارية بعد ذلك بوقت وجيز •

لقد ولدت « الأمة العربية » تحت راية القرآن وأخذت طلائعها تجوب آفاق العالم مبشرة بالعقيدة والقيم الجديدة ، يحدوها فيض زاخر من نور الايمان • وقد أشار الدكتور طه حسين فى تحليله للقومية العربية الى دور الاســـلام فى بناء وحدة الأمة العربية حين قال :

« والقومية العربية — اذا أردنا أن نعرف متى تكونت بالمعنى الدقيق لكلمة القومية — ينبغى أن نرد هـــذا الى ظهور الاسلام فالمكون الحقيقى للوحدة العربية بجميع أنواعها وفروعها ، الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية أيضا انما هو النبى ﷺ ولا أذكر اليمن القديمة لأنى لا أكاد أعرف من حضارتها ونظمها شـــيئاً وانما المدينة الأولى التى عرفها التاريخ والتى تكونت فيها النواة الأساسية للقومية العربية هى مدينة « يثرب » بعد أن هاجر النبى اليها مع أصحابه

(١١) المصدر نفسه ص ٢٢

من قريش • من هــذه الوحدة جعل الاتحــاد العربى ينمــو قليلا قليلا [١٢] » [١٣] •

ويشير الدكتور طه حسين الى أهمية اللغة العربية فى بناء الوحدة القومية ميلاحظ أنه لم يكن للعرب فى الجاهلية رابطه تجمعهم سوى اللغة على اختلاف شديد فى لهجات اللغة[١٤] غير أن الوحدة اللغوية لم تكن فى العصر الجاهلى كاملة لان الجاهليين لم يتخدوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ونقل ثمرة قرائحهم الى الاجيال التالية[١٥] وانما ظلت لغتهم مسموعه فحسب ولم يتحولوا من أميتهم الكبيرة الى قارئين يتلون الا بعد نزول القرآن ومن ثم أصبحت اللغة العربية مع مسيرة التاريخ الاسلامى لغة مسموعة مكتوبة[١٦] •

ولمــا كان الأدباء والشعراء مرآة تتجلى فيها أحاسيس الامة مان الدكتور طه حسين يرى أن الشــعر شارك فى تكوين القومية العربيه وتقويتها بعد أن كونها القرآن[١٧] وقد عبر الدكتور أحمد الحوفى عن رأى شبيه بهذا فى عام ١٩٥٧ عندما ذهب الى أن الفضــل فى نشــأة الجامعة العربية وفى استهلال الوحدة العربيه المنشودة يرجع الــى الأدباء قبل أن يرجع الى الساسه ، لأن الأدباء فى رأيه يصدرون عن نفوس مبرأة من المطامع الشخصية ويعبرون عن آمال الشعب[١٨] •

والحق أن الأمثلة التى ساقها الدكتور الحوفى من شــعر الأستاذ على الجارم لتاييد وجهة نظره تفيض بنغم شجى وعاطفة دفاقة تتخطى

---

(١٢) ان طبيعة الوحدة التى يتحدث عنها طه حسين هنا لا تتفق تماما والمفهوم القومى الحديث لأن الأسس التى تستند اليها وحدة الأمة الاسلامية اكثر شمولا وسماحة من مفهوم القومية الموروثة عن الفكر السياسى الغربى ؛

(١٣) خطاب الدكتور طة حسين فى مؤتمر الادباء العرب بالقاهرة « المجلة » عدد رقم ١٣ ، القاهرة ، يناير ١٩٥٨ ص ١٠ — ١١

(١٤) المصدر نفسه ص ١٠

(١٥) شوقى ضيف المصدر نفسه ص ١٤٠

(١٦) المصدر نفسه والصفحة

(١٧) « المجلة » ، القاهرة ، يناير ١٩٥٨ ص ١٠ •

(١٨) المجلة عدد رقم (٦) القاهرة ، يونيو ١٩٥٧ ص ٩٤ — ٩٥

الحواجز الجغرافية والحدود السياسية فى العالم العربى الحديث لتلتقى بمشاعر العرب فى كل مكان .

فالأستاذ الجارم يخاطب أهل بغداد قائلا :

بغداد يابلد الرشيد ومنارة المجد التليد
يا سطر مجد للعروبه خط فى لوح الوجود
يا راية الاسلام والاسلام خفاق البنود
يا مغرب الأمل القديم ومشرق الأمل الجديد
بغداد انا وفد مصر نفيض بالشوق الأكيد
أهلوك أهلونا وأبناء العشيرة والجدود (١٩)

ويخاطب أهل الحجاز :

يا جيرة الحرم المزهو ساكنه سقى العهود الخوالى كل منسكب
لى بينكم صلة عزت أواصراها لأنها صلة القرآن والنسب

ويخاطب أهل السودان :

انجزت يوما الى السودان فارعله مودة كصفاء الدر مكنونا
عهد له قد رعيناه بأعيننا وعروة قد عقدناها بأيدينا
ظل العروبة والقرآن يجمعنا وسلسل النيل يرويهم ويروينا (٢٠)

واذا جاوزنا أمثلة الدكتور الحوفى من شعر الأستاذ الجارم الى مقتطفات أخرى من الشعر العربى الحديث فاننا نجد فى ديوان الشاعر العراقى معروف الرصافى والشاعر السودانى أحمد محمد صالح مزيدا من النفحات الشعرية التى تتغنى بمآثر العروبة وتمجد ماضيها وتعبر عن وحدتها فالرصافى يرحب بالزعيم التونسى عبد العزيز الثعالبى عند قدومه بغداد سنة ١٩٢٥ قائلا (٢١) :

---

(١٩) ديوان الجارم ، الجزء الثانى مطبعة المعارف بمصر ١٩٣٨ ص ١٣٩ — ١٤٠

(٢٠) المجلة ، القاهرة ، يونيو ١٩٥٧ ص ٩٥

(٢١) ديوان الرصافى الجزء الأول الطبعة السادسة مصر ، ١٩٥٩ ص ١٣٤ — ١٣٥

أتونس ان فى بغـــداد قوما ترف قلوبهـــم لك بالـــوداد
ويجمعهـــم واياك انتســـاب الى من خص منطقهم بضـــاد
ودين أوضحت للنـــاس قبلا نواصع آيـــه ســـبل الرشـــاد
فنحن على الحقيقة أهـــل قربى وان قضت الســياسة بالبعـــاد
وما ضر البعـــــاد اذا تدانت أواصر من لســـان واعتقـــاد

ويرحب بالأديب اللبنـــانى الكبير أمين الريحانى فى عام ١٩٢٢ بقـــوله[٢٢] :

ان العـــراق بعرضه وبطـــوله وبرافـــديه وباســـقات نخيله
يهتز مبتهجـــا بمقـــدم ضـــيفه ويبش مبتسما بوجـــــه نزيله
بربيب لبنـــــان بريحانيـــه بكبير معشره بفخـــــر قبيله
أأمين جئت الى العراق لكى ترى ما فيه من غرر العلا وحجوله
فأقم به ولك الغنى بفـــــراته عن قطر مصر وعن موارد نيله
وانزل على وادى الســـلام ممتعا برغيد عيش تحت ظـــل نخيله

الى أن يقول :

من أين يرجى للعراق تقـــدم وســـبيل ممتلكيه غير ســـبيله
لا خير فى وطن يكون السيف عند جبـــانه والمـــال عند بخيـــله
والرأى عند طريده والعلم عند غريبـــه والحـــكم عند دخيـــله
وقـــد اســـتبد قليـــله بكثـــيره ظلمـــا وذل كثـــيره لقليله

والأستاذ أحمد محمد صالح تهز مشاعره محنة دمشق فى عام ١٩٤٥ ومأساة فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، فيخاطب دمشق[٢٣] :

صبرا دمشـــق فكل طرف باكى لمـــا استبيح مع الظلام حماك
جرح العروبة فيك جرح سائل بكت العـــــروبة كلهـــا لبكاك
جزعت عمـــان وروعت بغـــداد واهتزت ربى صنعاء يوم أساك

---

(٢٢) المصدر نفسه ص ٤٢٣ — ٤٢٤
(٢٣) أحمد محمد صالح : مع الأحرار ، بيروت ١٩٦٩ الطبعة الأولى ص ٩٣ — ٩٤

وقرأت فى الخرطوم آيات الأسى … وسمعت فى الحرمين[٢٤] أنة شاكى
الزعفران مشت عليه كآبة … لما استبد السيف فى مغناك
والروضة الفيحاء روع ركنها … لما تعفر بالثرى خداك
صبرا دمشق فكل هم زائل … وغدا يلوح مع النجوم سناك
تتألقين كما عهدتك درة … فى تاج أروع من أمية زاكى
فى الجاهلية كان عزك باذخا … وازدان بالاسلام عقد حلاك

ويقول عن فلسطين[٢٥] :

مشى يتحدى صروف القدر … وينعى العدالة ذاك الخبر
وقالوا فلسطين قد روعت … وجار عليها ذئاب البشر
لصوص السياسة أهل الدهاء … قراصنة السوء فى المؤتمر
أباحوا العرين عرين الليوث … ولم يرهبوا نابها والظفر
وما وعد بلفور الا الشرارة … منها اللهيب بدا واستعر
وقل للعروبة أين السلاح … وكيف الكفاح وفيم الخور
أتصلى فلسطين نار السعير … وننعم نحن بحلو الثمر
فكونوا لصهيون سوط العذاب … وقولوا لصهيون أين المفر
خذوهم بكل شديد المراس … وسدوا عليهم طريق الظفر
وشدوا العرى واذكروا خالدا … قريع الظبى وأخاكم عمر
وعهد صلاح وعهد الرشيد … وأيامنا الزاهيات الغرر
ولسم لأحمد ان لم تصونوا … تراث النبى وذاك الأثر
ولستم لعدنان ان لم تلبوا … نداء فلسطين عند الخطر

وبعد .. ان هذه المقتطفات تصور تصويرا صادقا وحدة الشعور بين أبناء الأمة العربية ولكنها لا تنهض دليلا على أن الشعر هو منشىء القومية العربية بل لعلنا نكون أقرب الى الصواب اذا قلنا ان للشعراء نصيبا مرموقا فى بناء الوحدة العربية فهم حداتها والمعبرون عنها .

---

(٢٤) وردت فى الديوان « بيروت » والصحيح « الحرمين » وفقا لرواية الدكتور ابراهيم الحاردلو .
(٢٥) المصدر نفسه ص ٩١ — ٩٢ .

على أن هناك جانبا هاما فى أبيات الشعر سـالفة الذكر اذ أنها تكاد تجمع على رد مقومات الأمة العربية الى الاسـلام ولغة القرآن ، والاسـلام ليس عقيدة شخصية فحسب ـ كما تصوره بعض الأقلام البعيدة عن ادراك طبيعته الشـاملة ـ وانما هو عقيدة وشريعة ومنهج للحياة وحضارة ومجتمع ، له من المقومات ما يجعله قادرا على التفاعـل والتأثير والأخذ والعطاء واستقطاب تجارب الانسانية وثمرات الفكر البشرى والاستجابة لتحديات التغيـير دون أن يتـرخص فى قيمه ومعتقداته • وهو فى هـذا الاطار تراث مشترك لأبناء الأمة العربية على اختلاف نحلهم ومللهم وللشعوب الاسـلامية على اختلاف ألسنتها وألوانها • ولكن هـذا لا يعنى ـ كما ذكر آخرون ـ أن الاسـلام قد أصبح فى نظر الجيل العربى الحديث تراثا قوميا أكثر منه عقيدة دينية[٢٦] • انه عقيدة فى المقام الأول وتراث من صنع العقيدة •

واذا كان العرب قد عزوا بالاسـلام وبشروا به فى مشـارق الأرض ومغاربها ، فان هـذا لا يعنى أن الاسـلام دين العرب أو دين الجزيرة العربية كما يزعم كثير من المستشرقين ولكن العرب هم الذين حملوا رسالته وشرفوا بها كما شرفت لغتهم بالقرآن ومن هنا كانت أهمية العلاقة بين العروبة والاسـلام وأهمية العالم العربى باعتباره حفيظا على التراث الاسـلامى وقاعدة للدفاع عن لغة القرآن ضد المتربصين بها • لقد حذر عمر بن الخطـاب رضى الله عنه من لوثة العصبية العنصرية ومن احتكار الاسـلام باسم العروبة قائلا :

« ان العرب شرفت برسول الله ﷺ ولعل بعضها يلقاه الى آباء كثيرة ، مع ذلك والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى قرابة وليعمل لمـا عند الله فان من قصر به عمله لم يسرع به نسبه »[٢٧] •

---

(٢٦) Hisham B. Sharabi, Nationalism and Revolution in the Arab World, D. Van Nostrand Co. Inc.. Princeton, New Jersey, 1966 p. 6.

(٢٧) تاريخ الطبرى ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٦٣ ، جـ ٤ ص ٢١٠

فالتراث الاسـلامى واللغة العربية هما قوام الأمة العربية ومع تسرب تيار العلمانية والفكرة القومية بمعناها الأوروبى الحديث الى العالم العربى خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فان طبيعة الأمة العربية لم يطرأ عليها تغيير جوهرى وظل التراث الاسـلامى واللغة العربية بمثابة دعامتين أساسيتين للقومية العربية ويبدو هـذا واضحا فى المحاولات التى بذلت لتعريف هـذه القومية فى العصر الحديث ، فهى فى رأى الدكتور اسحاق موسى الحسينى « جماع المثل العليا المتأصلة فى العرب والتى لا غنى للوجود العربى عنها »[٢٨] والقومية العربية فى تعريف الدكتور سيد نوفل هى « رابطة فكرية تضم أبناء الأمة العربية جميعا وتعتمد على مقومات أصيلة فى مقدمتها وحدة اللغة والثقافة والتاريخ والنضال المشترك للحرية والتقدم وآمال المستقبل فى الوحدة الشاملة الكبرى »[٢٩] .

أما مؤتمر الأدباء العرب الذى عقد فى القاهرة بين يومى ٩ و ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٧ فيعرف القومية العربية بأنها « حقيقة نابعة من أعماق الذات العربية ومن تفكير كل عربى وشعوره أينما كان منزله وهى تعبير عن شخصية الأمة العربية فى أمانيها وحاجاتها ومصالحها وما هو قائم بين أبناء العروبة من أواصر التاريخ والوطن والتراث الثقافى واللغة الواحدة والمصير المشترك كما أنها اعراب عن عزم ونضال من أجل حرية الأمة العربية ووحدتها »[٣٠] .

هـذه المحاولات لتعريف القومية العربية ــ رغم ما يشتمل عليه بعضها من ألفاظ غامضة ــ تكاد تجمع على الأسس التى تستند اليها هـذه القومية وهى رابطة الفكر والوطن ووحدة اللغة والثقافة والتاريخ والنضال والمصير المشترك ، وهـذا عين ما حققه الاسلام للأمة العربية ولكن على مستوى أرفع وعمق حضـارى أبعد مما عرفته القوميـات

---

(٢٨) اسحاق موسى الحسينى ، أزمة الفكر العربى ، بيروت ١٩٥٤ ص ٤٣

(٢٩) سيد نوفل ، القومية العربية فى مواجهة الاستعمار الصهيونى القاهرة ١٩٦٥ ص ٥

(٣٠) المجلة ، القاهرة ، يناير ١٩٥٨ ص ١٨

الحديثة التى نشـــأت فى أوروبا • واذا نظرنا الى حياة العرب قبل الاسلام وقد كانت مسرحا للخصـــام والعدوان والسلب والنهب واذا ذكرنا أرستقراطية قريش فى مكة والعداء المستعر بين الأوس والخزرج وأرستقراطية الجاليات اليهودية فى يثرب ، واختلاف اللهجات واستهجان الولاء لسلطان غير سلطان القبيلة وتفشى الأمية والخواء الروحى وتعدد الآلهة وتنوعها لأدركنا أن كل هـــذه الظواهر ما كانت لتهيىء للعرب مناخا ملائما للوحدة فى أية صورة من صورها •

وهناك من الكتاب العرب من يرى أن القومية العربية مرت فى التاريخ بعدة مراحل تغير خلالها حافزها المثير فالدكتور محمد مندور لا يعترض على أن الاسلام والقرآن كانا الحافز الأول فى نشر اللغة العربية وتكوين العالم العربى ولكن هـــذه الوحدة — فى رأيه — ما لبثت أن تفككت مع الزمن تحت وطأة الأحداث وانقسام العالم العربى الى دويلات[٣١] • ويمضى الدكتور مندور قائلا « ثم جاءت الحروب الصليبية فجددت الاحساس بالوحدة الدينية الاسلامية كأساس للقومية العربية ولكنه لم تكد تنقضى الحروب الصليبية وتنسى مأساتها حتى عاد العالم العربى من جديد الى الانقسام »[٣٢] •

ويلاحظ هنا أن الدكتور مندور يخلط بين وحـــدة الأمة ووحدة الدولة • ان انقسام العالم العربى فيما يسميه الغربيون بالعصـــور الوسطى ، أو فى العصر الحديث الى دول لا يعنى أن الأمة العربية قد انقسمت الى أمم ، فاستقلال مصر عن الدولة العباسية فى عهـــد الطولونيين لم يفصل مصر عن الأمة العربية وانما فصلها من الخلافة العباسية وظهور الدول العربية الحديثة ذات السيادة فى القرن العشرين وتعدد حكوماتها لا يعنى انفصاما فى وحدة الأمة العربية التى صاغها الاســـلام وأنضجتها تجارب الأيام وأحكمت رابطتها وشائج القربى وصهرتها الآلام والآمال ووحدت لسانها لغة القرآن •

---

(٣١) المصدر نفسه ص ١٧ (٣٢) المصدر نفسه والصفحة

لا شك أنه قد ظهرت تيارات فكرية فى وقت ما خلال النصف الأول من القرن العشرين تشكك فى عروبة قطرين من أهم وأكبر أقطار العالم العربى ، وهما مصر والجزائر وهى تيارات تمثل تفكيرا شخصيا غذته مؤثرات أجنبية ولكنها تلاشت بعد أن اقتنع دعاة هذا الاتجاه بالخطأ فى تصورهم • ففى العدد الصادر بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٣٦ من صحيفة « L'Entente » التى أسسها الأستاذ عباس فرحات عام ١٩٣٣ فى الجزائر نشر فرحات مقالته الشهيرة التى جاء فيها : « اننى لن أموت فى سبيل الوطن الجزائرى لأن هـذا الوطن لا وجود له • بحثت عنه فلم أجده • سألت عنه التاريخ والأحياء والأموات وزرت القبور فلم يجبنى أحد • ان الانسـان لا يقيم بنيانه على الريـاح »[٣٣] وكان عباس فرحات يقود يومئذ دعوة الاندماج فى فرنسا مع زميليه الدكتور ابن جلول والدكتور الأخضرى وردت عليه جماعة العلماء الجزائريين على لسان رئيسها عبد الحميد بن باديس فى مجلة الشهاب فى ابريل سنة ١٩٣٦ : « اننا نحن فتشنا فى صحف التاريخ وفتشنا فى الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة وموجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ولهـذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ولها وحدتها الدينية واللغوية ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمة فى الدنيا • ثم ان هـذه الأمة الجزائرية الاسلامية ليست فرنسا ولا تستطيع أن تكون فرنسا لو أرادت ، بل هى بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها وفى أخلاقها وفى عنصرها وفى دينها »[٣٤] •

---

(٣٣) Jean Lacouture, Cinq Hommes Et La France, Paris, 1961 p. 274.

(٣٤) الشهاب ج ١ م ١٢ ص ٤٥ — ٥٠ ، محرم ١٣٥٥ هـ — ابريل ١٩٣٦ ، مقتطفة فى محاضرة مدثر عبد الرحيم : « بين الاصالة والتبعية — تجربة الاستعمار وأنماط التحرر الثقافى فى البلاد الآسيوية والافريقية — أبو ظبى — ٣ مارس ١٩٧٥ ، محاضرات الموسم الثقافى لعام ١٣٩٤/١٣٩٥هـ ١٩٧٤/١٩٧٥م دولة الامارات العربية المتحدة ، ص ١٩١ ، عن كتاب : تركى رابح : الشيخ عبد الحميد بن باديس : فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم ، الجزائر ١٩٦٩ ص ٢٣٤ .

على أن الرد العملى على عباس فرحات جاء بعد اعلان الثورة الجزائرية فى بداية النصف الثانى من القرن العشرين عنـدما كانت فرنسا تردد شعار « الجزائر فرنسية Algerie Francaise » فيرد الشعب الجزائرى الثائر بأن « الجزائر مسلمة Algerie Musulmane » ويلاحظ الأستاذ « برنارد لويس » أنهم لم يقولوا « الجزائر جزائرية » أو « الجزائر عربية » وانما قالوا : « الجزائر مسلمة »[٣٥] .

أما الدكتور طه حسين فكان يؤمن فى سنة ١٩٣٦ بأن مصر جزء من أوروبا فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية ، ويرى أن حياة المصريين المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوروبية خالصة وأنه من السخف الذى ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق[٣٦] . ان مصر فى رأيه تنتمى الى الحضارة الأوروبية حضارة البحر المتوسط .

وجدير بالتنويه أن الفترة التى جهر فيها طه حسين بهذا القول وبآرائه التى ضمنها كتابه « فى الشعر الجاهلى » (١٩٢٦)[٣٧] انما كانت فترة اعجاب بالحضارة الغربية وتقليد لها حتى جمح بعض المستنيرين من أبناء الأمة العربية الى المغالاة فى الدعوة الى قبول معطيات تلك الحضارة بخيرها وشرها ونجد تفسير هذه الظاهرة فى نظرية ابن خلدون التى ذهب فيها الى « أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وفى سائر أحواله وعوائده والسبب فى ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلب عليها وانقادت اليه »[٣٨] وينبغى ألا نغفل هنا أن العصر الذى كتب فيه طه حسين وعباس فرحات ،

---

(٣٥) B. Lewis, Op. Cit. p. 95.

(٣٦) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر — دار المعارف — القاهرة ١٩٤٤ ص ٣٢

(٣٧) لمزيد من الاحاطة بالمعركة الادبية والازمة السياسية التى اثارها كتاب طه حسين « فى الشعر الجاهلى » انظر : محمد سعيد العريان : حياة الرافعى ، مطبعة الرسالة الطبعة الأولى — ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩م) ص ١٢٦ — ١٣٠

(٣٨) ابن خلدون (عبد الرحمن) المقدمة ، تحقيق على عبد الواحد وافى لجنة البيان العربى الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٨ جـ ٢ ص ٤٥٠ ، ٤٥١

وظهر فيه كتاب الشيخ على عبد الرازق عن « الاسلام وأصول الحكم »[٣٩] كان يمثل ذروة التسلط الاستعمارى الأوروبى على العالم العربى والاسلامى .

ولكن الدكتور طه حسين تولى الرد على نفسه مصححا هذه الأفكار فى عام ١٩٥٧ عندما قال فى مؤتمر الأدباء العرب فى القاهرة : « ومن المحقق أن البلاد التى يتألف منها العالم العربى الحديث لا يمكن أن تكون مؤلفة حقا من عناصر عربية خالصة تنسب الى عدنان وقحطان وانما هى عربية بلغتها عربية بشعورها وعقلها ووجدانها وعربية بدينها سواء أكان هذا الدين اسلاميا أم نصرانيا . وهى عربية بكل هذا . آثرت العروبة على غيرها وأصبحت أمة عربية جديدة كونها الاسلام وكونها دون اكراه أو ارغام أو عنف »[٤٠] .

ومن الكتاب العرب من لا يؤمن بوجود أمة عربية واحدة ومنهم من لا يطمئن الى الحديث عن « الأمة العربية » ويخشى أن تتحول « القومية العربية » الى نوع من التأييد للذاتية الاسلامية وهؤلاء يحلمون بأمة عربية مجردة من مقوماتها الاسلامية وتتمتع بحماية أوروبية وكان يمثل هذا الاتجاه فى مطلع القرن العشرين نجيب عازورى مؤسس « جامعة الوطن العربى »[٤١] فمصر فى رأى عازورى ليست قطرا عربيا والقومية التى كان يدعو اليها مصطفى كامل قومية زائفة لأنها موالية للاسلام وللدولة العثمانية . هذه الآراء تشبه الى حد ما آراء أنطون سعادة (١٩٠٤ — ١٩٤٩) مؤسس الحزب السورى القومى وكان « سعادة » يدعو الى القومية السورية التى اعتبرها دينا جديدا يوحد السوريين على اختلاف نزعاتهم ، والعالم العربى فى نظره يمثل مجموعة من الأمم لا أمة واحدة وان كانت لهذه الأمم من روابط الدين

---

(٣٩) راجع القصة الكاملة لكتاب « الاسلام وأصول الحكم » فى كتاب « الاسلام والخلافة فى العصر الحديث » لمحمد ضياء الدين الريس ، منشورات العصر الحديث ، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ (١٩٧٢ م) .

(٤٠) المجلة ، القاهرة ، يناير ١٩٥٨ ص ١٣ — ١٤

(٤١) Albert Hourani, Arabic Thought In the Liberal Age, Oxford University Press, 1962, p. 277.

واللغة ما يدفعها الى العمل للوصول الى اتفاق وتعاون فى بعض المسائل السياسية والثقافية والاجتماعية[٤٢] وهو يسمى هذه القومية الاقليمية « العروبة الحقة » .

والأستاذ بيير الجميل يؤمن بأن لبنان « مبدأ روحى ورسالة[٤٣] وهو — أى لبنان — ينتمى الى الغرب والشرق معا » وهو ضرورى للغرب لأنه يفسر للعرب ثقافة الغرب وأفكاره وقيمه الروحية . وهو ضرورى للشرق العربى لأن هـذا الشرق مدين للبنان بنهضته الفكرية فى القرن التاسع عشر » .

أما سلامة موسى فانه يسخر من اللغة العربية الفصحى ويسخر من الذين « يحترمون القدماء بأشخاصهم وعقائدهم » ومن الثقافة الاقطاعية التى تعنى فى رأيه « تأليف الكتب فى العقائد الدينية والتأليف فى ترجمة معاوية بن أبى سفيان وخالد بن الوليد وحسان بن ثابت » فى الوقت الذى يجب أن يؤلف فيه عن هنرى فورد[٤٤] .

والأستاذ سلامة موسى غاضب على اللغة العربية بوضعها الحاضر وحروفها العربية لأنه يزعم « لن يكون فى بلادنا نهضة علمية ولن ترقى الصـناعة الا حين تتخذ الحروف اللاتينية أى لن تستعرب العلوم الا اذا « استلتن » الهجاء العربى »[٤٥] ، وهو يرى أن اللغة العربية ليست فقيرة فى التعبير ولكن حروفها هى التى تعجز برسمها الحاضر عن التعبير[٤٦] . وهو بالاضافة الى ذلك يؤيد استخدام اللغة العامية دون الفصحى لأن العامية لغة المستقبل .

وهنا لابد من وقفـة لنتبين طبيعة هـذه الدعوة التى تبناها

---

(٤٢) K. H. Karpat, Political and Social Thought in the Contemportary Middle East, London, 1968 pp. 77 - 79.

(٤٣) Karpat, Op. Cit. pp. 108 - 109.

(٤٤) سلامة موسى : البلاغة العصرية واللغة العربية — القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٦٤ ص ٨ — ٩ — ١٥٤

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ١٦٥ (٤٦) المصدر نفسه ، ص ١٦٨

سلامة موسى ونافح عنها فى ذلك الوقت ، وظاهره فيها لويس عوض[٤٧] من بعد ، وذلك نظرا لخطورتها وما قد يبدو عليها فى مظهرها من سحر التجديد والابتكار ، ولكن أول ما نعلمه من الذين درسوا تاريخ الدعوة الى اللغة العامية فى مصر دراســة احاطة وتجرد وعمق أن سلامة موسى لم يكن من المبتكرين فى هــذا المجال وانما كان مقلدا وتابعا لمن سبقه من دعاة العامية « والاستلتان » • أما الذين ابتدعوا حملة التشهير بالعربية الفصحى والتأفف منها تمهيدا للقضاء عليها فهم نفر من الغرباء على الوطن العربى واللغة العربية والتراث الاســلامى ، بل نفر ممن تقلدوا بعض المناصب الرســمية فى مصر فى أوائل عهــد الاحتلال البريطــانى وعلى رأســهم الدكتور الألمــانى « Wilhelm Spitta » « K. Vollers » وكلاهما شغل منصب مدير دار الكتب المصرية ومنهم «J. Seldon Willmore» و « A. Powel » البريطانيين وقد توليا مناصب قضائية فى مصر[٤٨] فى نهاية القرن التاسع عشر • أما الذى نصح المصريين باستخدام العامية فىالكتابة بدلا عن الفصحىلكى يصبحوا مخترعين فهو مهندس الرى البريطــانى « William Wilcok » فى محاضرته التى ألقاها فى نادى الأزبكيــة بعنوان « لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن (١٨٩٣) » ؟ وزعم فى محاضرته أن العامل الأكبر فى فقد قوة الاختراع لدى المصريين هو استخدامهم العربية الفصحى[٤٩] •

وفى عام ١٩٠١ أصدر القاضى ولمور كتابه « العربية المحكية فى مصر » الذى دعا فيه الى كتابة العامية بالحروف اللاتينية وناشد أرباب الصحف أن يبدأوا الكتابة بالعامية واقترح أن يكون التعليم بالعامية اجباريا[٥٠] • وقد تصدى لتفنيد هــذه الدعوة بعض النابهين من أبناء

---

(٤٧) انظر محمود محمد شاكر : « هذه هى القضية » فى اباطيل وأسمار — مطبعة المدنى ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ ص ١٢٩ — ١٥٠.

(٤٨) نفوسة زكريا سعيد ، تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها فى مصر ، الطبعة الأولى مطبعة دار نشر الثقافة ، الاسكندرية ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ ، ص ١٧

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ (٥٠) المصدر نفسه ، ص ١٠٩

مصر فى ذلك الحين حتى خفت صوتها ولكنها تركت آثارها على بعض من فتن بها ومنهم سلامة موسى الذى أعجب بولكوكس وأيد دعوته الى هجر العربية النصحى وفى ذلك تقول الدكتور نفوسة زكريا سعيد : « فلما يئس دعاة العامية من الأجانب من نجاح دعوتهم وخمد نشاطهم تبعا لذلك قام أنصارهم ومن نأثروا بهم من أبناء العربية ببث هـذه الدعوة والترويج لها باسـم الاصلاح والتجديد فى اللغـة العربية وآدابها »[٥١] •

ومن ناحية أخرى يبدو أن بعث هذه الدعوة فى عام ١٩٢٦ والسنوات التى تلتها كان صدى وامتدادا لحركة « الاستلتان » التى قادها مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا بعد الغاء الخلافة العثمانية فى سـنة ١٩٢٤ وما تبع ذلك من أوامر بالغاء المحاكم الشرعية[٥٢] واحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية التى حرمت ابتـداء من أول نوفمبر سـنة ١٩٢٩[٥٣] واذا كان الأستاذ ساطع الحصرى يعرف القومية العربية بأنها « اللغة العربية لا أكثر ولا أقل »[٥٤] فان الدعوة الى العامية تعنى نسف القومية العربية من جذورها ، ولكن الحصرى نفسه يشارك الداعين الى هدم القومية العربية — من حيث لا يشعر — عندما يحاول تجـريد فكرة القومية العربية من أساسها الاسـلامى ويعتبر « الرابطة الاسـلامية » احـدى العقبات التى كانت تعترض طريق القومية العربية[٥٥] • وفى رأى الحصرى أن العرب اذا تخلوا عن الاسـلام فسيظلون عربا[٥٦] وهنا يتولى الأستاذ « هودجكن » الرد على الأسـتاذ الحصرى قائلا « ان العرب اذا جردوا من القرآن

(٥١) المصدر نفسه ، ص ١٢٢

(٥٢) B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, Paperbacks, 2nd Ed. 1968, pp. 272 - 273.

(٥٣) Lewis, Op. Cit. p. 433.

(٥٤) A. Hourani, Op. Cit. p. 313.

(٥٥) ساطع الحصرى ، آراء واحاديث فى اللغة والأدب — دار العلم للملايين — بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٨ ص ١٣٥

(٥٦) A. Hourani, Op. Cit. p. 315.

والاســـلام فانهم لن يفقدوا عقيدتهم فحسب بل يفقـــدون تاريخهم ومجتمعهم وتقاليدهم ولغتهم »[٥٧] .

وقد ذهب بعض الكتـــاب العرب الى الاسراف فى رد القومية العربية وأصـــول الوعى المشترك بين العرب الى العصـــور القديمة فالدكتور ابراهيم جمعة يعتبر القومية العربية قديمة قدم العرب وأنها أقدم من الدولة العربية التى ظهرت مع الاسلام[٥٨] ويتخذ ابراهيم جمعة الهزيمة التى حاقت بجيش أبرهة «الأصحم» — أو «الأشرم» — ابن الصباح فى عام (٥٧٠ م) دليلا على وجود وعى عربى قومى وقف فى وجه الغزو الأجنبى[٥٩] وهو يشير بذلك الى قصة أصحاب الفيل التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم غير أنه لم تكن ثمة صلة للوعى العربى بهذا الحدث لأن هلاك أبرهة وجيشـــه تم من قبل طير أبابيل أرسلها الله ســـبحانه وتعالى « **وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول** »[٦٠] . لم يكن هناك لقاء بين جيش عربى وجيش أجنبى . وانما خرجت قريش — عندما سمعت بقدوم أبرهة — فاعتصمت بالجبال ، بينما تولى عبد المطلب جد النبى ﷺ الرد على أبرهة قائلا « ولكن البيت له رب يحميه ويحرسه »[٦١] .

ولئن صح أن انتصار العرب على الفرس فى يوم ذى قار سنة ١٣ ق.هـ (٦١٠ م) كان دلالة على أهمية القيمة العصبية ووجود نوع من وحدة الهدف بين كثرة القبائل العربية[٦٢] فان اتخاذه دليلا على وجود وعى قومى عربى[٦٣] لا يخلو من مبالغة مفرطة .

---

(٥٧) E. C. Hodgkin, The Times, London, No . 58036, November, 30, 1970, p. 8.

(٥٨) K. H. Karpat, Op. Cit. p. 48.

(٥٩) Karpat, Op. Cit. p. 48.

(٦٠) الفيل : ٣ — ٥ ، انظر : عبد الله الطيب تفسير جزء عم ، بيروت الطبعة الأولى ، سورة الفيل ص ٤١٧ — ٤٢٠ .

(٦١) المصدر نفسه ص ٤١٩

وراجع أيضا : ابن هشـام ، الســـيرة النبوية ، الطبعة الثانية ، مصطفى البابى الحلبى ، مصر ، ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) ج ١ ص ٥٢ — ٥٣ .

(٦٢) عمر فروخ — تاريخ الجاهلية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٤ ص ١٤٥

(٦٣) Karpat, Op. Cit., p. 48.

ويورد الدكتور سيد نوفل رأيا مشابها لرأى الدكتور ابراهيم جمعة حول هذا الموضوع فيقول :

« ان أصول الوحدة العربية والوعى العربى المشترك تعود الى التاريخ القديم عندما نمت تلك الأصول قبيل الاسلام فى الاجتماع تحت علم النضال ضد المطامع الأجنبية الفارسية والرومانية وفى توحيد اللهجات اللغوية ونمو الأسواق والتبادل التجارى »(٦٤) .

لقد جرت الأحداث التى استند اليها ابراهيم جمعة وسيد نوفل فى تأييد وجهة نظرهما فى وقت كان العرب يفتقرون فيه الى الوعى القومى والوحدة الداخلية ولم تقم لهم بعد دولة تنمى الوحدة القومية ونزعاها ولعل الرابطـــة التى كانت تجمع القبائل فى ذلك الحين ازاء العالم المحيط بهم لا تعدو شعورا بالاستعلاء والتفوق العنصرى بينما حطم الاســـلام العنصرية وأقام مكانها الاخوة الاسلامية التى تؤمن بالكتب المنزلة من عند الله جميعها ولا تفرق بين البشر بسبب اللون أو السلالة ولا تفاضل بينهم الا بالتقوى وصالح العمل :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »(٦٥) .

وفضلا عن ذلك لم يعرف العرب الوعى التاريخى قبل الاسلام . كانت لهم معرفة بالأنساب وبالمعارك القبلية التى سموها « أيام العرب » ولكن هـــذه الأحداث كانت معزولة بعضها عن بعض . أما الوعى التاريخى فقد أخذوه عن القرآن بما أعطاهم من تصور شامل لقصة الانســـان على الأرض وللتاريخ الدينى للبشرية (٦٦) ويمكن القول انه منـــذ ذلك

---

(٦٤) سيد نوفل ، مرجع سابق ص ١٠

(٦٥) البقرة : ١٣٦

(٦٦) J. F. Schacht, The Arab Nation, Paths and Obstacles to Fulfilment 14th. Annual conference on Middle Eastern Affairs, May 5 - 7, 1960 Middle East Institute, Washington, D. C. 1961, pp. 19 - 20.

الوقت أخذ العرب يتمتعون بدرجة عالية من الوعى التاريخى وفى رأى « شاخت » أن العرب لم يصبح لهم تاريخ مشترك الا بعد الفتوح الاسـلامية[٦٧] •

لقد ولدت الأمة العربية بظهور الاسلام ونمت فى رحابه ولكنها أخذت تستجيب لبوادر الوعى القومى الحديث منـذ نهاية القـرن التاسع عشر وذلك بعد أن شهدت فى تاريخها الطويل ضروبا من الصعاب وعاشت عصورا من القوة والضعف وذاقت ألوانا من نشوة النصر ومر الهزيمة ولكنها ظلت صامدة متميزة بخصائصها لم تذب ولم تنـدثر وما كان استيعابها فى اطار الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر بداية لنهايتها وانما كان فاتحة لمشاركتها فى دولة الخلافة الاسـلامية التى صانت وحدة العالم العربى والاسلامى واستقلاله زهاء أربعة قرون (١٥١٤ — ١٩٠٨)[٦٨] وحملت أمانة الدفاع عن فلسطين وحمايتها من المطامع اليهودية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين • وحتى فى عصور ضعفها كانت الدولة العثمانية — بحق — الملاذ السياسى للشعوب الاسلامية المتطلعة الى العون فى جهادها ضد الاستعمار • تطلعت اليها حركة المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين بعد احتلالهم الجزائر واستغاثت بها تونس كما تطلعت اليها شعوب القوقاز فى نضالها ضد مطامع القيصرية الروسية فى القرن التاسع عشر[٦٩] واتجهت اليها مصر لانقاذها من التدخل البريطانى ولكن الدولة عجزت عن الاستجابة للنـداء لأنها بلغت من الكبر عتيا ووقعت تحت التهديد الأوروبى •

وعندما انفتحت الدولة العثمانية على العالم الغربى وهبت عليها رياح التغيير فى القرن التاسع عشر ، عاشت معها الأمة العربية هـذه

---

(٦٧) Schacht, op. cit., p. 20.

(٦٨) يوافق هـذا التاريخ (١٩٠٨) ثورة الشبان الأتراك التى قضت على الخلافة العثمانية من الوجهة العملية وان كان الغاء الخلافة رسميا تم فى مارس سنة ١٩٢٤ ، عندما سيق آخر خليفة عثمانى الـى المنفى •

(٦٩) Arnold Toynbee, A Study of History, Oxford University Press, London, 1969 Vol. 8 pp. 962 - 963.

التجربة فشهدت سوريا فى النصف الثانى من ذلك القرن نشاط بعثات التبشير الأوروبية والأمريكية كما شهد وادى النيل جهود محمد على باشا فى مجالات الزراعة والتعليم والترجمة وتغريب[٧٠] الحياة المصرية وأخذت أذهان العــرب تتفتح لا على علوم الغرب وتقدمه المــادى والعلمى فحسب بل على واقعهم الأليم وعلى ذخائر ماضيهم وأمجادهم الغابرة وفى الوقت ذاته شرعت الدول الاستعمارية الغربية فى ابتلاع الأقاليم العربية العثمانية اقليما تلو الآخر فعززت فرنســا احتلالها للجزائر[٧١] باعلان الحماية على تونس فى مايو ســـنة ١٨٨١ بحجة المحافظة على الأمن ، ويروى « ولفرد بلنت » أن الأمن لم يكن فى حاجة الى من يحافظ عليه[٧٢] وانفردت بريطانيا باحتلال مصر (١٨٨٢) وضرب الثورة العرابية ، واحتلال السودان (١٨٩٦ — ١٨٩٩) وذهبت ليبيا ضحية للاحتلال الايطالى (١٩١٢) • وهكذا اقترن اللقاء الفكرى بين العالم العربى والغربى بالمواجهة السياسية والعسكرية فالاحتلال — أى اقترن التحدى الحضارى بالتحدى الحربى والسياسى — فكانت اليقظة القومية هى الاستجابة لتلك التحديات • ان مؤرخى الحركة العربية فى العصر الحديث يكادون يتفقون على أن الفكرة القومية بمعناها الحديث لم تظهر لدى العرب الا بعد منتصف القرن التاسع عشر نتيجة لعدد من المؤثرات والعوامل كالالتقاء بين شعوب الشرق الأوسط والغرب وتسرب الأفكار السياسية الغربية الى العالم العربى ونشاط المبشرين والمستشرقين الغربيين وعنايتهم بدراسة اللغة العربية وتاريخ العرب والاسلام ونمو العلاقات التجارية والسياحية بين أوروبا والبلاد العربية وظهور الصحافة وتنبه ســكان العالم العربى الى وجود عالم جديد يفوقهم علما وقوة وثراء فى وقت كان العرب يعانون فيه من الجهل والفقر والضعف •

ويعزو الأستاذ جورج أنطونيوس بداية هــذه اليقظة فى سوريا

---

(٧٠) ترجمة لكلمة « Westernisation » .

(٧١) احتلت الجزائر فى سنة ١٨٣٠

(٧٢) W. S. Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, U. K., 1907 pp. 122 - 123.

الى نشاط البعثات التبشيرية الكاثوليكية « والمسيحية »[٧٣] التى أسست المدارس وجلبت المطابع وساعدت على ظهور الجمعيات الأدبية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر • ووجدت تلك الجمعيات فى بعث الأدب العربى أساسا صالحا لبناء المستقبل وارساء الحياة العربية على قواعد جديدة من الاخاء والتراث الأدبى المشترك • ومن الشخصيات العربية التى تبنت هذا الاتجاه الأستاذ ناصيف اليازجى (١٨٠٠ — ١٨٧١) وبطرس البستانى (١٨١٩ — ١٨٨٣) وقد عرف اليازجى بامتلاك ناصية اللغة العربية حتى استعان به المبشرون الأمريكان فى اخراج كتبهم باللغة العربية لطلاب المدارس التبشيرية وكان اليازجى يرى فى بعث الأدب العربى الطريق الأوحد لاشاعة روح التسامح ونبذ التعصب • أما الأستاذ البستانى فكان ضليعا فى اللغة العربية ويجيد عددا من اللغات الأجنبية منها العبرية والاغريقية والايطالية واللاتينية والآرامية • وأول جمعية ألفها هذان الأديبان — وتعتبر الأولى فى العالم العربى كله — هى جمعية الآداب والعلوم (١٨٤٧) وكانت تضم بعض المبشرين الأمريكان من أمثال « كونيليوس فانديك » و « ايلى سمث » • ثم ظهرت الجمعية الشرقية التى ألفها اليسوعيون فى عام ١٨٥٠ برئاسة الأب « هنرى دى برونيير » وفى سنة ١٨٥٧ أسست الجمعية السورية العلمية التى أعيد تكوينها فى عام ١٨٦٨ بعد أن توقف نشاطها فترة من الزمن وكانت تدعو الى تقدم البلاد والاعتزاز بالتراث العربى ويرى «أنطونيوس» فى هـذه الجمعية أول مظهر للوعى الوطنى الجماعى ومهد حركة سياسية جديدة[٧٤] وان كان أول جهد منظم فى حركة العرب القومية يرجع فى رأيه الى سنة ١٨٧٥ حين ألفت جمعية سرية فى بيروت تضم خمسة أشخاص من خريجى الكلية السورية البروتستانتية وأنشأت لها فروعا فى دمشق وطرابلس الشـام وصـيدا وكان من أعضائهـا الدكتور فارس نمر ولم يمض على تأسيس هذه الجمعية بضع سنوات حتى

---

(٧٣) ترجمة لكلمة «Prespyterian» وهى صفة لكنيسة بروتستانتية

(٧٤) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، تعريب ناصر الدين الأسد واحسان عباس ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٦ ص ١١٨ — ١٢٠.

ظهرت منشورات سرية فى بيروت تندد بحكم الأتراك وتحرض العرب على الثورة ويرى « ليونارد شتاين » أن حركة القومية العربية ولدت فى منتصف القرن التاسع عشر بجهود عدد ضئيل من السوريين واللبنانيين وكانت كثرتهم من النصارى لبنـاء نهضة أدبية عربية وتذكير العرب بتراثهم الثقافى وأن الكلية السورية — الجامعة الأمريكية فيما بعد — لعبت — تحت اشراف المبشرين الأمريكان — دورا هاما فى ظهور هذه النهضـة[٧٥] وفى رأى « شتاين » أن علاقة هـذه المؤسسة بنشأة الحركة القومية فى سوريا كانت من العوامل التى جعلت وزارة الخارجية الأمريكية فى واشنطون لا تعطف كثيرا على الحـركة الصهيونية فى سنة ١٩١٧[٧٦] ولعله يشـير بذلك الى معارضة « روبرت لانسنج » وزير الخارجية الأمريكية الذى نصح الرئيس الأمريكى « ويلسون » ألا يؤيد وعد « بلفور » (انظر الفصل الثالث) .

ان الحديث عن بعض الجمعيات التى ظهرت فى سوريا فى النصف الثانى من القرن التاسـع عشر باعتبارها طلائع البعث القومى للأمة العربية فى العصر الحديث لا يخلو من مبالغة بل لعله لا يستند الا على قدر ضئيل من الحقيقة اذ يلاحظ أن هـذه الجمعيات ظهرت فى وقت قريب من عهد الاضطرابات الطائفية التى شهدتها سوريا وبخاصة لبنان بين عامى ١٨٤٥ و ١٨٦٠ وقد ذكر أنطونيوس أن هـذه الفتن اندلعت بعد انسحاب ابراهيم باشا من سوريا اثر تدخل الدول الأوروبية الذى انتهى بانتزاع سـوريا من محمـد على ومنحه ولاية مصر بالتوارث (معاهدة لندن ١٨٤٠) وأضاف أنطونيوس أن فرنسـا وبريطانيا كان لهما ضلع فى فتنة لبنان عام ١٨٤٥ عنـدما ظاهرت فرنسـا الموارنة ووقفت بريطانيا مع الدروز كمـا ذكر أن الدول الأوروبيـة اتخذت اضطرابات سنة ١٨٦٠ فى لبنان ذريعة للتدخل فى شئون سـوريا[٧٧]

---

(٧٥) Leonard Stein, The Balfour Declaration, London, 1961 pp. 86 - 87.

(٧٦) Stein, Op. Cit., pp. 87 . 593 - 594.

(٧٧) أنطونيوس ، المصدر نفسه ص ١٢٢ — ١٢٤

ومع أن ظهور الجمعيات التى أشـار اليها أنطونيوس اقترن بنشاط الهيئات التبشيرية الأمريكية فان ظهورها فى تلك الفترة وفى الاقليم الســورى بالذات أمر يسترعى النظر ويحتاج الى تفسير • وأقرب التفاسير الى الذهن أن الدعوة الى اتخاذ الأدب وســيلة لنبذ التعصب والخلاف الطائفى كانت تعبيرا عن حالة القلق الســائد فى بعض أجزاء الاقليم الســورى نتيجة خلافات عقائدية تبناها الاســتعمار الفرنسى والبريطانى وعمل على تغذيتها لاضعاف سلطة الحكومة العثمانية واحراز المزيد من التدخل فى شئونها وكانت المنافسة حادة بين بريطانيا وفرنسا على مواقع النفوذ فى الأراضى الســورية بعد اخراج محمد على منها واستغلال الاستعمار للفتن أو اثارتها يذكرنا بفتنة الاسكندرية الشهيرة (١١ يونيو ١٨٨٢) التى كان البادىء بالعدوان فيها أحـد الرعايا البريطانيين من أهـل مالطة والتى اســتطار شرها وذهب ضحيتها مئات الأبرياء[٧٨] • وقد أشارت بعض أصابع الاتهام فيها اشارات ليس من السهل تجاهلها الى أن الفتنة كانت مدبرة[٧٩] وسواء أثبتت التهمة أم لم تثبت فان نيران مدفعية الأسطول البريطانى قصفت مدينـة الاسكندرية فى الحادى عشر من شهر يوليو ١٨٨٢ ايذانا ببدء الاحتلال البريطانى لمصر أى بعد ثلاثين يوما من مذبحة الاسكندرية وقد « أراد الانجليز أن يعزوا هـذه المأساة الى عرابى »[٨٠] وهـذا اتجاه يصعب قبوله لأن مدبرى المأساة اذا ثبت أنها مدبرة — لابد من أن يكونوا من الذين لهم مصلحة فى قمع الثورة العرابية أو تبرير التدخل البريطانى المسلح فى مصر أو الأمرين معا ولن يكون أحمد عرابى هو صاحب هذه المصلحة بأى حال من الأحوال ، وبما أن الثورة العرابية قد قمعت فعلا بمدافع الأســطول البريطانى واستغلت فتنة الاسكندرية لتبرير

---

(٧٨) مكى شبيكة ، تاريخ شعوب وادى النيل ، نقلا عن عبد الرحمن الرافعى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٦١٧

(٧٩) محمود الخفيف ، أحمد عرابى ، كتاب الهلال العدد ٢٤٥ يونيه ١٩٧١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩

(٨٠) محمود الخفيف المصدر نفسه ص ٣٢٣

الاحتلال فان ذلك أدعى لترجيح القول بأن الفتنة كانت من تدبير الغزاة الطامعين فى احتلال مصر •

ان هـذه التأملات فى صلة الجمعيات الأدبية السـورية بنشأة الحركة القومية العربية لا تعنى أن تلك الجمعيات لم تسهم بأى قدر فى نمو الحـركة اذ لا شك فى أنها ساعدت على جعل اللغة العربية والتراث الاسـلامى موضع اهتمام عدد قليل من أبناء سـوريا وظل هـذا العدد يزداد حتى امتدت آثاره الفكرية ونشاطه الاعلامى فيما بعد الى وادى النيل ، عندما ظهرت صحيفة « الأهرام » فى الاسكندرية سنة ١٨٧٦ لمؤسسيها سليم وبشارة تقلا وفى القاهرة سنة ١٨٩٨ ، وانتقلت « المقتطف » أقدم المجلات العربية الأدبية والعلمية من بيروت الى القاهرة سنة ١٨٨٤ لصاحبها يعقوب صروف وفارس نمر وظهرت « مصر » لأديب اسـحاق سـنة ١٨٧٧ وأسس جورجى زيدان[٨١] « الهلال » فى القاهرة سنة ١٨٩٢ وأصدر نجيب الحداد وأمين الحداد وعبده بدران « لسان العرب » سنة ١٨٩٤ فى الاسكندرية وبعثت ادارة «المقتطف» و «المقطم» خليل ثابت ولبيب جريدينى لتأسيس صحيفة « السودان » فى الخرطوم سنة ١٩٠٤[٨٢] •

غير أن الأستاذ أنطونيوس يذكر أن الهيئات التبشيرية الأجنبية كانت تهدف الى توجيه الولاء الفـكرى للجيل العربى الجديد نحـو الثقافات الأوروبية المختلفة لاسيما الثقافة الفرنسية[٨٣] حتى ظهر جيل من المتعلمين يألفون اللغة الفرنسـية والانجليزية والروسية أكثر مما يألفون لغتهم الأصلية بل أصبح التعليم الغربى التبشيرى أداة من

---

(٨١) جورجى زيدان (١٨٦١ — ١٩١٤) من عرب حوران . نشا فى بيروت وهاجر الى مصر وكان محررا فى جريدة الزمان ثم مترجما مع الحملة البريطانية النيلية الى السودان • اشتهر بمؤلفاته التاريخية عن الاسـلام وأصدر عددا كبيرا من الروايات التاريخية (عن المنار جـ ٨ م ١٧ ص ٦٣٦ ، يونيو ١٩١٤) .

(٨٢) محمد صالحه وسميح معنلى : تاريخ الصحافة العربية ، عمان ١٩٦٦ ص ١٠٩ — ١٤٢

(٨٣) أنطونيوس : المصدر نفسه ص ١٦٥

أدوات التغلغل السياسي وبهذا أفسد ما قام به المصلحون العرب من أتراب البستاني الذين كانوا أول من وقف في وجه الخلافات الطائفية(٨٤) .

ويرى آخرون أن نشاط المبشرين الأجانب في سوريا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان عائقا ليقظة العرب من حيث أنه أثار شكوك الأكثرية العظمى من السكان المسلمين الذين وقفوا بعيدا عن المؤسسات التعليمية التي أنشأها المبشرون ومن حيث أنه ساعد على اذكاء نار العداوة بين الطوائف المختلفة مما استلزم في بعض الأحيان تدخل قناصل الدول الأجنبية(٨٥) .

غير أن المستشرقين والمبشرين الذين عنوا بالدراسات العربية الاسلامية أسهموا — من ناحية أخرى — في يقظة الأمة العربية ، مع ما عرف عن بعضهم من اسراف وغلو في عداوتهم للاسلام وقيمه وتراثه الحضاري ، كالأب « هنري لامانس » و « سير وليام موير » (١٨١٩ — ١٩٠٥) « ويوليوس ولهاوزن » ، يقابل ذلك المعتدلون منهم الذين اتسمت دراساتهم الاسلامية بقدر كبير من الهدوء والعمق كالأستاذ « هـ.ر. جب » « وبرنارد لويس » ولكن مجرد صدور أحكام هؤلاء وأمثالهم على الاسلام وتاريخه ، من موقع التبشير السافر والمستتر ، أو بدافع الهوى السياسي والتشيع الديني لأبناء ملتهم أو من موقع الاستعلاء والصلف الحضاري (٨٦) ، كل ذلك يوجب النظر في أعمالهم بكثير من الحذر واليقظة .

---

(٨٤) أنطونيوس : المصدر نفسه ص ١٦٦

(٨٥) Zeine, N. Zeine, The Emergence of Arab Nationalism Beirut, Khayats, 1966 pp. 46 - 47.

(٨٦) راجع : Edward W. Said, Orientalism, Routlege and Kegan Paul, London, 1978, pp. 236 — 237 .

وراجع أيضا : عبد اللطيف الطيباوي : المستشرقون الناطقون بالانجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الاسلام والقومية العربية ، ملحق كتاب : محمد البهي ، الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٥٧٩ — ٦١٤

لقد بدأت حركة الاستشراق الأوروبى منذ وقت مبكر وربما تعود الى القرن الثانى عشر الميلادى عندما كان العلماء الأوروبيون يزورون الجامعات العربية فى اسبانيا ويعتبر الأستاذ « Alfred of Bath » أول من حمل لواء الدراسات العربية فى الغرب(٨٧) وبدأت الحركة فى بريطانيا فى القرن السابع عشر باعداد القواميس العربية وكتب النحو وتحرير المخطوطات وترجمة القرآن ثم فتحت الحملة الفرنسية الى مصر المجال لزيارة الشرق ومن ثم بدأت حركة الاستشراق العلمى على أيدى العلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة الفرنسية وعلى رأسهم « Silvestre de Sacy » ثم أقبل علماء أوروبا على الدراسات الشرقية من مختلف الأقطار • فمنهم الفرنسيون والألمان والبريطانيون والايطاليون والهولنديون والروس وغيرهم ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال « كارل بروكلمان » و « أ•ل• بروفنسال » و «س•ه•بيكر » و «أ•س•تريتون » و «ت•نولدكه» و « ر•ليفى » و « أ•ح آربرى » و « د•س• مرجليوث » و « ب•• لويس » و « لوى ماسينون » • وكان من هؤلاء المستشرقين من أظهر اعجابه بالحضارة الاسلامية وسكن الى الحياة فى البلاد العربية كالأستاذ «B. W. Lane» (١٨٠١ — ١٨٧٦) الذى زار مصر واتخذها دار اقامة وعرف بالأستاذ الأكبر للدراسات العربية وسمى « منصور أفندى »(٨٨) ومنهم « ولفرد بلنت » (١٨٤٠ — ١٩٢٢) صديق « محمد عبده » ونصير الثورة العرابية وهو مؤلف « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى فى مصر » وكتاب « عبد القادر الجزائرى بطل الثورة الجزائرية » فى القرن التاسع عشر وقد استقر فى القاهرة واتخذ الزى المصرى وأصبح لا يتكلم غير العربية(٨٩) •

كانت الاستجابة لتعصب غلاة المستشرقين وأسلوبهم فى تناول القضايا الاسلامية تجاه الحركة القومية الحديثة فى العالم العربى الى

---

(٨٧) Bernard Lewis, British Contributions to Arabic Studies, London, 1941, p. 12.

(٨٨) Lewis, op. cit. pp 21 - 23.

(٨٩) Lewis, op. cit.,p. 27.

استلهام الاسلام عقيدة وثقافة وحضارة[٩٠] والتصدى للدفاع عن النفس وعن الكيان الثقافى والحضارى والروحى للأمة العربية والاسلامية . وظهر هـذا الموقف الدفاعى بوضوح فى نهاية القرن التاسع عشر فى رد السيد « جمال الدين الأفغانى » على محاضرة « أرنست رينان » التى ألقاها فى السوربون فى مارس ١٨٨٣ عن « الاسلام والعلم » كمـا تجلى فى مقالات « العروة الوثقى » التى أصدرها الأفغانى ومحمد عبده فى باريس من (١٣ مارس الى أكتوبر ١٨٨٤) وسار مصطفى كامل فى نفس الاتجاه كما تشهد بذلك خطبه التى ألقاها فى زياراته للأقطار الأوروبية وجريدته الأسبوعية « العالم الاسلامى » التى أصدرها فى أول مارس سنة ١٩٠٥ .

هـذه الروح الدفاعية التى أثارها تحامل المستشرقين نلمسها على صفحات « العروة الوثقى » « والمنار » وفى حملة الدفاع عن الاسلام التى ظهرت فى النصف الأول من القرن العشرين فى مؤلفات محمد حسين هيكل وطـه حسين وعباس محمود العقاد وأحمد أمين وتوفيق الحكيم ومصطفى صادق الرافعى ومجلة «الرسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات . وقد كانت هـذه الحملة الدفاعية لازمة فى حينها لا لأنها تولت الرد فحسب على مفتريات دافعها التعصب الأعمى لبعض المستشرقين وجهلهم بحقائق الاسلام ولكن لأنها أعادت لشبان الأمة العربية الذين لم يكن لهم المـام كاف بتاريخ أمتهم وهزتهم تلك المفتريات ، أعادت اليهم الثقة بأنفسهم وببلادهم وبتراثهم الحضارى .

على أن تحدى المستشرقين كان له نوع آخر من ردود الفعـل وأعنى به اقبال الصفوة الواعية من أبناء البلاد العربية على دراسـة الحضارة الاسلامية والتراث العربى دراسـة فاحصة ناقدة تستخدم أساليب البحث العلمى الحديث وأدواته وتهدف الى التقويم الموضوعى للحضارة العربية الاسلامية لا تكتفى برصد هفوات المستشرقين وتعصبهم ولا تغمض عيونها عن واقعها المرير لتتغنى بأمجاد المـاضى فى نشوة

---

(٩٠) E. I. J. Rosenthal, Islam in the Modern National State, Cambridge University Press, 1965, p. 5.

ذهنية عاطفية ولكنها تشخص العلل التى أصابت الأمة العربية والاسلامية وتدرس عوامل تخلفها الاقتصادى والاجتماعى وتضع الأسس القويمة التى تحقق لأمتهم الانطلاق المعافى والوحدة المنشودة والتقدم والرخاء بعد عصور من الجمود والتفرق والضعف . هـذا الاتجاه الجديد نحو قضية التجديد فى العالم العربى لا شك أنه أحـد نتائج تحديات « الاستشراق » وهو من شأنه أن يدفع أبناء الأمة العربية والاسلامية الى « طرح مشكلة الاسلام والعلم بحيث لا نصبح نبحث فى الآيات الكريمة هل ذكر فيها شىء عن غزو الفضاء أو تحليل الذرة وانما نتساءل هل فى روحها ما يعطل حـركة العلم أو على العكس ما يشـجعها وينميها »[٩١] .

أما الصحافة فانها لعبت دورا هاما فى ايقاظ الشـعور الوطنى وتحقيق نوع من التجانس الفكرى بين أبناء البلاد العربية فى وادى النيل والهلال الخصيب بل امتدت آثار بعض الصحف الى كافة أطراف الوطن العربى وبعض أجزاء العالم الاسلامى كالهند . وقد ذكرنا طرفا من أخبار الصحف التى أسسها فى مصر المهاجرون من أبناء الاقليم السورى . وفى سـوريا نفسها ظهر عدد كبير من الصحف الأدبية والسياسية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر أذكر منها — على سبيل المثال لا الحصر — « حديقة الأخبار » (١٨٥٨) فى بيروت لخليل الخورى و « نفير سـوريا » (١٨٦٠) لبطرس البسـتانى و « الجنينة » (١٨٧١) لسليم البسـتانى و « النجاح » (١٨٧١) للقس لويس صابونجى و « لسان الحال » (١٨٧٧) لخليل سركيس و « الشهباء » (١٨٧٧) لعبد الرحمن الكواكبى وهاشم العطار فى دمشق و « المقتطف » (١٨٧٦) — قبل انتقالها الى مصر — ليعقوب صروف وفارس نمر وفى مطلع القرن العشرين (١٩٠٨) ظهرت صحيفة

---

(٩١) مالك بن نبى : انتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الاسـلامى الحديث ، دار الارشاد للطباعة ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٦

« الاتحاد العثمانى » للشيخ أحمد حسن طبارة و « الاخاء العثمانى » (١٩١١) لمحمد شاكر الطيب[٩٢] •

وهناك صحف أخرى كان لها أثر أكبر فى بعث الوعى العربى والاسلامى ومقاومة الاحتلال البريطانى فى مصر • ويحدثنا الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عن بعض هـذه الصحف وميولها فيقول « ان الصحافة فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر كانت اما موالية للاحتلال وتؤيده واما معارضة فى خوف وتردد خشية المصادرة والتعطيل وكانت جريدة «الأهرام» و « الوطن » (لميخائيل عبد السيد) تنحوان هذا النحو من المعارضة ثم حمل لواءها « المؤيد » (للشيخ على يوسف) فى رفق وهوادة » • ووصف الرافعى ظهور جريدة المؤيد (ديسمبر ١٨٨٩) بأنه « كان من الحوادث الهامة فى عهد وزارة رياض باشـا وكانت سياسة تلك الجريدة وطنية اسلامية بعثت الروح الوطنية وأحيت الصلات بين الأمم الشرقية ونبهت الرأى العام فى مصر الى تعرف حقائق الحالة السياسية التى وصلت اليها فى عهد الاحتلال »[٩٣] ويمضى الأستاذ الرافعى قائلا « أما الصحيفة الوحيدة التى كانت تهاجم الاحتلال فى شجاعة وقوة فهى « العروة الوثقى » (١٨٨٤) وكانت أول صحيفة قاومت الاحتلال فى عهده الأول »[٩٤] •

لم تكن « العروة الوثقى » تقاوم الاحتلال البريطانى فحسب ولكنها كانت تحمل تعاليم الأفغانى وآراءه التى تندد بحكم الفـرد وتتحدث عن الحكم الدستورى الذى « تأتى به الأمة فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسى وتؤكد للحاكم أن التاج سيبقى فى رأسه مادام محافظا أمينا على صون الدستور • أما اذا حنث بقسمه أو خان دستور الأمة فاما أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس »[٩٥]

---

(٩٢) محمـد صالحه وسـميح معنلى ، مصـدر سلف ذكره ، ص ١١٣ — ١٢٠

(٩٣) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال : القاهرة ١٩٦٦ الطبعة الثانية ص ٢٠٢ — ٢١٣ — ٢١٤

(٩٤) الرافعى ، المصدر نفسه ص ٢١٤

(٩٥) نقلا عن مكى شبيكة ، تاريخ شعوب وادى النيل ص ٥٦٣

لقد كانت تعاليم الأفغانى ضد الحكم الفردى باعتباره منافياً للاسلام لأن الحاكم الاسلامى يستمد سلطته من شعبه ولا يحكم الا برضائه ولكل فرد حق التعبير عن رأيه[٩٦] • ونظرا لخطورة هـذه الآراء حظرت سلطات الاحتلال البريطانى دخول العروة الوثقى فى الهند[٩٧] ومصر • ومن الصحف الوطنية التى عارضت الاحتلال مجلة « الأستاذ » للسيد عبد الله النديم التى ظهرت فى أغسطس سنة ١٨٩٢ واتهمها لورد كرومر — زورا [٩٨] بالتعصب فأوقفها فى سنة ١٨٩٣ وأبعـد مؤسسها عن مصر •

ومن المجلات التى حملت رسالة « العروة الوثقى » وسارت فى طريقها مجلة « المنار » التى أسسها الشيخ محمد رشيد رضا وهى شبيهة « بالعروة الوثقى » فى اتجاهاتها ولكنها تبدى اهتماما أكبر بالاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والدينى • بدأت جريدة يومية — صدر العدد الأول منها فى ١٧ مارس ١٨٩٨ — ثم أصبحت شهرية وكانت السلطات العثمانية تمنع دخولها أراضى الدولة العثمانية بل صدرت أوامر الى والى بيروت ومتصرف طرابلس باحراق العـدد الثانى من السنة الأولى[٩٩] • وكان من كتاب المنار الشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وقد شهد محمد عبده بأثر المنار فى تونس عندما زارها فى سنة ١٩٠٣ والمنار هى المجلة التى نشرت مقالات « أم القرى » للكواكبى وحملت لواء المعارضة ضد السلطان عبد الحميد وضد الأتراك الاتحاديين فيما بعد ونددت باتجاهاتهم المعادية للعروبة والاسـلام • وكانت « المنار » من أولى المجلات التى نبهت العرب الى خطر الصهيونية منذ عام ١٩١٤ ونشرت ترجمة للبرنامج الصهيونى وعلقت عليه بقولها :

« لو لم ينشر من هـذا الكتاب الصهيونى الا هـذه الفصول لكفت

---

(٩٦) W. S. Blunt, Op. Cit. pp. 123 - 124.

(٩٧) Encyclopaedia of Islam, New Ed. Leiden Vol. 2 p. 418.

(٩٨) عبد الرحمن الرافعى : المصدر نفسه ص ٢١٣ — ٢١٤

(٩٩) أحمد العدوى : رشيد رضا الامام المجاهد ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٤١

من يعتبر من العرب الفلسطينيين وغيرهم عبرة وبيانا لمقاصد هؤلاء الصهيونيين وليعلم من لم يكن يعلم دين هـذه الأمة وتاريخها أن الصهيونيين اذا تم لهم ما يريدون فانهم لا يبقون فى أرض الميعاد التى يؤسسون ملكهم الجديد فيها مسلما ولا نصرانيا[١٠٠] •

أما اتجاه « المقطم » فكان مواليا للاحتلال البريطانى مما دفع طلاب احدى المدارس الى القيام بمظاهرة أمام دار هـذه المجلة وكان يقود المظاهرة طالب فى الثامنة عشر من عمره يسمى مصطفى كامل[١٠١] وقد تجسدت فى شخص هـذا الشاب آمال مصر الفتية فى التحرر من الاحتلال البريطانى وبناء الوحدة الاسلامية وقام باصدار عدد من الصحف تعبر عن فلسفته واتجاهاته السياسية منهـا « اللواء » و « العالم الاسلامى » •

لقد وصف بعض الأساتذة الغربيين حركة الصحافة العربية فى نهاية القرن التاسع عشر بأنها حركة اعلامية قوية ذات طابع سياسى عربى واسلامى وأن الأفكار التى كان يرددها أولئك الصحفيون عن الحرية والاخاء والمساواة لم تكن الا صدى لمبادىء الثورة الفرنسية ولآراء « روسـو » و « مونتسـكيو » و « فولتير » و « هوجو » و « ماتزينى »[١٠٢] هـذا الرأى شبيه برأى الأستاذ « برنارد لويس » فى أفكار الأدباء العثمانيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وعلى رأسهم « نامق كمال » — فقد كان هذا الصحفى الأديب من دعاة الوحدة الاسلامية والتجديد • ومع اعجابه بالحضاره الأوروبية لم يكن يؤيد تقليدها بل كان يرى أن أفضل ما حققته الحضارة الغربية مقتبس من الحضارة الاسلامية أو له ما يضاهيه فى حضارة الاسلام • وكان « نامق كمال » لا يرى فى القانون الطبيعى الذى تحدث عنه

---

(١٠٠) المنار مجلد ١٧ ص ٧١٧ — ٧١٨ ، ٢٣ أغسطس ١٩١٤ •

(١٠١) A. Goldschmidt, The Egyptian Nationalist Party, in Political and Social Change in Modern Egypt, Edited by P. M. Holt O. U. P. London 1968 p. 310.

(١٠٢) F. Gabrieli, The Arab Revival, London 1961, pp. 46 - 47.

« مونتسكيو » شيئا يختلف فى محتواه عن الأحكام العادلة الرشيدة للشريعة الاسلامية ويرى فى فكرة « سيادة الشعب » نظيرها فى الشريعة الاسلامية أى « البيعة »[١٠٣] ، غير أن الأستاذ «برنارد لويس» يعتبر نظرية « نامق كمال » السياسية مستمدة — بصفة أساسية — من « روسو » و « مونتسكيو »[١٠٤] .

ان فكرة « العقد الاجتماعى » و « سيادة الأمة » و « الحقوق السياسية » التى تمثل محور نظريات روسو[١٠٥] تشبه الى حد ما فكرة البيعة عند فقهاء المسلمين ، غير أن « العقد » الذى تحدث عنه روسو كان مجرد افتراض[١٠٦] وأن القضايا التى أثارها هو وغيره من الكتاب الغربيين فى مجال الفكر السياسى لا تخرج عن اطار الأفكار والنظريات التى تدور حول ما سماه ابن خلدون « السياسة العقلية » وذلك فى عرضه الرائع لآراء الفقهاء حول ماهية « الخلافة » و « الامامة » و « الملك » اذ يقول :

« لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضرورى للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذين هما من آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه فى الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى أحوال دنياهم لحمله اياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من أغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف فتعسر طاعته لذلك »[١٠٧] الى أن يقول :

« فوجب أن يرجع فى ذلك الى قوانين سياسية مفروضة يسلمها

---

(١٠٣) B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey O. U. P. Paperbacks, 1968, pp. 142 - 143 - 173.

(١٠٤) Jean Jacques Rousseau - The Social Contract and Discourses, London : J. M. Dent and Sons Ltd. 1952. Translated by G. D. H. Cole, pp. 11, 15, 20 - 27.

(١٠٥) محمد ضياء الدين الريس ، النظريات السياسية الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٠ ، الطبعة الثالثة ص ١٦٧

(١٠٦) ابن خلدون : المقدمة ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٠٠ م ص ١٩٠

(١٠٧) المصدر نفسه والصفحة

الكافة وينقادون الى أحكامهـا .... فاذا كانت هـذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها[١٠٨] كانت سياسة عقلية واذا كانت مفروضة من الله بشـارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فانها كلها عبث وباطل اذ غايتها الموت والفناء ... فالمقصود بهم انما هو دينهم المفضى بهم الى السعادة فى آخرتهم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع » .

ثم يستطرد ابن خلدون الى بيان خصائص كل من أحكام السياسة والأحكام الشرعية وبيان معنى الخلافة ومعنى الملك فيقول :

« وأحكام السياسة انما تطلع على مصالح الدنيا فقط « **يعلمون ظاهراً من الحيـاة الدنيا** » [١٠٩] ، ومقصود الشارع بالناس صـلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم من الخلفاء .

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وأن الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار ، والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظـر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة ، خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به »[١١٠] انتهى .

---

(١٠٨) وقياسا على ذلك يمكن أن نضيف الى هؤلاء ، ممثلى الأمة فى المجالس النيابية والتشريعية المنبثقة من النظم الدستورية فى الدول العلمانية الحديثة « المؤلف » .

(١٠٩) الروم : ٧

(١١٠) المصدر نفسه ص ١٩٠ ، ١٩١

ان « البيعة » و « الخلافة » تجربة عرفها المسلمون ومارسوها فى واقع حياتهم السياسية ، تجربة مستخلصة من عقيدتهم ومن فهمهم لتلك العقيدة ، مارسوها يوم بايعوا أبا بكر الصديق رضى الله عنه فى فجر الدعوة الاسلامية فقبل البيعة على عهد وموثق ونهض الصديق خطيبا يبين طبيعة هذا العقد ويحدد مسئولياته ، قائلا :

« أما بعد ، أيها الناس .. فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه ان شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله » الى أن قال « أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لى عليكم »(١١١) .

ان أبا بكر رضى الله عنه لم يستمد السلطة من جمهور المسلمين فحسب وانما أخذ على نفسه عهداً بالنهج الذى اختطه لنفسه وأشهدهم عليه مذكرا اياهم بحقهم فى الرقابة عليه تأييدا اذا أحسن وتقويما اذا أخطأ(١١٢) . انها مسئولية تتفق وطبيعة السيادة فى المجتمع الاسلامى وهى سيادة فريدة فى نوعها ، تقترن فيها سيادة الأمة بسيادة القانون أو شريعة الاسلام اقترانا لا انفصام له(١١٣) .

ولعل هذا ما دفع « نامق كمال » — وهو يتحدث فى اطار الفكر السياسى الاسلامى — الى القول بأن الواجب الأول للدولة تحقيق العدالة ، والعدالة لا تعنى اسعاد رعاياها فحسب بل تعنى أيضا مراعاة حقوقهم السياسية وتأمينها بوضع النظم الملائمة لهذا الغرض(١١٤) ولكن الأستاذ « برنارد لويس » يزعم أن « الحرية » بمعناها

---

(١١١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م ج ٤ ص ٣١١

(١١٢) راجع محمد ضياء الدين الريس ، مصدر سلف ذكره ص ٣٤٠.

(١١٣) B. Lewis, Islam in History, London, 1973, p. 275

(١١٤) Lewis, op. cit. p. 267.

الاسلامى فكرة قانونية ليس لها مدلول سياسى ويقول ان كلمة « حر » و « حرية » فى اللغة العربية تشير الى مركز الانسان الحر فى مقابل العبد فهى اذن — فى رأيه — كلمة تخلو من أى معنى سياسى أو اجتماعى[115] واستنادا الى ذلك يقرر الأستاذ « لويس » أن آراء « نامق كمال » حول الحرية السياسية فى الاسلام لا تمثل تطورا طبيعيا للأفكار الاسلامية التقليدية — كما يصورها « كمال » وانما هى — فى زعم لويس — أفكار مستوردة من أوروبا ومن ترجمة النصوص الأوروبية وبفعل هذا التأثير الأوروبى يتحول مفهوم «العدالة» الى حرية وتصبح الشورى مرادفة للنظم النيابية[116] !! ولا يخفى ما ينطوى عليه مثل هذا التعليق من سخرية واستخفاف بأصالة الفكر الاسلامى وهى سخرية لا تخطئها العين فى تضاعيف ما يكتبه المستشرقون عن الاسلام ولكن الأستاذ « برنارد لويس » فى هذا المقام جاوز كل ما عرف عنه من تثبت وقدرة على التحليل والتمحيص ، فآثر أن يبحث عن أكبر تجربة فى ممارسة الحرية السياسية عرفها التاريخ الاسلامى ، بين معاجم اللغة وثنايا الكلمات ومدلول الألفاظ !! وبدلا عن استخلاص المعانى من واقع الأحداث التى أثبتها التاريخ أخذ يستنطق المعاجم اللغوية ليثبت أن ما حدث فعلا لا يتفق مع ما ورد فى المعاجم لفظا !! ولعل مبعث هذه الهنة عند الأستاذ « برنارد لويس » أنه أخطأ المدخل الى فهم الحرية السياسية فى الاسلام فأخذ يبحث عنها تحت لفظ « حر » و «حرية» ولم يفطن الى أن الحرية فى الاسلام انما تنبثق عن التوحيد الذى يحرر المرء من كل معبود سوى الله سبحانه وتعالى[117] .

ان الكتاب الغربيين والمستشرقين منهم بوجه خاص يجدون صعوبة كبيرة فى تقبل الأصالة التى اتسم بها التراث الاسلامى ويصفون من

---

(١١٥) Lewis, op. cit. p. 275.

(١١٦) B. Lewis. The Emergence of Modern Turkey, p. 142

(١١٧) راجع محاضرة د. حسن عبد الله الترابى عن الدولة الاسلامية المعاصرة مجلة « الأمة » عدد ١٧ — السنة الثانية ، جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ص ١٠ الدوحة ، قطر .

يوجه أنظارهم الى تلك الأصالة بأنهم يلتمسون المعاذير للاسلام عن طريق الدفاع الرومانتيكى[١١٨] .

وما يثير الدهشة حقا أن كثيرا من هؤلاء العلماء الغربيين لا يرون غضاضة فيما يكتبه بعضهم عن الاسلام وتاريخه وما يصدرونه من أحكام تتسم بالنظرة الذاتية[١١٩] ولكنهم يجدون كثيرا من المآخذ عندما يتصدى أحـد للرد عليهم ، انهم لا يجدون فى أفكار الأفغانى ومحمد عبده ونامق كمال ومحمد رشيد رضا الا صدى لأفكار الكتاب الفرنسيين الذين مهدوا للثورة الفرنسية ، وحتى مكانة الأفغانى ومحمد عبده تصبح موضع شك كبير عند بعضهم « لم يكن الأفغانى فى حياته محط أنظار المفكرين ورجال السياسة بقدر ما كان موضع مراقبة أقلام المخابرات ورجال الأمن الذين كانت مهمتهم تتبع نشاط المخربين ومثيرى الفتن»[١٢٠] . هكذا يزعم الأستاذ « ايلى خدورى » .

ويعيد الأستاذ « خدورى » فى كتابه حديثا نشرته — على حـد قوله — صحيفة التايمز بلندن عندما أخرج الأفغانى من مصر عام ١٨٧٩.

---

(١١٨) لقد سوغ برنارد لويس لنفسه أن يصف المسلمين الذين هاجروا الى المدينة مسالمين ، وكفار قريش يلاحقونهم بالادى والعدوان ، وصفهم بأنهم قطاع طرق (كذا) ووصف قريشا يوم حرجت «بحدها وجدها وحديدها» لحرب المسلمين فى « أحد » وصفها بأنها فعلت ذلك دفعا للخطر المتصاعد من قبل هؤلاء الدين اتخذوا من النهب موردا للرزق (يعنى المسلمين) .

انظـر B. Lewis , The Arabs in History, Hutchinson University Library, London, 1950, pp. 44 - 45.

وانظر خبر غزوة أحد فى : السيرة النبويه لابن هشام ، مصـدر سلف ذكره ج ٣ ص ٦٤ وما بعدها .

(١١٩) Elie Kedouri, Afghani and Abduh, London, 1966, p. 4.

(١٢٠) من الروايات التى اتخذها خدورى مثلا لتأييد طعنه فى عقيدة الأفغانى الروايه التى زعم أنها نقلت عن محمد المخزومى السورى الذى نسب اليه أنه قال : انه سمع الافغانى فى استانبول يقول ان الاسلام والمسيحية واليهودية متفقة فى الأهداف والمبدأ :

خدورى المصدر نفسه ص ١٥ — ١٦ . — راجع حقيقة ما قاله الأفغانى فى هـذا الصدد فى كتاب محمـود أبو رية ، جمـال الدين الأفغانى ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ ص ٦٣ — ٦٧ .

وصـــفته فيه — أى الأفغانى — بأنه رجل يدعى « جماد » الدين — هكذا وردت — وهو أفغانى ينحدر من سلالة مشكوك فى أمرها وأنه بعد ذلك بسبع سنوات أى بعد عام ١٨٧٩ لم يكن يعرف لدى كرومر ، المعتمد البريطانى فى مصر الا بأنه محرر لصحيفة هدامة تصدر فى باريس اسمها العروة الوثقى وقد منعتها السلطات البريطانية من دخول مصر والهند » . والفكرة التى يريد الأستاذ « خدورى » أن يثبتها فى كتابه ، أن الأفغانى كان رجلا مشكوكا فى عقيدته(١٢١) يبطن غير ما يقول وأنه كان مجهولا فى عصره وينتمى الى طائفة المخربين ومثيرى الفتن وأنه كان على الأرجح عميلا لروسيا بل يرى الأستاذ « خدورى » أن شهرة الأفغانى لا تنبع من عظمة فى شخصه وانما هى نتيجة لمـــا روجه عنه أتباعه ومريدوه فيما بعد(١٢٢) .

ولكن الشيخ محمد عبده يوضح لنا فى مقدمته لكتاب « رســـالة فى ابطال مذهب الدهريين » كيف حرفت أقوال الأفغانى وكيف عانى من كيد القنصل البريطانى حتى أخرجه من مصر ، اذ يقول : « عظم أمر الرجل — أى الأفغانى — فى نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الأخذ عنه وأعجبوا بدينه وأدبه وانطلقت الألسن بالثناء عليه ، ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأى هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم أيدهم أخلاط من الناس على مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون ثم يحرفون فى النقـــل منه ولا يشعرون غير أن هـــذا كله لم يؤثر فى مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ولم يزل شأنه فى ارتفاع والقلوب عليه فى اجتماع الى أن تولى خديوية مصر حضرة خديويها الحالى توفيق باشا وكان السيد من المؤيدين لمقاصده الناشرين لمحامده الا أن بعض المندسين ومنهم « مستر فيفان » قنصل انكلترا الجنرال سعى فيه لدى الجانب الخديوى ونقل المفسدون عنه ما الله يعلم أنه برىء منه حتى غير قلب

---

(١٢١) Kedourie, op. cit., pp. 4 - 5.

(١٢٢) الأفغانى : رســـالة فى ابطال مذهب الدهريين ، بيروت ١٣٠٣ هـ المقدمة .

الخديو عليه فأصدر أمره باخراجه من القطر المصرى هو وتابعه أبو تراب ففارق مصر الى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ هـ وأقام بحيدر آباد الدكن وفيها كتب هـــذه الرسالة فى نفى مذهب الدهريين »[١٢٣] .

ان حملة التشهير التى قادتها صحيفة التايمز البريطانية ضـــد الأفغانى فى سنة ١٨٧٩ واستند اليها « خدورى » فى كتابه سنة ١٩٦٦ ينبغى أن ينظر اليها فى ضوء الظروف السياسية التى أملتها وهى ظروف كانت الحكومة البريطانية تحارب الأفغانى وتطارده فيها ، لا لأنه كان من مثيرى الفتن ولكن لأنها كانت تخشى نفوذه فى العالم العربى والاسلامى ولأنها كانت تعلم آثر دعوته فى الغاء امتياز شركة التبغ البريطانية فى ايران عام (١٨٩١ / ٩٢) والخطاب الذى أرســله الى رئيس المجتهدين فى ذلك القطر حتى أصـــدر فتوى بتحـــريم شرب الدخان وبيعه[١٢٤] وقد وصفت الأستاذة « N. Keddie » الحركه الشـــعبية التى أدت الى الغـــاء امتيـــاز الشركة المذكورة بأنها أول حركة شعبية ناجحة فى تاريخ ايران[١٢٥] . كذلك كانت الحكومة البريطانية تخشى نفوذ صحيفة « العروة الوثقى » وما تمثله من خطر على مصالحها فى الهند والشرق وآمالها فى تركة الرجل المريض . واذا صح ـــ كما يزعم خدورى ـــ أن الأفغانى لم يكن معروفا فى عصره وهو زعم يعوزه الدليل ، فان محاربة صحيفة « العروة الوثقى » والحظر الذى ضرب عليها ومعاقبة من تثبت عليه تهمة حيازتها[١٢٦] كل ذلك يشير الى أن الحكومة البريطانية لم ترد له أن يعرف .

أما الأستاذ « هولت » فيرى أن التاريخ الحقيقى للقومية العربية بمعناها الحديث يبدأ بما كتبه الكواكبى ونجيب عازورى[١٢٧] ونشاطهما

---

(١٢٣) انظر محمود أبو رية ، المصدر نفسه ص ٣٠ ـــ ٣١

(١٢٤) Niki Keddie, Relegion and Rebellion in Iran, The Tobacco Protest of 1891 / 92, Frank Cass and Co. Ltd. London, 1966, pp. 18 - 19.

(١٢٥) Encyclopaedia of Islam, New Ed. Leiden, London, 1965 Vol. 2 p. 418, (Djamal Al Din Al Afghani)

(١٢٦) P. M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent Longmans, 1966, p. 257.

(١٢٧) أنطونيوس ، المصدر نفسه ص ١٧٣

ومما يثير الدهشـــة أن يضع الأستاذ « هولت » آراء الكواكبى ونجيب عازورى على قدم المســاواة من حيث الأهمية ، لأن هــذا الحكم اذا صدق من بعض الوجوه على الكواكبى فانه لا يصدق على نجيب عازورى بل يضفى على آراء هــذا الكاتب أهمية لا تتفق وحقيقة ما كان يدعو اليه ، لأن دعوة عازورى كما وصفها أنطونيوس «أثارت شيئا من الاهتمام فى أوروبا فى ذلك الوقت (١٩٠٤ — ١٩٠٧) ولكن أثرها فى الحركة العربية نفسها كان ضئيلا ، وبغض النظر عن قيمة حركة عازورى فــان ظهورها فى عاصمة أجنبية وبلغة أجنبية كان أمرا فى ذاته يدعو الى شلها والحد منها »(١٢٨) .

أسس عازورى فى سنة ١٩٠٤ الجمعية التى سماها « جامعة الوطن العربى » وأعلن أن هدفها تحرير الشــام والعراق من السيطرة التركية وأصدرت الجمعية عدة نداءات عنيفة تدعو الى الثورة ، كما أصدر فى سنة ١٩٠٥ كتابا باللغة الفرنسية سماه « يقظة الأمة العربية » ومجلة شهرية فى سنة ١٩٠٧ باسم « الاستقلال العربى » .

كان عازورى يدعو الى تأسيس امبراطورية عربية تشمل الجزيرة العربية والهلال الخصيب وتستثنى مصر بوجه خاص لأن المصريين فى رأيه — لا ينتمون الى العرب واقترح أن يختار رئيس هذه الامبراطورية من أفراد الأسرة الخديوية على أن يمارس سلطته السياسية فى حدود الجزيرة العربية وحدها وتكون له سلطة روحية على جميع المسلمين .

ومن الجلى أن نظرة عازورى الى العروبة ينقصها كثير من التحقيق والدقة لأنه لا يرى فى العروبة غير وحدة العنصر العربى وقد انتهت هــذه الوحدة — اذا صح أنها قد وجدت من قبل — منذ القرن السابع الميلادى عندما خرج العرب من جاهليتهم ومن جزيرتهم يحملون مشعل الاسلام فانضوت تحت لوائهم شــعوب لم تربطها بالعرب صلة قرابة أو رحم ولكنها تعربت باتخاذها لغــة القرآن وبانتمائها الى مجتمع الاســلام .

* * *

(١٢٨) P. M. Holt op . cit. p. 258.

الفصل الثاني

عرب عثمانيون

● عرب وأتراك فى ظل الاسلام — بل عرب عثمانيون — اسطورة الاستعمار التركى — تربص الدول الغربية بالخلافة العثمانيه — السلطان عبد الحميد المفترى عليه — الغوائل المحيطة بالدولة العثمانية — عبد الحميد والخلافة العربيه — عبد الحميد والوحدة الاسلامية — الخلافة العثمانية ملاذ الأقطار العربيه والاسلامية — ضعف مركز الخلافة — الدعوة الى الاصلاح — العرب لا يفكرون فى الانفصال — دعاة الاصلاح — الأفغانى — محمد عبده — رشيد رضا — الكواكبى والاستبداد — رشيد رضا وأسعد داغر يؤكدان الوحدة العربية العثمانية — سوء العلاقات العربية التركية فى عهد تركيا الفتاة — بوادر الانفصال — ظهور الجمعيات الاصلاحية والسياسية — المؤتمر العربى الأول — الدعوة الطورانية — كتاب « قوم جديد » — التهجم على الاسلام — جمال باشا السفاح — وضوح الاتجاه العربى نحو الاستقلال — جمعية الاتحاد والترقى تكشر عن نابها — طبيعة الجمعية ودور اليهود فيها — وزراء صهيونيون — الجمعية وبرنارد لويس — الجمعية تفتح الهجرة اليهودية الى فلسطين — مصر العثمانية — الاحتلال البريطانى — دنشواى — مصطفى كامل — الخلافة العثمانية عضد مصر — نذر الحرب — تشديد قبضة الاحتلال — نحو الخديعة .

* * *

عـــرب عثمانيون

لم تكن كلمة « عرب » معروفة فى القرن التاسع عشر بالمعنى الذى نعرفه اليوم ولم تكن تطلق ــ بوجه عام ــ الا على بدو الصحراء أو السـكان الذين يقيمون خارج المدن فى الشرق الأوسط(١) ومن ثم لم تكن هناك قضية عربية فى السياسة الدولية آنذاك وبالمثل كانت كلمة « أتراك » لا تتردد على الألسن الا نادرا ويقصد بها البدو من التركمان أو الفلاحين فى قرى الأناضول • وحتى كلمة « عثمانيين » لم تكن تحمل معنى قوميا وانما كانت فى مدلولها شبيهة بكلمة عباسيين أو أمويين أو سلاجقة • أما الأتراك فكان تعريفهم لأنفسهم أنهم مسـلمون ، ولاؤهم للاسلام ولبيت « آل عثمان » (٢) وكذلك من نسميهم اليـوم « العرب » لم يكونوا يصفون أنفسهم بأنهم عرب ازاء الأتراك ، واذا كان لابد من أن نطلق عليهم هـذه الصفة فهم « عرب عثمانيون » لأن البلاد العربية انضوت تحت لواء الدولة العثمانية منذ مطلع القرن السادس عشر عندما سقطت سـوريا فى يد السلطان سليم فى موقعة « مرج دابق » (٢٤ أغسطس ١٥١٦) وتبعتها مصر فى ٢٣ يناير ١٥١٧، وألقيت الخطب فى اليوم التالى فى مساجد القاهرة باسـم السلطان العثمانى(٣) ومن هناك امتد سلطان العثمانيين الى بقية أجزاء العالم العربى ، الحجاز واليمن والعراق(٤) •

---

(١) Z. N. Zein, The Emergence of Arab Nationalism, Beirut, Khayats, 1966 p. 38.

راجع التطور التاريخى لكلمة عرب فى الجاهلية والاسلام ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣٨ ــ ٤٢

(٢) B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press Paper Backs, 2nd Ed. 1968, pp. 1—2.

(٣) P.M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, Longmans, London, 1966 pp. 38 - 40.

(٤) انظر تفاصيل الفتح العثمانى فى الشرق العربى فى كتاب محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ ــ ١٩١٤) مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ص ١٠٨ ــ ١٣٩ (غير مؤرخ) •

لم يكن ثمة نزاع بين العثمانيين وسكان الأقاليم العربية لأن العثمانيين انما أخذوا السلطة من المماليك فى الشرق العربى • ولم يكن العثمانيون فى نظر العرب غزاة فاتحين بل كانوا اخوة لهم فى العقيدة ، وحماة لدار الاسلام • كانت حروب الدولة العثمانية فى نظر المسلمين — عربا أم أتراكا — جهادا فى سبيل الله وكان العرب لا يرون الدولة العثمانية دولة أجنبية وانما كان اعتقادهم أنها دولتهم فهى دولة الاسلام(٥) وعاصمتها « اسلامبول »(٦) وكان هذا هو الشعور السائد الى نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين لم يكن العرب يلقون بالا الى أن الدولة العثمانية تركية بقدر ما كان يهمهم أنها اسلامية • ويفند الأستاذ زين نور الدين زين الزعم القائل بأن العرب ظلوا عاجزين تحت رحمة الأتراك أربعة قرون كما ينفى ما يردده بعض المؤرخين بأن الأتراك استنزفوا خيرات البلاد العربية وثروتها أو أن العرب لم يكن يسمح لهم بحمل السلاح أو الخدمة فى الجيش العثمانى بل يرى زين أن العرب كانوا شركاء فى الدولة دون تمييز ، شركاء فى الحقوق والواجبات (٧) وأن حكم العثمانيين كان حماية للعالم العربى والاسلامى ضد التدخل الأجنبى مدى أربعة قرون ، تمتعت خلالها الولايات العربية بقدر وافر من الحكم الذاتى عدا السنوات الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد وفترة حكم الأتراك الاتحاديين دعاة الجامعة الطورانية •

ومع ذلك كانت الدولة العثمانية مثقلة بمشاكلها الداخلية والخارجية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهى مشاكل سياسية واقتصادية وعسكرية تمثلت فى ضعف المركز المالى للدولة ورهن مواردها للدائنين الأوروبيين وثورات شعوب البلقان وتسلط الدول الأوروبية الكبرى الذى أدى الى سقوط تونس فى قبضة الحماية الفرنسية (١٨٨١) واحتلال مصر بمدافع الأسطول البريطانى (١٨٨٢) كذلك كانت مسألة الاصلاح الدستورى من أهم المسائل التى شغلت الأذهان ويعتبر اعلان

---

(٥) توفيق على برو ، العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى القاهرة ١٩٦٠ ص ٤

(٦) أى مدينة الاسلام •

(٧) Zein, op. cit. pp. 10 - 16.

دستور أحمد مدحت باشا في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦[٨] بداية لعهد الاصلاح المنشود ، أو هكذا يقول بعض الذين أرخوا لهذه الفترة ، كما يقولون ان الأقاليم العربية العثمانية كانت تتطلع الى المشاركة في هذا الأصلاح والى التمتع بقدر أكبر من الحرية في ادارة شئونها الداخلية ، ولكن السلطان عبد الحميد كان له رأى في طبيعة هذا الاصلاح ودوافعه ، بل يذهب بعض المؤرخين الأوروبيين الى القول بأن عبد الحميد قبل اعلان دستور مدحت باشا لتجنب التدخل الأوروبي في شئون دولته[٩] • ومهما تكن دوافع اصدار الدستور فانه ألغى في ١٤ فبراير عام ١٨٧٨ وحل البرلمان الذى كان يضم ١٣٠ نائبا [١٠] ، منهم ١٨ نائبا يمثلون الأقاليم العربية ولم يدع الى الانعقاد الا بعد ثلاثين عاما (١٩٠٨) • وخلال هذه الفترة التى عرفت عند الكتاب والمؤرخين الغربيين « بالاستبداد الحميدى » حكم السلطان عبد الحميد بيد حازمة ، في ظروف كانت الأخطار تحيط فيها بالدولة العثمانية من كل جانب •

ويحدثنا السلطان عبد الحميد في مذكراته عن الغوائل التى أحاطت بالدولة في ذلك الوقت والمكائد التى كانت الدول الأوروبية الكبرى تدبرها ضده ، طمعا في الأسلاب التى تنتظرهم بعد انهيار دولة الخلافة الاسلامية ، كما يحدثنا عن بعض المسئولين في حكومته بل رؤساء وزرائه ممن كانت تقف خلفهم دول أجنبية تغذيهم بالمال الحرام لتحقيق مآربها:

« كنت أعلم أن السر عسكر عونى باشا قد أخذ من الانجليز أموالا • ان رجلا من رجال الدولة يأخذ مالا من دولة أخرى لابد وأن يكون قد قدم لها خدمات • يعنى هذا أيضا أن خلع المرحوم عمى السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد العرش بدله ، لم يكن حقدا فقط من حسين عونى باشا ولكنه مرضاة لرغبة دولة أخرى أيضا »[١١] •

---

(٨) Robert Devereux, The First Ottoman Constitutional Period, Baltimore, 1963, p. 15.

(٩) Devereux, op. cit. p. 21.

(١٠) Devereux, op. cit. p. 261.

(١١) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة محمد حرب عبد الحميد ، دار الأنصار القاهرة ١٩٧٨ ص ٣٩

ويستطرد السلطان عبد الحميد قائلا :

« مدحت باشا أيضا مثل حسين عونى باشا اتبع سياسة مؤيدة للانجليز وكان دائما يفصح عن ثقته فى الانجليز »[١٢] .

« لم يهزنى شىء فى حياتى هزا ضخما قدر شخص يرتفع الى مقام قيادة الجيش أو الى مقام الصدارة العظمى — رئاسة مجلس الوزراء — ويقبل نقودا من دولة أجنبية »[١٣] .

« كانت الغوائل تحيط بالدولة فى ذلك الوقت . كنا فى حالة حرب مع الصرب والجبل الأسود ، والروس على وشك اعلان الحرب ، والدول الأجنبية التى اجتمعت فى الترسانة كانوا مؤيدين للروس ، يطلبون اعطاء الأرض للصرب والجبل الأسود والاعتراف باستقلال بلغاريا تحت اسم الاستقلال الذاتى »[١٤] .

« قال مدحت باشا : ان الانجليز والفرنسيين سيقومون معنا مؤيدين لنا . واذا بى فى نفس الوقت أتلقى عن طريق موظف خاص من السفارة الانجليزية رسالة من سالسبورى وزير الخارجية الانجليزية يقول لى بصراحة انه فى حالة قبولنا الحرب ضد روسيا فانهم لن يستطيعوا تقديم عون لنا »[١٥] .

« انجلترا كانت دائبة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية وكان مدحت باشا لم يكتف باثارة ما أثار من مشاكل فهو من ناحية يريد خلق أزمة فى السراى ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد فى أتون الحرب. أعمال كهذه يمكن أن تؤدى — معاذ الله — الى تقويض الدولة من أساسها . كان الملك العثمانى يهتز من أساسه بناء على هذا كله ، كنت أرى أن الصدر الأعظم يؤيد الانجليز ويتعاون معهم سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى خاصة جدا به ولم أعد

---

(١٢) المصدر نفسه ص ٤٠   (١٣) المصدر نفسه ص ٤١

(١٤) نفس المصدر والصفحة .   (١٥) نفس المصدر والصفحة

أحتمل ، فاستندت الى صلاحياتى فى القانون الأساسى وعزلته — أى مدحت باشا — عن الصدارة العظمى وأبعدته خارج الحدود »[١٦] •

ومع أن طلاب الاصلاح من العرب فى العهد الحميدى لم يفكروا فى مسألة الخلافة العربية فان السلطان عبد الحميد كانت تساوره الوساوس خشية أن يتجه قادة العرب الى احياء الخلافة فى بلادهم ، حتى صارت حكومته تمنع نشر أى كتاب من كتب الكلام أو العقائد أو الحديث أو التفسير يرد فيه ذكر الخلافة[١٧] وأخذ فى الوقت ذاته يدعو الى فكرة الجامعة الاسلامية لتقوية مركزه [١٨] ازاء تدخل الدول الأوروبية لاحباط أية مساعى لاحياء خلافة عربية وتودد الى قادة العرب بالكرم والهدايا النفسية[١٩] ويرى بعض الباحثين أنه لم يكن هناك ما يبرر مخاوف السلطان عبد الحميد من العرب رغم ظهور منشورات عدائية فى عام ١٨٨٠ فى بيروت لأن ما حملته تلك المنشورات لا يمثل رأى الكثرة الساحقة من العرب الذين ظلوا على ولائهم واخلاصهم للدولة العثمانية حتى بعد زوال عهد السلطان عبد الحميد •

ولكن لابد أن نذكر هنا أن خشية السلطان عبد الحميد من فكرة احياء الخلافة فى الأقطار العربية كان لها ما يؤيدها لا سيما اذا كان مصدر الفكرة السلطات الانجليزية الحاكمة فى لندن أو فى القاهرة • وكأنه — رحمه الله — كان يدرك بالحدس ، الخديعة الكبرى الكامنة خلف فكرة تتبناها بريطانيا لاحياء الخلافة العربية ، وهو عين ما تحقق عندما تجرع العرب خيبة الأمل بعد الوعود الكاذبة التى قطعت فيما بعد لشريف مكة الحسين بن على ، على لسان ماكماهون وكان حصادها

---

(١٦) المصدر نفسه ص ٤٣ — ٤٤ .

(١٧) المنار ، المسألة العربية جـ ١ مجلد ٢٠ ، ٣٠ يوليو ١٩١٧ ص ٤٢ :

(١٨) لم تكن دعوة السلطان عبد الحميد لفكرة الجامعة الاسلامية نفاقا كما تزعم بعض المصادر وانما كانت دعوة صادقة منبثقة عن ايمانه وبحثه الجاد عن صيغة لتوحيد كل المسلمين لمواجهة الخطر الأجنبى الذى كانت تمثله كل من روسيا وانجلترا (راجع : محمد حرب عبد الحميد فى مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٩) •

(١٩) Zein, op. cit. p. 5.

ذهاب الخلافة العثمانية وخذلان القضـــية العربية حتى فى صورتها العلمانية !!

أما مصر التى شغلت بالتدخل «البريطانى ـ الفرنسى» فانت نتيجة فى محنتها نحو السلطان العثمانى لانقاذها من التسلط الاستعمارى الأوروبى •

غير أن الدولة العثمانية واجهت ـ فى الربع الأخير من القرن التاسع ـ ثورة مسلحة على أحد ولاة السلطان العثمانى ، استقلت بالجزء الجنوبى من وادى النيل وهى الثورة المهدية فى السودان[٢٠] (١٨٨١ ـ ١٨٩٨) وقد كانت ثورة لها طابعها الاسلامى الخاص الذى يميزها عن الحركات القومية التى عرفت فى القرن التاسع عشر ولعلنا نلمس جانبا من طبيعتها فى نص الرسالة التى وجهها الخليفة عبد الله التعايشى (خليفة المهدى) الى السلطان عبد الحميد وجاء فيها :

« ومع كونك تدعى أنك ســلطان الاسلام القائم بتأييد ســنة خير الآنام فمالك معرضا عن اجابة داعى الله الى الآن ومقرا رعيتك على محاربة حزب الله المؤمنين مع أهل الكفر والعدوان »[٢١] •

وقد يقال ان ظهور منشورات بيروت (١٨٨٠) وبوادر العداء التى ظهرت فى لبنان فى نهاية القرن التاسع عشر ضد الدولة العثمانية كانت بداية لحركة قومية تهدف الى الاستقلال عن السيادة العثمانية ولكن المؤرخين يؤكدون أن أثر المنشورات البيروتية كان ضعيفا على الجماهير وأن الحركة الانفصالية فى لبنان كانت بواعثها طائفية ولا يمكن اعتبارها حركة قومية عربية ضد حكم الأتراك[٢٢] ومع ذلك فان هــذه الحركة التى قام بها بعض الشبان فى لبنان منذ عام ١٨٧٦ انتهت بالفشل الكامل بين عامى ١٨٨٢ و ١٨٨٣[٢٣] •

---

(٢٠) لم يكن السودان تابعا تبعية مباشرة للدولة العثمانية ولكنه كان جزءا من ولاية محمد على بمقتضى تسويات عامى ١٨٤٠ ـ ١٨٤١

(٢١) مكى شبيكة ، تاريخ شعوب وادى النيل بيروت ١٩٦٥ ص ٧١٢

(٢٢) Zein, op. cit. pp. 41 - 42 - 46 - 47.

(٢٣) P. M. Holt, op. cit. p. 256.

فحديث بعض الكتاب العرب المعاصرين عن سيطرة الأتراك على العالم العربى باسم الوحدة الاسـلامية ووحدة الخلافة واعتبار ذلك نفاقا ، والحديث عن احتقار الأتراك للجنس العربى(*) (٢٤) ، هـذا الحديث تدحضه حقائق التاريخ بل هو نوع من الافتراض الذى يعوزه الدليل أو نوع من التأثر بحملة جائرة على الدولة العثمانية تزعمتها أقلام بعض الكتاب والمؤرخين الغربيين ومن اقتفى سيرتهم لدوافع سياسية أو مذهبية . وفى رأى الأستاذ هولت أن القصة التى تصف حكم الأتراك فى العالم العربى بأنه كان عهد شـقاء واضطهاد للعرب المغلوبين على أمرهم لا تعدو أن تكون أسطورة ربما كان العامل الأكبر فى ظهورها حكم جمال باشا فى سوريا خلال الحرب العالمية الأولى(٢٥) .

لا شك أن العلاقة قد ساءت بين العرب وجمعية الاتحاد والترقى خلال الفترة ١٩٠٩ — ١٩١٦ ولكن لا يجوز أن يتخذ ذلك دليلا على سوء العلاقات «العربية — التركية» مدى أربعة قرون ، أولا لأن فترة حكم جمعية الاتحاد والترقى (١٩٠٩ — ١٩١٨) تعتبر قصيرة للغاية بالقياس الى عمر الدولة العثمانية ، وثانيا لأن عهد هذه الجمعية كان نشازا فى تاريخ العلاقات بين العرب والأتراك . كذلك لا يجوز أن تتخذ معاملة عثمان رفقى وأضرابه من الشراكسة للجنود المصريين قبيل الثـورة العرابية دليلا على غطرسة دولة الخلافة العثمانية واحتقارها للعرب .

ان هـذا لا يعنى أن الأقاليم العربية كانت راضية عن أسلوب الحكم العثمانى فى العهد الحميدى لأنها كانت تحس بما ينطوى عايه

(*) لم تخل العلاقات العربية التركية فى مطلع القرن العشرين وربما قبل ذلك بقليل من بعض مظاهر الاحتقار للعرب من قبل بعض العنصريين الاتراك ، وقد تكون للفكرة الطورانية أثر فى ذلك ولكن ما يشير اليه أغلب الكتاب فى هذا الصدد انما كان فى المقام الأول ناجما عن تصرفات جمعية الاتحاد والترقى .

انظر : محمد عزه دروزة ، نشأة الحركة العربية الحديثة صيدا — بيروت ، منشورات المطبعة العصرية الحديثة ، ١٩٧١ ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦ — ٣٠١ .

(٢٤) محمد مندور ، مؤتمر الأدباء العرب ، القاهرة ديسمبر ١٩٥٧ المجلة عدد رقم ١٣ ، يناير ١٩٥٨ ص ١٧ — ١٨ .

(٢٥) P. M. Holt, op. cit. p. 256.

هـذا الحكم من مواطن الضعف ولكن سبيلها الى معالجة الضعف لم تكن الثورة أو الانفصال بل الدعوة الى الاصلاح والى المساواة فى الحقوق بين العرب والأتراك • ان الكثرة الغالبة من سكان العالم العربى لم تكن تفكر فى الاستقلال • أما قادة العمل السياسى وأكثرهم من تلاميذ الأفغانى فكانوا يدعون الى تقوية الدولة العثمانية عن طريق الاصلاح الادارى واللامركزية وتصحيح العقائد والاعتصام بالرابطة الاسلامية والاسترشاد بتعاليم الاسلام النقية من الشوائب ومن أشهر هؤلاء المصلحين الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥) وعبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٩ — ١٩٢٠) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ — ١٩٣٥) •

ويجدر بنا هنا أن نقف قليلا لنتبين طبيعة ما كان يدعو اليه هؤلاء المصلحون وما يدعو اليه أستاذهم جمال الدين الأفغانى •

ويحدثنا الشيخ محمد عبده عن أستاذه الأفغانى قائلا :

« أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى وهو ان لم يكن فى عقيدته مقلدا لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل الى مذهب السادة الصوفية رضى الله عنهم وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه • أما مقصده السياسى الذى وجه اليه أفكاره وأخذ على نفسه السعى اليه مدة حياته وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله فهو انهاض دولة اسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها فيعود للاسلام شأنه وللدين الحنيفى مجده ويدخل فى هـذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية وله فى عداوة الانجليز شئون يطول بيانها • أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى الا بنوع من الاشارة اليها • كل موضوع يلقى اليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه »[٢٦] •

كان الأفغانى الرائد الأول لحركة تحرير الوطن الاسلامى من

---

(٢٦) مقدمة محمد عبده : رسالة فى ابطال مذهب الدهريين بيروت ١٣٠٣ هـ ص ٩

الاحتلال الأجنبى ومؤسس الحركة الاسلامية المناوئة للاستعمار الغربى وهو الداعى الى فكرة الجامعة الاسلامية التى تهدف الى توحيد العالم الاسلامى واصلاح أوضاعه السياسية والاجتماعية وبث الوعى بين أبنائه وارشادهم الى حقائق دينهم وذلك استعدادا لتحرير دار الاسلام من الغزو الأجنبى[٢٧] وهو غزو حربى سياسى فكرى فى آن واحد ومن ثم كانت حملته على الحكام المسلمين فى عصره الذين وقفوا فى وجه الاصلاح أو تعاونوا مع سلطات الاحتلال الأجنبى .

وكان مبعث المحن التى واجهها فى مصر والآستانة وايران والهند دعوته الى التحرر السياسى الشامل والاصلاح الجذرى والنهضة الفكرية للشعوب الاسلامية ولم تكن الحرب التى شنتها ضده صحف الاستعمار الغربى فى ذلك الوقت سوى رد فعل لهذا النشاط الفياض الذى قام به الأفغانى فى عصر اتسم بالركود والاستسلام لسلطان الغرب . واذا كانت المنية قد عاجلته قبل أن يرى ثمرة غرسه فقد حمل الدعوة تلامذته من بعده وكان من أبرز هؤلاء الشيخ محمد عبده .

ان الاصلاح فى رأى الشيخ محمد عبده يقتضى تحرير العقل من قيود التقليد وتفهم المسلمين لحقائق دينهم ولطبيعة الحضارة المادية على السواء وكانت مجلة العروة الوثقى[٢٨] أقوى منبر لبث الآراء الاصلاحية التى كان يبشر بها الأفغانى ومحمد عبده فى العالم العربى والاسلامى . ولقد وجه الشيخ محمد عبده باعتباره محررا للعروة الوثقى نداء الى العلماء لاحياء الرابطة الاسلامية وتدارك الخلاف حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ودعا العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض للارتباط بعضهم ببعض والأخذ بأيدى العامة « الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان

---

(٢٧) راجع : محمود أبو رية ، جمال الدين الافغانى ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ و .

Encyclopaedia of Islam, New Ed. Vol. 2, pp. 416 - 418.

(٢٨) أصدرها الافغانى فى باريس فى ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ هـ / ١٣ ، ١٨٨٤ وصدر منها ثمانية عشر عددا فقط .

والقيـام بحاجات الأمـة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها »[٢٩] .

واصلاح الأمة فى رأى محمد عبده « انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته وارشاد العـامة بمواعظه الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق واتقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة »[٣٠] .

أما الأستاذ عبد الرحمن الكواكبى فهو من دعاة الوحدة الاسلامية والنهضة العربية ولكنه لا يرى فى سلاطين آل عثمان القدوة الحسنة للمسلمين لأنهم — فى رأيه — وضعوا مصلحتهم فوق مصلحة الاسلام . اتسمت مقالات الكواكبى « أم القـرى » و « طبـائع الاسـتبداد » بالدعوة الى اصلاح العالم الاســلامى والنهضة العربية عن طريق العلم وبث الوعى بين الجماهير ومحاربة جمود الفقهاء ويبدو أن الكواكبى قد تأثر وهو يكتب عن طبائع الاستبداد بالصرامة التى مارس بها السلطان عبد الحميد سلطاته . وهو يعرف الاستبداد بأنه التصرف فى الشئون المشتركة بمقتضى الهوى ويذكر شيئا عن أسبابه وأعراضه ثم يتحدث عن الحرية السياسية فى الاسلام قائلا « ثم جاء الاسلام بالحكمة والعزم هادما للتشريك بالكلية ومحكما لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديمقراطية والارستقراطية فأسس التوحيد وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين التى لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر وهـذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم اماتة الاستبداد واحياء العدل والتساوى حتى فى القصص منه »[٣١] .

ويدل كتاب الكواكبى عن الاستبداد على سعة اطلاعه واحاطته بما كتبه الغربيون فى مجال العلوم السياسية والاقتصادية وهو لا يقبل

---

(٢٩) العروة الوثقى : دار البستانى ، القاهرة ١٩٥٧ ص ١
(٣٠) العروة الوثقى : العدد الثالث ، باريس ٢٧ مارس ١٨٨٤ ص ٣
(٣١) عبد الرحمن الكواكبى : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، مطبعـة الدستور العثمـانى بشـارع محمد على بمصر ص ٢١ — ٢٢ (لم يذكر تاريخ النشر) .

كل ما كتبه الغربيون عن الاستبداد ولكنه يناقش آراءهم ويفند بعضها استنادا الى ثقافته الاسـلامية •

وفى كتابه « أم القرى » عرض الكواكبى آراءه فى الاصلاح وفى نقد سياسة الدولة العثمانية وسلاطينها فى صورة حوار أجراه المؤلف على ألسنة عدد من الشخصيات التقت فى مؤتمر تخيله الكواكبى وجعل مقره مكة المكرمة وسمى ذلك المؤتمر « جمعية أم القرى » • ويبدو من هـذا الحوار تأثر الكواكبى بما قرأ من مؤلفات ومصادر غربية واقتباسه منها ولعل هـذا ما دفع بعض المؤرخين والكتاب المحدثين الغربيين الى تصـوير آراء الكواكبى بانهـا صـدى لأفكـار الكاتب الايطـالى « Alfieri Vittorio » وولفرد بلنت المؤرخ البريطانى[٣٢] •

ويشير برنارد لويس الى الكتاب الذى وضعه الفيرى عن الاستبداد (Della Tirannide) وترجمه الى اللغة التركية عبـد الله جودت ونشر فى جنيف لأول مرة سنة ١٨٩٨ وأعيدت طباعته فى القـاهرة سنة ١٩١٩ ، قائلا : ان هـذا الكتـاب كان — فيما يبدو — أساس أفكار الكواكبى التى ظهرت فى كتابه « طبائع الاستبداد »[٣٣] غير أن هـذه الآراء عن الكواكبى يجب أن تؤخذ بحذر كبير لاسيما عندما تصدر من كاتب يجاوز حدود النقد الموضوعى ليطعن فى أخلاق الكواكبى ووطنيته بغير دليل كالأستاذ خدورى الذى يرد « طبائع الاستبداد » الى الفيرى وينسب « أم القرى » الى « بلنت » ثم لا يقف عند هـذا الحد وانما يثير غبارا حول وطنية الكواكبى للايحاء بأنه كان عميلا للخديو عباس الثانى وعميلا لايطاليا لأن الكواكبى — كما زعم خدورى — زار الصومال

---

(٣٢) P.M. Holt, op. cit. p. 257.
وانظر أيضا Sylvia Haim , Arab Nationalism, An Anthology University of California Press, Berkeley, Los Angeles, 1962, pp. 25 — 27 .

(٣٣) B. Lewis, Islam in History, Alcove Press Ltd. London 1973 p. 279.

بالأتفاق مع ايطاليا[٣٤]. ويقول خدورى انه استقى معلوماته عن هـذه الزيارة من رسـالة وجهها السيد رشيد رضا الى جورج أنطونيوس فى ١٠ يناير سنة ١٩٣٥ وأن هذه الرسالة موجودة فى أوراق أنطونيوس المحفوظة فى دار الوثائق الاسرائيلية[٣٥] .

حقا كان الكواكبى يرى أن للعرب دورا خاصا فى حركة البعث الاسلامى[٣٦] وفى ذلك يقول « فهذه هى الأسباب التى جعلت جمعية أم القرى تعتبر العرب هم الوسـيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينيـة بل الكلمة الشرقية »[٣٧] .

ويلاحظ أن الكواكبى يتحدث عن جزيرة العرب وأهلها بالنظر الى ما يسميه « السياسة الدينية » ولكن خدورى يزعم أن دعوة الكواكبى الى خلافة عربية ربما كانت دعاية سياسية لعباس حلمى الثانى وطموحه للاستئثار بحكم البلاد العربية[٣٨] وأن الكواكبى لهذا السبب كان عميلا للخديوى ، غير أن السيد رشيد رضا أبان لنا حقيقة موقف الخديو عباس حلمى بقوله « الا أن المفسدين كانوا يتهمون خديوى مصر عباس حلمى باشا بذلك فكان يسمع لهم لأن مصر بلاد عربية غنية بالمـال والرجال وقد تصدى رأس حكومتها الأخيرة « محمد على باشا » لحرب الدولة العثمانية فقهرها واستولى على سـورية والحجاز وتوغل فى الأناضول ولولا الانكليزيه لاستولى على سـائر ممتلكاتها ، ولكن عباس حلمى لم يكن ليطمع بمثل ما طمع به جده الأعلى ولا بمثل ما كان يطمع به جده الأدنى « اسماعيل باشا » من الاستقلال السياسى بمصر والسودان فقط لمكان الاحتلال الانكليزى الذى جعـل السلطة الفعلية فى مصر بيد انكلتره دونه ولهذا كان الموسوسون والجواسيس يزعمون أنه على اتفاق

(٣٤) Elie Kedouri, Egypt and the Caliphate 1915 - 52, in the Chatham House Version and other Middle Eastern Studies, London, 1970 p. 195 .

(٣٥) Kedouri, op. cit. p. 424 (53)

(٣٦) عبد الرحمن الكواكبى — أم القرى : حلب ١٩٥٩ ص٢١٧ — ٢١٨

(٣٧) المصدر نفسه ص ٢٢٢

(٣٨) Kedouri, op. cit. p. 195.

مع الانكليز فى هذا الأمر وكان كثير من المصريين وغيرهم يصدق ذلك ومنهم من لم يرجع عن هذا التصديق الا بعد نشر كتاب « عباس حلمى الثانى » للورد كرومر اذ صرح فيه بأن حياة عباس مع الاحتلال كانت حياة خلاف وشقاق » [٣٩] •

وقد رأينا أن الكواكبى تحدث فى « طبائع الاستبداد » عن الحرية السياسية فى الاســـلام وعن حكومة الخلفاء الراشدين وعما جاء فى القرآن من آمر بالعدل واجتناب للظلم ، فاذا أضفنا الى ذلك ان البيعة والشورى من المبادىء الأساسية فى الفقه الدستورى وأن الامامة فى رأى فقهاء المسلمين « عقد حقيقى » مبنى على الرضا[٤٠] ، فاننا ندرك أن الكواكبى كان فى غنى عن الاستعانة بالكاتب الأيطالى لرفض الاستبداد بوجـــه خاص •

أما آراء السيد محمد رشيد رضا الحسينى فقد عبر عنها فى مجلته « المنار » وهو من المؤمنين بصلاحية الاســـلام نظاما للحياة ولكنه يرى أن الاســـلام فى حاجة الى بعث جديد ولعله من الطريف أن نستمع الى رأى الشيخ رضا فى الاصلاح الذى بدأ باسم التنظيمات فى الدولة العثمانية منذ عهد السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الى عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ — ١٩٠٩) لأن السيد رشيد رضا كان من أعلام الفكر العربى الاســـلامى فى عصره وأحد قادة الحركة العربية الذين أخلصوا للدولة العثمانية ومحضوها النصح ثم ثاروا عليها بعد اليأس منها • انه أحد مؤسسى جمعية الشورى العثمانية — وهى أول جمعية سياسية تألفت فى نهاية القرن التاسع عشر فى الآستانة — وأحـــد الأعضـــاء المؤسسين لحـــزب اللامركزية الادارية العثمانى فى مصر عام ١٩١٢ • وفكرة التنظيمات التى تبنتها الدول الأوروبية فى القرن التاسع عشر تهدف الى تنظيم الجيش ونظم الادارة والحكم فى الدولة العثمانية على أسس غربية والخروج عن التنظيم الاســـلامى للدولة

---

(٣٩) المنار ج ١ م ٢٠ ، ٣٠ يوليو ١٩١٧ ص ٣٧

(٤٠) محمـــد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية الطبعة الثالثة مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٠ ص ١٦٥ — ١٦٦ •

والمجتمع وتوجيه المجتمع نحو التشكيل العلمانى ومركزية السلطة فى القسطنطينية والولايات (٤١) .

ان اصلاح التنظيمات فى رأى رشـــيد رضا كان اصلاحا شكليا عنى بالمظهر دون الجوهر ، فعد السلطان محمود مصلحا بتغيير الزى الرسمى ونظام الجندية والسلطان عبد الحميد مصلحا بانشـــاء نظارة العدلية ومصطفى رشيد باشا مصلحا بادخال الدولة فى ســــلك الدول الأوروبية ومدحت باشا وأعوانه مصلحين باقتباس القوانين الغربيـــة ومحمد على باشا وأحفاده مصلحين بفرنجة البلاد المصرية ولم تتوجه همة واحـــد الى اصلاح الأخلاق والعادات وجمع الكلمة التى فرقتها المذاهب واللغات « فما زاد الأمة ذلك الاصلاح الصورى الا ضروباً من الفساد وأن ما تم لم يكن علاجا لهذه الأمة وان كان أكثره ضروريا ، فالأمة بعد هـــذه المعالجات لم تزدد الا مرضا وذلا وفقرا وضعفا وفسادا واسرافا فى النفاق وكان ما أدخل فيها من علوم الأمم القوية وقوانينها وآدابها كالجسم الغريب الذى يدخل البنية فيفسد مزاجها لأنه لم يكن على حسب استعدادها وحاجتها بل تقليدا صوريا أو عارضا وقتياً» (٤٢) .

ومن الطريف حقا أن يكون نقد السيد رشيد رضا للاصلاح الذى تم فى عهد التنظيمات شبيها بنقد نامق كمال (١٨٤٠ — ١٨٨٨) وأترابه . فالتنظيمات فى رأى نامق كمال كانت عملا شكليا لارضاء الغرب ومظهرا ليست وراءه ثمرة حقيقية وهو يأخذ على ساسة عهد التنظيمات أنهم أغفلوا القوانين الاسلامية ونقلوا الى تركيا صورة ممسوخة من قوانين الغرب لا هى غربية ولا هى اسلامية وليس لها أثر وتركت للسلطان سلطاته المطلقة دون قيد ويستطرد نامق كمال قائلا ان التنظيمات تحدثت عن صيانة الأرواح والممتلكات والحرية الشخصية ولكنها لم تذكر حرية الرأى وسيادة الشعب وحكم الشورى ولو أنها فعلت ذلك لاتخذت صورة ميثاق أساسى من أجل خلافة اسلامية ويقول أتراب نامق كمال

---

(٤١) محمد أنيس : مرجع سابق ص ٢١٣

(٤٢) المنار جـ ١ م ١٧ ، ديسمبر ٢٨ سنة ١٩١٣ ص ٣ — ٤

أن التنظيمات أخذت من الشعب الحقــوق التى كفلتها له الشريعـة الاسلامية ولم تعطه شيئا من الحقوق التى تكفلها نظم الحكم الأوروبية وأن ساسة التنظيمات فتحوا البــلاد للتدخل الأجنبى وأضــافوا الى الاستبداد الداخلى الاستغلال الخارجى(٤٣) .

لم تكن الدعوة الى الاصلاح فى العهد الحميدى قاصرة على رجال السياسة وحملة الأقلام فى الأقاليم العربية وانما كانت جهادا مشتركا بين هؤلاء وبين دعاة الاصلاح من الأتراك أنفســهم وفى هــذا يقول السيد رشيد رضا : « ولكن أهل الرأى وحملة الأقلام من العرب لم يقصروا فى التعاون مع أمثالهم من الترك على السعى لاصــلاح حال الدولة والقضاء على الاستبداد الحميدى فلما أسس شبان الترك جمعية الاتحاد والترقى ونشروها فى الولايات دخل فيها كثيرون من شبان العرب وكانت شعبها فى ســورية أعظم منها فى غيرها وأسس بعض العرب جمعية أخرى كجمعية الاتحاد بعد ضعف شأن هــذه فى مصر وســورية وهى جمعية الشــورى العثمانية وأدخلوا فى لجنتها المركزية أشــهر رجال الاتحاديين الذين كانوا فى مصر وغيرهم من العثمانيين فكان هم طلاب الاصلاح من العرب فى عهد عبد الحميد هو هم طلاب الاصــلاح من الترك(٤٤) .

وحتى المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس فى شهر يونيو عام ١٩١٣ فى عهد الأتراك الاتحاديين لم يطلب الاستقلال عن الدولة العثمانية وانما حصر مطالبه فى الاصلاح الادارى وذلك على الرغم من أن الشبان الذين تولوا أمر عقد هــذا المؤتمر كانوا من المتأثرين بالتفكير « العلمانى » وهم عونى عبد الهادى وندرة مطران وعبد الغنى العريسى وشكرى غانم وجميل معلوف ومحمد محمصانى وشارل دباس وجميل مردم(٤٥) . وقد وصف السيد رشيد رضا هذا المؤتمر بأنه أول مؤتمــر

---

(٤٣) B. Lewic, The Emergence of Modern Turkey, O.U.P. 1968 , pp. 170 - 172 .

(٤٤) المنار : المسألة العربية جـ ١ م ٢٠ ، ٣٠ يوليو ١٩١٧ ص ٤٠ .

(٤٥) مقدمة الشيخ رشيد رضا لكتاب المؤتمر العربى الأول ، مطبعة البسفور القاهرة ١٩١٣ وأيضا : Zein, op. cit. p. 186.

عربى عرف كثيرا من الأمم المغربية بالتاريخ الجـديد الذى دخل فيه العرب العثمانيون[٤٦] •

عقـد المؤتمر جلسـاته بين يومى ١٣ و ١٨ رجب سنة ١٣٣١ هـ (١٨ — ٢٣ يونيو ١٩١٣) فى قاعة الجمعية الجغرافية فى باريس وكان رئيس المؤتمر السيد عبد الحميد الزهراوى (مندوب حماة) • وقد وصفت رسـالة المؤتمر بأنها تمثل « تطلعات طبقة المتنورين لطرح رداء الخمول والأخذ بأسباب الحيـاة للافادة من القوى والخصائص التى خص الله بهـا رافعى معالم العمران من سـكان جزيرة العرب من عمومتهم فى العراق وما بين النهرين ووادى الأردن وسـهول الشام وجبالها وسواحلها ونجودها »[٤٧] وفى الحديث عن الأهداف وصف المؤتمر بأنه « وسيلة لحفظ كيان الأمة العربية وازالة العقبات عن طريق ارتقائها حتى يتسنى لها التهجز بأدوات الحضارة والانتفاع بتجاريب العلم فتقوى بذلك ويقوى مجموع الدول العثمانية بقوتها »[٤٨] ومن أهدافه أيضا « اصلاح أمور بلادنا على قاعدة اللامركزية • ومن المسائل التى طرحت للبحث الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال وحقوق العرب فى المملكة العثمانية وضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية والمهاجرة من سوريا واليها » •

وفى حديث لرئيس المؤتمر السيد الزهراوى مع محرر صحيفة الطان الفرنسية قال انه يتحدث بلسان العرب العثمانيين باعتبارهم أهم عنصر فى الدولة ويؤكد السيد الزهراوى أن المؤتمر ليست له صفة دينية وأنهم لا يريدون الانفصـال عن تركيا بل على العكس يطالبون بتحسـين حالة الدولة والعنصر العـربى معا لحفظ صرح الدولة من السـقوط [٤٩] وردا على سؤال آخر أجاب السـيد الزهراوى أنهم لا يتمسكون بالوحدة السياسية من أجل الرابطة الدينية بل رغبة منهم

---

(٤٦) رشيد رضا المصدر نفسه •
(٤٧) كتاب المؤتمر العربى الأول ص ٣ •
(٤٨) المصدر نفسه ص ٥
(٤٩) المصدر نفسه ١٩

« فى ايجاد مجموع عثمانى قوى يرتقى فيه مجموعنا العربى »[٥٠]
وعندما سئل عما اذا كان هـذا الرأى يوافق رأى الشعب ، أجاب بأنه يترجم عن رأى « الفئة المتنورة » وبما أن هـذه الفئة المتنورة استطاعت أن ترى هـذا الرأى من غير أن يكون ذلك ما يمس مبادئها الدينيـة فلا أرى هناك مانعا يمنع الشعب من التوصل الى فهم هذه الحقيقة » .

اننا نلمح فى حديث السيد الزهراوى اتجاها علمانيا مشـوبا بكثير من الحذر .

لقد اتخذ المؤتمر العربى فى باريس عددا من القرارات ، منهـا المطالبـة باصلاحات جذرية وعاجلة فى الدولة العثمانية وبالحقـوق السياسية للعرب بصورة تمكنهم من المشاركة فى ادارة الدولة وادخال نظام لا مركزى ملائم فى كل ولاية عربية والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فى البلاد العربية .

على أن المؤتمر العربى الأول لم يكن بداية العمل العربى المنظم للمطالبة بالاصلاح واللامركزية فقد سبقه عـدد من الجمعيات التى ظهرت فى القسطنطينية وبعض أجزاء العالم العربى خـلال الفترة (١٩٠٨ — ١٩١٣) منها جمعية الاخاء العربى العثمانى والمنتدى الأدبى (١٩٠٩) والعلم الأخضر والجمعية القحطانية (١٩٠٩) وجمعية بيروت الاصلاحية والنادى الوطنى العلمى فى بغداد وجمعية البصرةالاصلاحية والجمعية العربية الفتاة (١٩١١) وحزب اللامركزية الادارية العثمانى فى مصر (١٩١٢) ومن بعد ، جمعية العهد التى أسسها عـزيز على المصرى فى عام ١٩١٤ وكانت عضويتها للعسكريين وحدهم ومن بين الجمعيات سالفة الذكر تعتبر الجمعية العربية الفتاة وحزب اللامركزية الادارية العثمانى أهمها على الاطلاق [٥١] .

تأسست جمعية « الفتاة » عام ١٩٠٩ فى باريس وكانت تحمل اسم جمعية الناطقين بالضاد ثم غير اسمها الى الجمعية العربية الفتاة .

---

(٥٠) المصدر نفسه ص ٢٠ .

(٥١) Zein op. cit. pp. 93 - 96 .

كان المؤسسون لها الطلبة العرب ومنهم الأستاذ توفيق الناطور الذى أدلى بحديث الى الأستاذ زين نور الدين قائـلا ان كل هدف هـذه الجمعية كان الحصول على المساواة التامة فى الحقوق والواجبات بين العرب والأتراك فى نطاق الامبراطورية التى يرومونها أن تتكون من قوميتين تركية وعربية(٥٢) •

أما حزب اللامركزية الادارية العثمانى فكان أكثر الأحزاب العربية تنظيما والصوت المعبر بحق — كما يقول الأستاذ زين نور الدين عن الأمانى العربية • وخير من يحدثنا عن هـذا الحزب وأهدافه الأستاذ رشيد رضا لأنه من أقطابه البارزين وأحد أعضائه المؤسسين • يقول السيد رشيد رضا : ان هذا الحزب تألف فى مصر فى عـام ١٩١٢ بعلم الحكومة العثمانية لمطالبة الدولة العثمانية بتغيير شكل ادارتها فى المملكة كلها وان كان جميع مؤسسيه من العرب السوريين وجدير بالذكر أن حزب اللامركزية هو الذى نظم المؤتمر العربى الأول وأسند أمر المؤتمر الى السيد عبد الحميد الزهراوى واسكندر بك عمون(٥٣) • وأن ما دفع بعض أهل الغيرة « على تأسيس حزب اللامركزية صوت سمعوه من باريس تذكر فيه فرنسـا حقها فى سـورية ، فهرع هؤلاء الغيورون الى رؤوف باشا المعتمد — القومسير — العثمانى فى مصر وكاشفوه بخوفهم على سـورية أن تغير عليها فرنسـا كما أغارت ايطاليا على طرابلس (ليبيا) وألفوا من أنفسهم لجنة للسعى الى الدفاع عن سوريـة وطلبوا منه أن يكتب الى الباب العالى بذلك يطلبون منه المساعدة على الاستعداد للدفاع الوطنى عن البـلاد ولكن المعتمد لم يجبهم الى طلبهم »(٥٤) ويستطرد السيد رشيد رضا قائلا : ان حزب اللامركزية عثمانى محض ليس فى برنامجه ولا فى بياناته كلمة واحدة تدعو الى الجنسية العربية أو تنفر من الجنسية التركية وانما هو يدعو جميع العثمانيين الى مطالبة

---

(٥٢) Zein op. cit. p. 94.

(٥٣) المنار مجلد ١٧ ج ٣ ، ٣٠ ربيع الأول ١٣٣٢ هـ / ٢٥ يناير ١٩١٤ ص ٢٣٤ — ٢٣٥

(٥٤) المنار ج ٥ م ١٧ — ٢٥ أبريل ١٩١٤ ص ٣٩٥ — ٣٩٦

الحكومة بالادارة اللامركزية بالطرق المشروعة القانونية • نعم ان فكرته قد انتشرت فى العرب لأن المؤسسين له من العرب ولم يقدروا على نشر دعوتهم فى غير الشعب العربى[٥٥] • وقد تقدم الحزب بمشروع الى جمعية الاتحاد والترقى يشتمل على ضروب الاصلاح التى ينشدها الحزب كانشاء مدارس حكومية لتدريس اللغة العربية فى دمشق وبيروت واتخاذ العربية لغة رسمية فى الولايات العربية وغير ذلك

ان اتفاق ظهور هـذه الجمعيات الاصلاحية والأحزاب السياسية والعسكرية مع فترة حكم الأتراك الاتحاديين له دلالته العميقة وهى أن معالم القضية العربية أخذت تتضح فى صورة العمل الجماعى المنظم ولكنها لم تأخذ بعـد طابـع الحركـة الاستقلاليـة أو الانفصالية حتى عام ١٩١٦ وينفى السيد رشيد رضا عن العرب تهمة العمل للانفصال عن تركيا فى ذلك الوقت فى شىء من التفصيل ويوضح الأسباب التى دعت العرب الى المحافظة على وحدة الدولة العثمانية وهى أسباب تختلف كل الاختلاف عن الأسباب التى كانت تتذرع بها بريطانيا للمحافظة على تماسك الدولة العثمانية وحمايتها • وفى ذلك يقول السيد رشـيد رضا : « كان الترك يتهمون العرب بالميل الى الاستقلال دونهم والسعى لذلك وأنه لا يمنعهم منه الا ضعفهم وعجزهم أمام قوة الترك وقد ذكرت فى مقالات « العرب والترك » التى كتبتها فى الآستانة ونشرتها فى جرائدها ثم فى المنار أننى لا أعرف لهـذه التهمة أصلا الا ما كان من افتراء جواسيس السلطان عبد الحميد وطلاب المنافع عنده أو استغلال أوهامه بل أقول ان هذه التهمة لم تكن معقولة فى عهد السلطان عبـد الحميـد لأن النهوض بأمر الاستقلال اما أن يكون من جانب الأمة بما تتوسل بـه اليه من الجمعيات السياسية والعصابات المسلحة ولم تتصد الأمة العربية لذلك ألبتة واما أن يكون من جانب الأمراء المستقلين بالادارة فى بعض الأقطار أو من دونهم من الزعماء أصحاب العصبية ولم نعلم أن أحدا

---

(٥٥) المنار ج ١ م ١٧ ص ٥٣٧

من أمراء جزيرة العرب أو من الزعماء فى الولايات العربية العثمانية كان مظنة أو موضعا لهذه التهمة »(٥٦) .

« وأما كبراء العرب فى ولايات سورية والعراق من العلماء والوجهاء فقد كانوا أشد تعصبا للترك من الترك أنفسهم(٥٧) . تلك حال كبراء البلاد وخاصتها والعامة تبع لهم لم يسمع لأحد منهم نبأة ظاهرة ولا دعوة خفية الى عداوة الترك أو القيام عليهم أو الاستعداد لتأسيس حكومة عربية تستقل فى البلاد اللهم الا ما كان قد قيل من أن شيعة الماسون كانت تسعى لجعل الأمير عبد القادر خديوياً لسورية »(٥٨) .

ويمضى السيد رشيد رضا متحدثا عن أسباب عدم تصدى العرب لانشاء دولة مستقلة لهم فى ذلك الوقت : « تبين مما شرحناه من الحقائق أن عدم تصدى العرب لانشاء دولة جديدة لم يكن سببه الخوف من قوة الدولة (العثمانية) كما كان يتوهم الترك ، فان العرب أقوى من اليونان والبلغار وغيرهما من الشعوب التى انفصلت عن السلطنة العثمانية وصارت دولا مستقلة ولم يكن سببه تفرق العرب وتعذر أتفاق أمرائهم وزعمائهم كما يتوهم الكثيرون منهم وانما كان السبب الصحيح لسكون العرب وسكوتهم عن طلب استقلالهم وتجديد دولة لهم هو الاسلام وأوروبة . دين الاسلام وسياسة دول أوروبة سببان مستقلان أو سبب واحد مركب لكل من جزئيه تأثير خاص فى صرف العرب العثمانيين عن السعى للاستقلال والحق أن الباعث الأخير لاعتراف أكثر المسلمين بخلافة سلاطين الترك هو كونهم أمسوا حصنا لبقية البلاد الاسلامية فى وجه أوروبة » (٥٩) .

ويؤيد الأستاذ أسعد داغر ما ذهب اليه السيد رشيد رضا من

---

(٥٦) المنار ج ١ م ٢ — ١١ شوال ١٣٣٥ هـ / ٣٠ يوليو ١٩١٧ ص ٣٦ — ٣٧

(٥٧) المصدر نفسه ص ٣٨

(٥٨) المنار : المصدر نفسه والصفحة .

(٥٩) المصدر نفسه ص ٤١ — ٤٢

أن قادة الحـــركة العربية لم يفكروا — قبـــل أن يطفح كيل الأتراك الاتحاديين — فى الانسلاخ عن الدولة العثمانية قائلا :

« لم يكن شبان المنتدى الأدبى فى أول الأمر يفكرون فى الانسلاخ عن السلطة العثمانية بل كان غرضهم تقويتها بتقوية العرب الذين يؤلفون أكثرية سكانها والقيام بالاصلاحات اللازمة لرفع شأنها ودرء الأخطار المحدقة بها بالتعاون التام بين العنصر التركى الحاكم والعناصر العثمانية الأخرى ولا ســـيما العرب ، وكان هـــذا الرأى رأى عـــزيز على (عزيز المصرى) وحزب العهد وجمعية العربية الفتاة وسائر الأحزاب والجمعيات السرية • أما حزب اللامركزية والجمعيات الاصلاحية فى بيروت والبصرة فكانت مطالبها تنحصر فى توسيع اختصاصات الولايات على قاعدة اللامركزية ولكن هـــذه الآراء كانت تتبدل على نسبة التبدل الذى رافق السياسة التركية فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى وأستطيع أن أجزم الآن بأنه لم يكن بين العرب يوم اعلان تلك الحرب من فكر فى الانتفاض على الترك أو الاســـاءة اليهم بل كان تفكيرهم كله منصبا على محاولة منعهم من الاشتراك فيها والتعاون معهم على اجتناب ويلاتها ودرء أخطارها » [٦٠] •

غير أن سياسة جمعية الاتحاد والترقى — لاسيما بعد وقوعها تحت تأثير الدعوة الطورانية — ساعدت على تقوية الشعور بالذاتية العربية • والدعوة الطورانية التى اعتنقها قادة الأتراك الاتحاديين تهدف الى احياء العصبية التركية والجمع بين العناصر التركية التترية والشعوب المنتمية اليها كالشعب البلغارى وشعوب القوقاز وبعث النزعة العسكرية فى الأتراك • لم يكن قادة جمعية الاتحاد والترقى متأثرين بهذه الدعوة الطورانية فحسب بل كانوا يؤيدونها ويقـــدمون لها الاعانات المـــالية « وتسمى اعانات الملية التركية » وكان كبار قادة الاتحاديين أعضـــاء

---

(٦٠) اسعد داغر : مذكراتى على هامش القضية العربية ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٩ ص ٧٠ — ٧١

منتمين اليها »[٦١] ومن هذه القاعدة استمدوا سياسة تتريك الشعوب العربية والشعوب العثمانية الأخرى •

ويحدثنا المراسل الخاص لشركة سنترال نيوز فى عام ١٩١٦ عن الحركة الطورانية قائلا « فى خلال بضع السنوات الأخيرة بدت فى بلاد تركيا طلائع حركة جديدة تعرف بنهضة « بنى طوران » أو الطورانية الحديثة وغرضها هدم المدنية الاسلامية واحياء العصبية التركية على أنقاضها والجمع بين العناصر التركية التترية والشعوب المنتمية اليها ومنها الأمة البلغارية • أما القائمون بهذه الحركة فهم قوم مشهورون بعدائهم للاسلام وتعصبهم عليه وكثيرا ما يجاهرون بأقوالهم وكتاباتهم بذلك الكره بحجة أن الاسلام يسعى لقتل العصبية القومية ويحول دون نشوء المدنية التركية ولذلك فهم يسعون لجعل الجنسية التركية مستقلة عن الاسلام كل الاستقلال • ومما يقولونه أيضا ان الاسلام لا محل له فى المدنية ولا يمكن أن يعيش طويلا الا اذا أدخلت عليه تنقيحات عديدة تلائم المذاهب التركية القومية • ولهذه النهضة وجهتان احداهما أدبية والأخرى سياسية • فغاية الوجهة الأولى تمجيد الشعوب الطورانية ونشر تاريخها المجيد ، وغاية الوجهة الثانية القضاء على العصبية العربية • فجنكيزخان هو فى نظرهم نموذج الملوك ورجال السياسية فكل مملكة ينشئونها يجب أن تقوم على المثال الذى رسمه • وأما العرب فى نظرهم فهم مصيبة على الأتراك ولذلك يجب القضاء عليهم أو ادماجهم فى العنصر التركى حتى ينسى العالم تاريخهم وتقاليدهم • أما لغتهم فلابد من محوها واحلال اللغة التركية محلها فى كل صقع وناد »[٦٢]

لم تكن الحركة الطورانية تحمل فى طياتها بذور العداء للعرب فحسب بل كانت جسورة على الطعن فى الاســلام والكيد له كما يشهد بذلك كتاب « قوم جديد » لمؤلفه عبيد الله أفندى الذى عينته جمعيـــة

---

(٦١) المنار مجلد ١٩ ج ٤ ، ٢٨ سبتمبر ١٩١٦ ص ٢٣٥ — ٢٣٦

(٦٢) المصدر نفسه ص ٢٣٥ ، عن الأهرام الصـــادرة بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩١٦

الاتحاد والترقى مدرسا فى جامع أيا صوفيا « وجعلوا حوله الجلاوزة والشرطة (البوليس والضابطة) يحمونه من اعتداء المسلمين عليه »[٦٣] .
وقد قامت مجلة المنار بترجمة أجزاء من كتاب « قوم جديد » وذكرت أن الكتاب يحرف القرآن وجعل الصيام والصلاة والحج والزكاة دين القدماء المسلمين وعبر عنهم بكلمتى « قوم عتيق » وصرح بعدم جواز العمل بكتب فقه الأئمة الأربعة وفى مقابل ذلك بين الكتاب أركان دين « قوم جديد » وهى العقل وكلمة الشهادة والأخلاق الحسنة والجهاد مالا وبدنا والسعى لاعداد لوازم الحرب بالاتحاد تحت راية الخلافة الاسلامية العثمانية . والاشارة فى كتاب « قوم جديد » الى الجهاد تحت راية الخلافة الاسلامية فى عهد الأتراك الاتحاديين تثير العجب لأن جمعية الاتحاد والترقى فضلا عما كان يحيط بها من شبهات فيما يتعلق بصلة قادتها باليهودية العالمية لم يكن يربطها بالخلافة الاسلامية سوى الاحتفاظ بخليفة رمزى لا يملك حولا ولا قوة .

كانت سياسة تتريك الأقاليم العربية واحياء العصبية الطورانية والكيد للاسلام ومساندة الصهيونية لتحقيق أطماعها فى فلسطين عوامل أساسية فى تحويل اتجاه القضية العربية على عهد الأتراك الاتحاديين نحو الاستقلال ، وساعد على ذلك الهزات العنيفة التى أصابت الدولة العثمانية فى ذلك العهد بين عامى (١٩٠٨ و ١٩١٣) والتى بدأت بمحاولة السلطان عبد الحميد استرداد مركزه والقضـــاء على جمعية الاتحاد والترقى ولكن محاولته لم تنجح وانتهت بعزله ونفيه فى ابريل سنة ١٩٠٩ وخلفه الأمير رشاد « محمد الخامس » ولكن السلطة الحقيقية ظلت فى أيدى زعماء الاتحاديين .

وخلال سنوات الحرب (١٩١٤ — ١٩١٨) أثمرت سياسة البطش والارهاب التى اتبعها أحمد جمال باشا حاكم ســوريا وكانت ثمرتها الأولى ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية واتجاه العرب فى

---

(٦٣) المنار مجلد ١٩ ، ٣٠ يونيو ١٩١٦ ص ١٦١ .

الهلال الخصيب الى الاستقلال التام . وكان ذلك أخطر تحول فى المنطقة العربية منذ أن هبت عليها رياح الوعى السياسى فى نهاية القرن التاسع عشر . ودخلت القضية العربية مرحلة جديدة ، لم يعد العرب فيهـا عرب عثمانيين وانما أصبحوا يتطلعون الى استعادة مركزهم القيادى فى العـالم الاسلامى عن طريق تحقيق الاسـتقلال التام والوحدة الشـاملة .

لقد ثار العرب على الأتراك الاتحاديين بعـد أن استنفدوا كل وسائل التعاون فى سبيل الاصلاح مع جمعية الاتحاد والترقى وفى ذلك يقول السـيد رشيد رضا ان طلاب الاصلاح من العرب والترك كانوا « يشتغلون متعاونين والمواصلات بين جمعياتهم لا تنقطع ولا سيما جمعية الاتحاد والترقى فى أوروبة وجمعية الشورى العثمانية بمصر . ظلوا على ذلك الى أن ظفروا باعادة الدسـتور فظن العرب كما ظن غيرهم من الأجناس الذين تتألف منهم المملكة العثمانية ، أنهم فازوا بما جاهدوا فى سبيله الى أن قلب لهم المتغلبون على جمعية الاتحاد والترقى وعلى الدولة ظهر المجن وأوقعوهم فى هوة اليأس من الدولة »(٦٤) .

« وهوة اليأس من الدولة » هى التى دفعت الشريف حسـين ابن على وقادة الحركة العربية فى سـوريا الى الوقوع فى فخ الوعود البريطانية التى بدأت بمراسلات « حسين ـ ماكماهون » ، دون أن يعلموا أنهم مساقون الى أكبر خديعة فى تاريخهم الحديث .

وقبل أن ندخل فى الحديث عن طبيعة هـذه الخديعة وأبعادها يجدر بنا أن نذكر شيئا عن سياسة جمعية الاتحاد والترقى التى دفعت العرب الى الثورة ، وعن مصر التى ظلت منعزلة عن الثورة العربية فى الهلال الخصيب لأنها كانت تخوض معركة أخرى ضد الاحتلال البريطانى الذى ابتليت به منذ عام ١٨٨٢ .

كانت جمعية الاتحاد والترقى صاحبة السلطة الحقيقية فى الدولة

---

(٦٤) المنار مجلد ٢٠ ج ١/٣٠ يوليو ١٩١٧ ص ٤٠ ـ ٤١

العثمانية بين عامى (١٩٠٨ و ١٩١٨) وهى الفترة التى نشطت فيها الجمعيات والأحزاب السياسية العربية داعية الى الاصلاح ولا مركزية الادارة ، وخلال هـذه الفترة اتسم حكم جمعية الاتحاد والترقى بالعنف والقضاء على الحريات ونفى زعماء المعارضة وأدت سياستهم الداخلية والخارجية آخـر الأمر الى تحطيم الدولة العثمانية وهزيمتها فى عام ١٩١٨ مع حليفتها ألمـانيا وتقسيم أقاليمها بين الغزاة المنتصرين .

لقد كانت جمعية الاتحاد والترقى موضع شبهات منذ وقت مبكر اذ اتهمت بأنها جمعية يهودية وأن أعضاءها لم يكونوا أتراكا ولا مسلمين غير أن الأستاذ برنارد لويس[٦٥] ، العالم اليهودى الشهير يعترض على هـذه التهم ويدافع عن جمعية الاتحاد والترقى ولا يخفى اعجابه بها لأنها مهدت الطريق لتركيا الحديثة ، تركيا العلمانية الكمالية[٦٦] . يقول الأستاذ لويس « لا يبدو أن هناك دليلا قط — فى كل ما كتب باللغة التركية عن الشبان الأتراك — أن اليهود لعبوا أى دور له أهمية فى مجالس الاتحاديين قبل الثورة أو بعدها ولا ما يثبت أن دور الماسونية كانت أكثر من أماكن استخدمها الضباط الاتحاديون من وقت الآخر لعقد اجتماعاتهم السرية »[٦٧] وثورة الشبان الأتراك فى رأس لويس — ثورة وطنية قام بها أتراك مسلمون لانقاذ الامبراطورية العثمانية من الأخطار المحدقة بها . ومع ذلك فان الأستاذ لويس لم ينف أن اليهود لعبوا دورا فى مجالس الاتحاديين ولكنه يصف هـذا الدور بأنه ليس بذى أهمية . ويبدو أن الأستاذ لويس لا يقيم وزنا كبيرا للتقارير المعاصرة التى كانت ترد من الآستانة حول طبيعة النفوذ الصهيونى على حركة تركيا الفتاة ومن هذه التقارير ما يرويه فيليب جريفز مراسل صحيفة التايمز البريطانية فى القسطنطينية قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى اذ يقول :

---

(٦٥) الأستاذ برنارد لويس احد المستشرقين اليهود الذين أسهموا بنصيب وافر فى دراسة التاريخ والحضارة الاسلامية . شغل منصب رئيس شعبة التاريخ وكرسى الأستاذية لتاريخ الشرق الأوسط فى جامعة لندن . من مؤلفاته « العرب فى التاريخ » و « ظهور تركيا الحديثة » و « الشرق الأوسط والغرب » و « الاسلام فى التاريخ » .

(٦٦) نسبة الى كمال أتاتورك .

(٦٧) B. Lewis, op. cit. p. 212 .

«ان اليهود نشطوا فى العهد الجديد (عهد تركيا الفتاة) وأصبحوا أداة اتصال هامة بين النظام الجديد (نظام الاتحاديين) وألمـانيا وكان مركزهم الرئيسى فى سالونيكا وهى فى الوقت ذاته مركز نشاط جمعية الاتحاد والترقى » [٦٨] .

ويقول جريفز فى موضع آخر « ان الحكومة البريطانية علمت فى نهاية عام ١٩١٦ أن ألمـانيا كانت تتجه الى كسب تأييد الصهيونيين مقابل عروض معينة تقدمها لهم كما ترددت أقوال مؤداها أن طلعت باشا ، الصدر الأعظم فى تركيا (هو أحد دعائم جمعية الاتحاد والترقى) اتصل بصهيونيين بارزين من الألمـان والمحايدين لنفس الغرض » [٦٩] .

ومن التقارير التى تحدثت عن علاقة جمعيـة الاتحاد والترقى بالصهيونية ما تلقته مجلة المنار فى القاهرة من مراسل خاص شـهد الأحداث التى قضت على آخر محاولة لاعادة الحياة الدستورية الى الدولة العثمانية فى سنة ١٩١٣ نتيجة للانقلاب الذى قاده أنور بك فى مطلع ذلك العام فقد ذكر مراسل المنار فى تقريره أسماء الوزراء الذين تم تعيينهم فى وزارة محمود شوكت الصدر الأعظم وهى الوزارة التى جاءت الى الحكم عن طريق انقلاب أنور بك وضمت ثلاثة من الوزراء وصفهم التقرير على النحو التالى [٧٠] : « بساريا » أو « باتزاريا أفندى » ناظر النافعة (أى وزير الأشغال) وكان رئيس تحرير « جون تورك — تركيا الفتاة » ومراقبا لما يكتب فيها من قبل الجمعية « وجون تورك » جريدة صهيونية . « نسيم مازلياح » ، ناظر التجارة والزراعة ومبعوث أزمير الاسرائيلى سابقا ومفوض الجمعية الصهيونية ، أما الوزير الثالث الذى وصف بأنه صهيونى فهو « جاويد بك » وزير المالية .

وعلقت مجلة المنار على هـذا التقرير بقولها « ومما جاء مصدقا

---

(٦٨) Philip Graves, Briton and Turk, London, 1941. p. 137 .

(٦٩) Philip Graves, Palestine, The Land of Three Faiths, London, 1923 pp. 41 - 42 .

(٧٠) المنار ج ٢ مجلد ١٦ فبراير ١٩١٣ ص ١٥٦ — ١٥٧

لسوء ظننا في الجمعية (الاتحاد والترقى) أنها جعلت في وزارتها الجديدة ثلاثة وزراء من حزب اليهود الصهيونيين وجعلت في أيديهم نظارة النافعة ونظارة الزراعة والتجارة أي ينابيع الثروة في البلاد »[٧١] .

أما اذا نظرنا الى سياسة جمعية الاتحاد والترقى نحو الهجرة اليهودية الى فلسطين في ضوء الوثائق الرسمية فاننا نجدها سياسة موالية للصهيونية ، بينما كانت السياسة التى درج السلاطين العثمانيون على اتباعها منذ عام ١٨٤٠ وحتى عزل السلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٩ على أيدى ضباط الاتحاديين لا تساوم ولا تتردد في حماية فلسطين من الهجرة اليهودية ، مع السماح لليهود بزيارتها لأداء شعائرهم الدينية . ولعله من المفيـــد أن نقـــارن بين ســـياسة الســـلاطين العثمـــانيين وسياسة جمعية الاتحاد والترقى ازاء هجرة اليهـــود الى فلسطين . لقد كان اليهود منذ منتصف القرن التاسع عشر يستعطفون الحكومة البريطانية للضغط على سلاطين آل عثمان واغرائهم للســماح لليهود بالهجرة الى فلسطين والاستقرار فيها وكانت رســالة بالمرستون وزير خارجية بريطانيا في عام ١٨٤٠ الى السفير البريطاني في الآستانة في تلك السنة احدى نتائج هـــذا الاستعطاف ولكنها من ناحية أخرى كانت تمثل عزم الحكومة البريطانية على مقاومة النفوذ الفرنسي في الشرق الأوسط لأنها كانت ترى في تأييد فرنســـا لمحمد على وهويسعى الى الاستيلاء على سوريا ، تهديدا لسلامة الامبراطورية العثمانية وايذانا بتقطيع أوصالها[٧٢] . وقد ورد في رسالة بالمرستون :

« هناك شـــعور قوى بين اليهود المشردين في القارة الأوروبية بأن الوقت الذى تعود فيه أمتهم الى فلسطين قد حان ومن ثم أصبحت رغبتهم أشد من ذى قبل في العودة اليها وصار اهتمامهم أعظم بوسائل تحقيق هـــذه الرغبة ، ومن المعروف جيدا أن يهود أوروبا يملكون ثروة طائلة ومن الجلى أن أى قطر يختاره عدد كبير منهم للاقامة فيه سوف

---

(٧١) المصدر نفسه ص ١٦٠ .

(٧٢) L. Stein, The Balfour Declaration, London 1961 pp. 51 - 52 .

يجنى فائدة عظيمة من الثروات التى يجلبونها معهم الى ذلك القطر وسواء أقبل محمد على الأمر الأول أم الثانى (الذى سيعرض عليه قريبا) فانه من الأهمية الواضحة للسلطان أن يشجع اليهود على العودة الى فلســطين والاقامة فيها لأن الثروة التى سوف تتدفق اليها بمجيئهم ستزيد من موارد الأقاليم التابعة للسلطان • واذا عاد الشعب اليهودى الى فلسطين بدعوة من السلطان وباذنه وتحت حمايته فانهم سيكونون ترياقا مضادا لأية خطط شريرة قد يفكر فيها محمد على أو من يخلفه فى المستقبل »(٧٣) •

تلك هى توجيهات وزير خارجية بريطانيا الى السفير البريطانى فى القسطنطينية مستر بونسونبى عام ١٨٤٠ ، وفى رســالة أخرى طلبت الحكومة البريطانية من الحكومة العثمانية أن تسمح ليهود فلسطين ولليهود الذين يريدون الاقامة فيها أن يتقدموا بظلاماتهم الى السلطان العثمانى عن طريق السفارة البريطانية فى القسطنطينية ولكن الحكومة العثمانية لم تستجب لهــذا الرجاء(٧٤) وفى ١٧ فبراير ١٨٤١ كتب بالمرستون مرة أخرى الى سفير بريطانيا فى القسطنطينية يحثه على الاتصال بالحكومة العثمانية لاقناعها بتغيير موقفها ازاء الهجرة اليهودية الى فلسطين حتى تسمح لليهود بالاقامة ولو لفترة محدودة كعشرين سنة مثلا(٧٥) •

وفى عهد السلطان عبد الحميد أصدرت الحكومة العثمانية أمرا قاطعا يمنع الهجرة اليهودية الى فلسطين ابتداء من عام ١٨٨٤(٧٦)

---

(٧٣) Palmerston to Ponsonby F. O. 78 (No. 134) Foreign 11 Aug. 1840, Hyamson, The British Consulate in Jerusalem, London, 1939, Vol. I pp. 33 - 34 .

(٧٤) F.O. 195 /185 (No . 19) Constantinople, 21 Jan. 1841 Ponsonby to Pulmerston, Hyamson op. cit. pp. 35 - 36.

(٧٥) F.O. 78 (427) No 33 Foreign Office, 17 Feb. 1841 Palmerston to Ponsonby, Hyamson op. cit. pp. 37 - 38.

(٧٦) F.O. 78 (5479) No. (542) Sir N. R. O'conor to Marquess of Salisbury, Constantinople 13 Oct. 1898, Hyamson, op. cit . p. 529 - 531 .

ولكن سمح لليهود الأجانب الذين يقصدون الحج بزيارة فلسطين على ألا تجاوز اقامتهم فيها ثلاثة أشهر • وعندما أخطرت الحكومةالبريطانية رسميا بهذه القيود على اقامة اليهود فى فلسطين ، أعلن السفير البريطانى فى القسطنطينية سير وليام وايت عن رفضه لهذه الاجراءات ووعد حكومته بأنه سيبعث الى الحكومة العثمانية بمذكرة مشتركة يسانده فيها سفير فرنسا وسفير الولايات المتحـــدة الأمريكيـــة فى القسطنطينية يعترضون فيها على القيود التى فرضتها الحكومة العثمانية على الهجرة اليهودية • وفى ٢٨ مايو ١٨٨٨[٧٧] وجه السفير البريطانى الى الحكومة العثمانية رســـالة يطالب فيها بالغاء القيود التى تحدد اقامة اليهود الأجانب فى فلسطين ولكن حكومة السلطان عبد الحميد لم تستجب لهذا الرجاء ولم تكتف بذلك وانما رفضت أيضا تسجيل العقارات فى القدس باسم الاتحاد « الانجليزى ـــ اليهودى » فاضطر السفير البريطانى أن يقترح على حكومته تسجيل العقارات بأسماء أشخاص من الاتحاد من غير اليهود حتى لا تعترض الحكومة العثمانية[٧٨] •

ويبدو أن القنصل البريطانى فى القدس لم يلتزم فى عام ١٨٩٨ بتنفيذ سياسة الدولة العثمانية فيما يتعلق بالهجرة اليهودية فبعثت وزارة الخارجية العثمانية فى ١٩ سبتمبر ١٨٩٨ بمذكرة الى السفارة البريطانية فى القسطنطينية توجه نظرها الى الأمر الصادر عام ١٨٨٤ بمنع الهجرة اليهودية الى فلسطين وتطلب منها أن تصدر توجيهاتها الى القنصل البريطانى فى القدس ليمتنع عن وضع العقبات فى سبيل تنفيذ تلك السياسة [٧٩] وكان هذا القنصل ، جون ديكسون قد تلقى رسالة من الحاكم العثمانى لمدينة القدس يخطره فيها بصدور أوامر صارمة من

---

(٧٧) F.O. 195 /1607 Sir William White to G. Jackson Eldridge and N. T. Moore, Hyamson, op. cit. p. 443.

(٧٨) (No. 395) F. O. 195 /2026 , Hyamson, op. cit. Constantinople to John Dickson 25 Aug., 1898, Hyamson, op. cit. p. 518.

(٧٩) F.O. 78/5479 (N.V. No. 200) S.P.Le 19 Sept . 1898 A. L' Ambassade De S. M. B. , Hyamson op. cit. p. 531.

الحكومة العثمانية تمنع دخول جميع اليهود الأجانب فى فلسطين — بغض النظر عن الجنسية التى يحملونها — ما لم يقدموا ضمانا بمغادرة البلاد خلال ثلاثين يوما(٨٠) فرد القنصل بأنه ليست لديه توجيهات من حكومته فى هذا الصدد وأنه سيتقدم احتجاجا اذا طبق أمر المنع على اليهود من الرعايا البريطانيين (٨١) واحتجت الحكومة البريطانية على هذا المنع على لسان سفيرها فى القسطنطينية واعتبرته خرقا لما سمته بالحقوق التى كفلتها لهم معاهدتهم مع الدولة العثمانية بل ذهب السفير البريطانى أوكونور «N.R. O'Conor» الى أبعد من ذلك فى رسالته الى وزير الخارجية البريطانية سالسبرى حيث قال « ان الحكومة العثمانية أخذت تبدى مزيدا من الجزم فى ممارسة ما تدعيه من حق فى الحد من الهجرة اليهودية الى فلسطين وفى اعتقادى أنه من المرغوب فيه أن نخطر الباب العالى بالحدود التى يستطيع أن يمارس فى نطاقها ذلك الحق المزعوم » (٨٢) وكانت الحكومة البريطانية تأمل ألا يطبق أمر حظر هجرة اليهود الى فلسطين على اليهود البريطانيين ، علما بأن الهجرة اليهودية كانت تتدفق على فلسطين من جهات متعددة لا سيما من روسيا والنمسا وبولندا ولكن أوامر الحكومة العثمانية الأخيرة كانت صريحة فى حظر الهجرة على جميع اليهود الأجانب بغض النظر عن جنسياتهم ، ويبدو أن الحكومة العثمانية أصدرت فى عام ١٩٠٠ تعديلا يقضى بمد فترة الاقامة المسموح بها لليهود فى فلسطين الى ثلاثة أشهر كما كانت من قبل بدلا عن شهر واحد .

لم تكتف الحكومة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد باتخاذ

---

(٨٠) F.O. 195 / 2028 , John Dickson to The British Ambassador Constantinople, Jerusalem 24 Aug . 1898, Hyamson op. cit. p. 518 .

(٨١) F. O. 195 / 2028 (No. 41) John Dickson to M. De Bunzen Jerusalem, 25 Aug . 1898, Hyamson op. cit. pp. 518 — 19 .

(٨٢) F.O. 78 /5479 (No. 542) N. R. O'conor to Marquess Salisbury, Constantinople 13 Oct. 1898, Hyamson op. cit. pp. 529 - 30 .

هـــذه التدابير لحماية فلسطين من الهجرة اليهودية ولكنها أصدرت مزيدا من اللوائح فى عام ١٩٠٠[٨٣] لتشديد الرقابة على الهجرة وتشتمل اللائحة التى تسلمها السفير البريطانى فى القسطنطينية سير أوكونور فى نوفمبر عام ١٩٠٠ على أربع مواد • وبمقتضى هـــذه اللائحة يتعين على جميع اليهود القادمين الى فلسطين أن يسلموا جوازات سفرهم الى السلطات العثمانية التى تمنحهم بطاقات خاصة توضح مهنة كل زائر يهودى وجنسيته والغرض من زيارته كما تمنحهم اذنا مؤقتا بالاقامة والانتقال فى فلسطين لمدة لا تزيد على ثلاثة أشـــهر • ووضع نظام دقيق لمراجعة هـــذه البطاقات لمعرفة من يخالفون الأمر • كذلك نصت اللائحة على ابعاد كل من تجاوز اقامته المدة المقررة اما عن طريق الشرطة أو عن طريق القنصل المختص[٨٤] وحذرت اللائحة الموظفين الذين يقومون بتنفيذ الأمر من مغبة التهاون فى أداء مهمتهم •

ويفهم من هـــذا التحذير أن بعض الموظفين فى الادارة العثمانية قد يضعف أمام أساليب الاغراء التى كان يمارسها اليهود المهاجرون مع بعض الموظفين لدخول فلسطين بطرق غير مشروعة وقد أشار السفير البريطانى فى ملحق تقريره الى وزارة الخارجيـــة البريطانية الى أن اليهود كانوا يدخلون فلسطين عن طريق مينائى حيفا وبيروت لقاء رشوة يقدمونها للموظفين المختصين فى حدود خمسة جنيهات[٨٥] •

وجدير بالملاحظة أن الأمر العثمانى بمنع هجرة اليهود الى فلسطين صدر فى عام ١٨٨٤[٨٦] وشددت الرقابة فى عامى(١٨٩٨و١٩٠٠) وهذه التواريخ تتفق تماما والتحرك اليهـــودى الصهيونى لتنظيم الهجـــرة

---

(٨٣) F. O. 78 / 5479 , Enclosure 1 to No. 440 , Nov. 21 , 1900 Hyamson op. cit. p. 561 .

(٨٤) F. O. 78 / 5479 (No. 34) Sir Nicholas O'conor to Marquess of Lansdowne, Constantinople, 27 Jan. 1901, Hyamson op. cit . pp. 560 — 62 .

(٨٥) F.O. 178 / 5479 (Enclosure 2 to No. 440) Duplicate No. 7 Berut, Jan. 13, 1901, Hyamson op. cit. p. 562

(٨٦) وليس فى عام ١٨٨٨ كما ذكر آلان تيلر فى كتابه تاريخ الحركة الصهيونية تعريب بسام أبو غزالة ، بيروت ١٩٦٦ ص ١٣ •

اليهودية واستعمار فلسطين • ففى عام ١٨٨٢ شرع اليهود فى تأسيس مستعمراتهم فى فلسطين وهناك من يقول ان حركة استعمار فلسطين بدأت منذ عام ١٨٧٨ ولكنها لم تكن حركة منظمة ومن أوائل المستعمرات التى أسست فى ذلك الوقت مستعمرة «Petah Tikvah»ولكن حركة الاستعمار اليهودى المنظم بدأت فى عام ١٨٨٢ بتمويل البارون أدموند روتشيلد وهو أحد أثرياء اليهود الشهيرين فى باريس وبلغ عدد المستعمرات التى مولها البارون أدموند أربعة أضعاف ما أسسه اليهود الآخرون بجهودهم الخاصة[٨٧] وفى عام ١٨٨٢ نفسه نشأت حركة « عشاق صهيون » فى روسيا وكانت تدعو الى احياء اللغة العبرية واستيطان فلسطين وفى سنة ١٨٩٦ نشر كتاب « الدولة اليهودية » لتيودور هرتزل فى فيينا وتلا ذلك انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى « بال » بسويسرا عام ١٨٩٧ • ومؤتمر « بال » هو الذى وضع دستور الصهيونية وحدد أهدافها وهذا ما دفع هرتزل الى القول بأن « الدولة الصهيونية أسست فى « بال »[٨٨] ومن تلك الأهداف خلق وطن للشعب اليهودى فى فلسطين تحت حماية القانون العام »[٨٩] •

ولعل هذا النشاط الصهيونى فى نهاية القرن التاسع عشر يفسر لنا اهتمام السلطان عبد الحميد بمقاومة الهجرة اليهودية الى فلسطين وتشديد الرقابة عليها فى تلك السنوات مع أن السياسة العثمانية كانت واضحة منذ سنة ١٨٤٠ وهى تقوم على حماية فلسطين من الغزو اليهودى •

أما فى عهد جمعية الاتحاد والترقى فقد تغيرت سياسة الدولة العثمانية تغيرا تاما لصالح الصهيونية ووضح هذا التغير بصفة خاصة بعد انتهاء فترة الاضطراب السياسى الذى ساد فترة السنوات الخمس الأولى من حكم الجمعية (١٩٠٨ — ١٩١٣) •

---

(٨٧) Israel Margalith , Le Baron Edmond Rothschild Et La Colonisation Juive En Palestine, Paris, 1957, pp. II, 144-145.

(٨٨) Mrs. Blanche Dugdale, The Balfour Declaration Jerusalem 1940, p. 14.

(٨٩) Theodor Herzl : The Jewish State, 9th Ed. London, 1946 p. 5.

لقد ظل نفوذ الصهيونية ينمو فى دوائر الحكومة العثمانية منذ أن استولى الاتحاديون على السلطة وذلك عن طريق نشاط اليهود الألمان لاحراز مواقع للنفوذ اليهودى فى جمعية الاتحاد والترقى ومن ثم فتح الباب للهجرة اليهودية الى فلسطين[٩٠] وقد جاء فى رسالة للسفير البريطانى فى القسطنطينية سير جيرارد لوثر الى وزير خاجية بريطانيا سير ادوارد جراى مؤرخة ٢٤ ابريل ١٩١١ ، أن جميع البعثات الدبيلوماسية فى القسطنطينية — بايعاز من السفارة الفرنسية — تقدمت الى الحكومة العثمانية بمذكرة حديثة تطلب فيها الغاء القيود القائمة التى تمنع اليهود الأجانب من امتلاك الأراضى فى مقاطعتى سوريا والقدس (أى فلسطين) ويفسر السفير البريطانى مبادرة السفارة الفرنسية فى هذا الموضوع بأنه — فيما يبدو — نتيجة لايعاز من أسرة رونتشيلد اليهودية فى باريس عن طريق الحكومة الفرنسية[٩١] • وردت الحكومة العثمانية على هذه الرسالة بأنها تحتفظ لنفسها بحق التصرف لأن الموضوع من صميم شئونها الداخلية [٩٢] •

كذلك ذكر السفير البريطانى فى رسالته أنه تلقى برقية من وكيل الحكومة البريطانية فى القاهرة تفيد أن القنصل البريطانى فى غزة كان يقوم خلال الأشهر الثلاثة المنصرمة بشراء الأراضى بين العريش ورفح لصالح منظمة استعمارية يهودية •

ومن ناحية أخرى ذكر السفير أن بعض وزراء الدولة العثمانية — نقلا عن الصحف الصادرة بتاريخ ٢٤ ابريل ١٩١١ — هاجموا الصهيونية[٩٣] ووصفوها بأنها ضرب من الخيال وأنها ضد الفكرة العثمانية • وقد يفسر موقف الحكومة العثمانية — وفقا لما ورد فى تقرير السفير البريطانى — وتصريحات بعض الوزراء ضد الصهيونية

---

(٩٠) Sir Gerard Lowther to Sir Edward Grey No. 16084 with 9103 (No . 271) Gonstantinople 24 April 1911, Hyamson op. cit. pp. 576 - 577 .

(٩١) Hyamson, op. cit. p. 577 .

(٩٢) Hyamson, op. cit. p. 577 .

(٩٣) Hyamson, op. cit. pp. 576 - 577 .

فى عام ١٩١١ بأن هـذا هو الموقف الرسمى لجمعية الاتحاد والترقى وممن أخذ بهذا التفسير الأستاذ محمد رفعت [٩٤] والأستاذ أحمد طربين اذ يقول « ولمـا ثار فتيان الترك بالسلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ تابع اليهود نشاطهم واعتقدوا أن موقف الاتحاديين سيكون أكثر تسـاهلا ومودة ولكن الحكومة الجـديدة سارت على نفس سياسة عبد الحميد وتزايد عداء الحكومة العثمانية للصهيونية • وبدا جليا فى عامى ١٩١١ و ١٩١٢ عندما هاجم كثير من النواب الصهيونية وأوعزت الحكومة الى السلطات المحلية فى فلسطين أن تشدد الرقابة على تنفيذ الأنظمة التى تحظر على اليهود امتلاك الأراضى »[٩٥] •

غير أن ما حدث فى عام ١٩١٣ وما بعدها وأثبتته الوثائق الرسمية يؤكد أن سياسة جمعية الاتحاد والترقى كانت ـــ على نقيض سياسة الدولة العثمانية لا سيما فى عهـد السلطان عبـد الحميد ـــ موالية للصهيونية فيما يتعلق برفع الحظر على الهجرة الى فلسطين وامتلاك الأراضى فيها • ففى ٢١ ديسمبر ١٩١٣ بعث السفير البريطانى فى القسطنطينية سير ماليت تقريرا الى سير ادوارد جراى وزير الخارجية يحيطه بالنجاح الذى أحرزته الصهيونية بالغاء جوازات السفر الحمراء التى كان يتعين على اليهود الأجانب حملها عند وصولهم أرض فلسطين والتى كانت تحدد فترة اقامتهم فيها بثلاثة أشهر [٩٦] •

أما القنصل البريطانى فى القدس «McGregor» فقد كتب الى السفير البريطانى فى القسطنطينية فى ١٥ يناير ١٩١٤ يخطره رسميا بأن العقبات

---

(٩٤) محمد رفعت : قضية فلسطين « اقرأ » دار المعارف للطباعة والنشر بمصر : القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٦

(٩٥) أحمد طربين : محاضرات فى تاريخ القضية الفلسطينية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٢

(٩٦) Sir L. Mallet to Edward Grey, 1913 / No. 58134 with 6584 (No . 1023) Constantinople 21 Dec . 1913 , Hyamson op. cit . p. 583 .

فى سبيل الهجرة اليهودية الى فلسطين وامتلاك الأراضى فيها قد زالت بفضل موقف السلطات الذى يدعو للارتياح[٩٧] .

وقد زار جورجى زيدان — صاحب مجلة الهلال — فلسطين فى سنة ١٩١٣ ونشر عددا من المقالات[٩٨] فى مجلته يصف فيها مشاهداته فى فلسطين فتحدث عن السهول الخصبة بين حيفا واليرموك وقال « ان اليهود باذلون جهدهم فى ابتياع الأراضى فى فلسطين بكل وسيلة ممكنة بمساعدة الجمعية الصهيونية وأن غور بيسان كان معروضا للبيع فى صيف عام ١٩١٣ وقد احتج أعيان الوطنيين على الحكومة لما بلغهم عزمها على بيعه لبعض الأجانب أو اليهود فتوقفت الحكومة عن بيعه مؤقتا » [٩٩] .

ويواصل جورجى زيدان حديثه قائلا « ورغم احتجاج المسلمين والمسيحيين وغيرهم من الوطنيين على بيع الأرض لليهود فانهم يبتاعونها ويصلحونها ويغرسونها أو يبنونها ويعولون فى استعمارها على أحدث الطرق الفنية . شاهدنا فى يافا محلة أو مستعمرة اسرائيلية اسمها تل أبيب أدهشنا ما رأيناه فيها من نظام الشوارع واتقان البيوت فى بنائها على الطراز الصحى وقد شادت هذه المحلة شركة يهودية لسكنى اليهود وهى تؤجرهم اياها بطريق الاستهلاك بشروط سهلة بحيث يصبح المنزل لساكنه بعد مدة غير طويلة »[١٠٠] .

فكيف نفسر سياسة حكومة الأتراك الاتحاديين تجاه الهجرة اليهودية وامتلاك أراضى فلسطين فى عامى (١٩١١ — ١٩١٢) وموقفها فى

---

(٩٧) P.J. C. McGregor to Sir L. Mallet 1914 No. 16140 (No. 16 Conf.) Jerusalem, 15 March 1914, Hyamson, op. cit. p. 583.

(٩٨) نشرت هذه المقالات عن فلسطين فى الهلال ابتداء من العدد الصادر فى أول أكتوبر سنة ١٩١٣ السنة الثانية والعشرون حتى أول يونيو سنة ١٩١٤ (السنة الثالثة والعشرون) .

(٩٩) جورجى زيدان : رحلة صاحب الهلال الى فلسطين — الهلال ج ٧ السنة الثالثة والعشرون أول ابريل ، ١٩١٤ ص ٥١٧

(١٠٠) المصدر نفسه ص ٥١٨ .

عام ١٩١٣ وما بعده عندما رفعت القيود عن الهجرة اليهودية ؟ لعل تطور الأحداث السياسية فى الدولة العثمانية بين سنتى (١٩١١ و ١٩١٣) يعيننا على الاهتداء الى ذلك التفسير .

لقد كانت جمعية الاتحاد والترقى — بعد عزل السلطان عبد الحميد ونفيه الى سالونيك سنه ١٩٠٩ — تتطلع الى استقرار الحكم فى قبضتها ولكن تطلعاتها لم تتحقق لأنهـا واجهت معارضة عنيفة طوال عامى (١٩١١و١٩١٢) وشاهدت تحول الرأى العـام ضدها فظهر فى أوائل سنة ١٩١١ حزب مناوىء للاتحاديين يدعو الى دعم الحقوق المقدسة للخلافة والسلطنة وينادى بتعديل الدستور لتحقيق هـذا الهدف[١٠١] وفى ٢١ نوفمبر سنة ١٩١١ ظهر اتحاد الأحرار الذى ضم كل المعارضين لجمعية الاتحاد والترقى وكون معارضة برلمـانية ضد الاتحاديين فاضطر هؤلاء الى حل البرلمـان فى يناير عام ١٩١٢ واجراء انتخابات فى ابريل سـنة ١٩١٢ جاءت بمن يريدون وسميت انتخابات العصـا الغليظة[١٠٢] ولكن فى شهرى مايو ويونيو سنة ١٩١٢ تجمع عدد من الضباط فى القسطنطينية عرفوا بفرقة الانقاذ وكان من أهدافهم اسقاط جمعية الاتحاد والترقى وبرلمـانها وحكومتها واعادة الحياة الدستورية وفرضت هـذه الحركة تعديلا جذريا أدى الى تكوين ما سمى بالوزارة العظيمة برئاسة أحمد غازى مختار فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٢ التى حققت مطالب المعارضة فى ابعاد جمعية الاتحاد والترقى — مؤقتا — عن السلطة وحل برلمـانها فى ٥ أغسطس ١٩١٢ وكانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت مشغولة بحرب البلقان (أكتوبر ١٩١٢) وبالعدوان الايطالى على ليبيا (١٩١١) فدبر الاتحاديون انقلابا مضادا لاستعادة السلطة بقيادة أنور بك فى ٢٣ يناير سـنة ١٩١٣ وأسقطوا الوزارة العظيمة وقتلوا وزير حربيتها ناظم باشا وفى ١١ يونيو ١٩١٣ عادت جمعية الاتحاد والترقى الى السـلطة فى صورة دكتاتورية ثلاثية يتزعمها أنور وطلعت وجمال[١٠٣] .

---

(١٠١) B. Lewis op. cit. p. 220 .

(١٠٢) B. Lewis op. cit.

(١٠٣) B. Lewis op. cit. pp. 223 - 225.

ولخص أحد المراسلين المعاصرين للأحداث حالة الاضطراب التى سادت الآستانة بين عامى (١٩٠٨ و ١٩١٣) قائلا « منذ أربعة أعوام قلب الجيش حكم عبد الحميد وأنشأوا حكومة دستورية ثم قام الجيش فقلب تلك الحكومة ثم قام رجال تلك الحكومة فقلبوا بعض طوابير ذلك الجيش ثم عاد ضباط الجيش الكرة الرابعة منذ شهور وقلبوا ذلك الحكم فقام الاتحاديون اليوم وقلبوا حكومة ذلك الجيش وهى خامس ثورة حدثت فى أربعة أعوام فى سبيل القبض على الحكومة ليس غير »[١٠٤] •

فى مثل هـذه الظروف التى نازعت فيها المعارضة سلطة الاتحاديين بل نزعتها منهم فى النصف الثانى من عام ١٩١٢ لا نتوقع من حكومة الاتحاديين أن تجد الأمن والثقة الكافية التى تمكنها من اتخاذ موقف ودى تجاه هجرة اليهود الى فلسطين ولكن موقفها وضح بعد حوادث ١١ يونيو ١٩١٣ ، لأنها قضت على المعارضة قضاء تاما وأصبحت صاحبة السلطان المطلق بقيادة الدكتاتورية الثلاثية التى أطفأت آخر قبس من الحرية على مسرح السياسة التركية وقادت الدولة العثمانية الى الدمار فى الحرب العالمية الأولى التى انتهت بهزيمتهم فى سنة ١٩١٨ •

هذا — فيما يبدو — هو التفسير الأرجح لنجاح الصهيونية فى عام ١٩١٣ مع قادة الأتراك الاتحاديين لرفع القيود عن الهجرة اليهودية الى فلسطين واباحة امتلاك الأرض الفلسطينية لليهود الأجانب على النحو الذى ورد فى تقرير سفير بريطانيا فى القسطنطينية وقنصلهـا فى القدس •

أما مصر العربية العثمانية فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فقد تربع على عرشها اللورد كرومر (ايفلين بيرنج) منذ سنة ١٨٨٢ رغم تبعيتها الرسمية للخليفة العثمانى وكان كرومر يستمد سلطته فى حكم مصر من تفويض الحكومة البريطانية ، وقوته العسكرية ، من جيش الاحتلال المرابط فى أرض مصر ، ومن ثم كان الاحتلال الأجنبى المشكلة الكبرى التى واجهت مصر منذ ذلك الحين فوجه قادتها الوطنيون كل جهدهم لتحـرير أرضهم فى اطار العلاقة

---

(١٠٤) المنار ج ٢ م ١٦ ص ١٥١ ، ٦ فبراير ١٩١٣

الخاصة التى تربط وطنهم بالدولة العثمانية قبل هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى وكان قادة الحركة الوطنية فى مصر قبل انفجار الثورة العرابية مدركين لطبيعة هـذه العلاقة ، لا سيما بعد المذكرة المشتركة التى بعثت بها الحكومتان البريطانية والفرنسية فى ٧ يناير ١٨٨٢ الى ممثليهما فى القاهرة تحمل تهديد الدولتين بالتدخل المسلح للابقاء على الوضع السياسى فى مصر وبالتالى لحماية مصالحهما • وفى ذلك يقول بلنت « ان نتائج المذكرة المشتركة أن بات الناس يتجهون نحو السلطان بصفته منقذا لهم وأصبحوا ينظرون الى عرابى أنه عضد السلطان فى مصر والملاذ الذى تتجه اليه أنظارهم لتحقيق آمالهم ، بعد أن يئسوا كل اليأس من توفيق »[١٠٥] •

ويقول الأستاذ محمد فؤاد شكرى « كان من آثار المذكرة المشتركة التى بعثت بها بريطانيا وفرنسا الى الخديو عن طريق ممثليهما فى القاهرة أن اعتبرها الثوار الوطنيون دليلا ماديا على عزمهما التدخل فى شئون بلادهم فزادت من تعلقهم بتركيا كمنقذ للبلاد على أساس أن السلطان العثمانى هو صاحب السيادة »[١٠٦] •

أما تأييد قادة الحزب الوطنى فى مصر للسلطان العثمانى فى عام ١٨٨٢ مع حرصهم على استقلال بلادهم فقد أثبته الأستاذ بلنت فى صحيفة التايمز البريطانية بتاريخ أول يناير سنة ١٨٨٢ عندما نشر بيانا تلقاه من بعض الزعماء الوطنيين منهم الشيخ محمد عبده ومحمود سامى البارودى وعرابى • جاء فيه « يرى الحزب الوطنى المحافظة على الروابط الودية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالى واتخاذ هـذه الروابط ركنا يستند عليه فى عمله ويعترف بالسلطان عبد الحميد كمتبوع وخليفة وامام المسلمين ولا يريد تبديل هـذه الصلات والروابط ما دامت الدولة العلية فى الوجود »[١٠٧] •

---

(١٠٥) محمود الخفيف ، أحمد عرابى ، دار الهلال ج ١ العدد ٢٤٥ يونيو ١٩٧١ ص ١٧٠.

(١٠٦) محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان أو وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر دار المعارف — القاهرة ١٩٦٣ ص ١٩٩

(١٠٧) مكى شبيكة ، المصدر نفسه ص ٥٨١ — ٥٨٢

ظهر الحزب الوطني المصرى فى ابريل سنة ١٨٧٩ ثم أعيد تكوينه فيما بعد بقيادة أحمد عرابى [١٠٨] • وبعد فترة اليأس التى تلت القضاء على الثورة العرابية وظهور مصطفى كامل (١٨٧٤ — ١٩٠٨) نشطت المقاومة ضد الاحتلال البريطانى بتشجيع الخديو عباس الثانى (١٨٩٢) الذى نال فى سنواته الأولى اعجاب الوطنيين وتقديرهم لنزعته الوطنية وحرصه على ممارسة سلطاته وقيادته لجبهة وطنية قاومت الاحتلال وكان من أعضائها مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد ، على أن صلته قد انقطعت بمصطفى كامل بعد الوفاق « البريطانى — الفرنسى » فى سنة ١٩٠٤ [١٠٩] •

كان ظهور مصطفى كامل معلما من معالم الحركة الوطنية فى مصر فقد ظهر كما قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى سنة ١٨٩٠ « على حين فترة من الحركة الوطنية وهجعة من الكفاح القومى وانحلال فى الروح المعنوية فنهض يدعو الى الحرية والاستقلال فى وقت تحالفت فيه عوامل اليأس وتضافرت أسباب الجمود والضعف • ودعا دعوته فبدأت غريبة عن الأذهان بعيدة عن الأفهام ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه وأقوى من العوامل المثبطة فأخذ يثابر على دعوته ويناضل عنها حتى استجابت الأمة لندائه » [١١٠] •

كان مصطفى كامل رمزا لتاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٠٨ وهى فترة حافلة باليقظة الوطنية والجهاد الذى لا يكل من أجل استقلال مصر واسترداد حريتها وكان سلاح مصطفى كامل فى هذه المعركة عزيمته القوية وقلمه المطواع وخطابته التى تأخذ بمجامع القلوب ، وكانت استراتيجيته تعبئة الشعور الوطنى فى الداخل واثارة الرأى العام الأوروبى فى الخارج ضد الاحتلال ، واحترام العلاقة

---

(١٠٨) Mahmud Zayid, The Origins of the Liberal Constitutional Party in Egypt, Political and Social Change in Modern Egypt. Ed. by P. M. Holt, op. cit, p. 334.

(١٠٩) المصدر نفسه ص ٣٣٦

(١١٠) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٢ ص ١٣

الخاصة التى تربط مصر بالدولة العثمانية ، حامية الوطن الاسلامى من التدخل الأجنبى ، وهـذا ما دفع الوطنيين فى مصر الى التطلع الى الدولة العثمانية — خاصة بعد ضعف موقف فرنسا اثر حادثة فاشودة — (١٨٩٨) لمساعدتهم فى تحقيق الجلاء .

وكان مركز مصر الشرعى حتى سنة ١٩١٤ — وفقا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وفرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ — أنها خاضـعة للسيادة العثمانية[١١١] ، ولكن المشـكلة التى شغلت أبناء مصر منذ سنة ١٨٨٢ كانت الاحتلال البريطانى لا السـيادة العثمانية بل كان الوطنيون يخشون أن تزول السـيادة العثمانية عن مصر والاحتلال البريطانى جاثم على أرضها فتئول السـيادة بذلك تلقائيا الى دولة الاحتلال[١١٢] ، وعلى رأس هؤلاء الوطنيين كان مصطفى كامل الذى أصابه رشاش من التهم التى كالها الموالون للاحتلال البريطانى[١١٣] فوصفوه بأنه داعيـة الى نقل مصر من حكم الاحتلال الى الحكم العثمانى وقد رد عليهم :

« أما دعوتكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد الى استعباد وأنهم انما يطلبون خروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت رحمة حكم جديد فهى دعوى لا يقبلها ذو لب ولا سلم بها أحد من العقلاء فاننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ونتمسك بهذا المطلب الى آخر لحظـة من حياتنا » [١١٤] ، وقال مصطفى كامل فى خطبة ألقاها فى ٢١ يناير ١٩٠٧ « يستحيل علينا أن يطلب واحد منا ملكا أجنبيا عنا فنحن لا نود الا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية ننصرها وتنصرنا ونعتز بها وتعتز بنا »[١١٥] .

---

(١١١) المصدر نفسه ص ٣٦٠.

(١١٢) الرافعى ، المصدر نفسه (نقلا عن الوقائع المصرية عدد ١٩ ديسمبر ١٩٠٤) ص ٣٦١

(١١٣) كانت مجلة المقطم وصاحباها ، يعقوب صروف وفارس نمر من الموالين للاحتلال وفقا للرواية آرثر جولد شميدت (Arthur Goldschmidt) The Egyptian, Nationalist Party , 1892 - 1919 Ed. By P.M. Holt, op. cit, p. 310.

(١١٤) الرافعى ، المصدر نفسه ص ٣٦٦ ، نقلا عن اللواء عدد ٢ مايو ١٩٠٦

(١١٥) المصدر نفسه ص ٣٦٧

ويروى الأستاذ أسعد داغر فى مذكراته أن مصر كانت ترى فى الأتراك اخوانا منقذين اذ يقول « وما يؤسف له أن العرب التابعين السلطنة العثمانية لم يكونوا على تفاهم تام مع العرب الذين وقعوا تحت نير الاستعمار الأجنبى فمصر مثلا كانت تعانى من مظالم الانجليز وغطرستهم ما أنساها مظالم الترك (لعله يعنى الأتراك الاتحاديين) وجهلهم وفساد حكمهم وجعلها ترى فيهم اخوانا منقذين وخصوصا بعد اعلان الدستور العثمانى فى حين أن العرب الباقين تحت سيطرتهم كانوا ينظرون اليهم نظرهم الى أعداء مخربين قساة ظالمين . من أجل ذلك كان العرب شرقى قناة السويس مجمعين على كره الترك ومحاولة التخلص منهم بينما اخوانهم فى غربى القناة عقدوا كل آمالهم فى الخلاص من الأجانب على قوة تركيا ودهاء رجالها وقادة أمورها »[١١٦] .

ان حديث الأستاذ أسعد داغر — وقد عاصر الحركة العربية فى ذلك الوقت يعزز القول بأن قادة الحركة الوطنية فى مصر فى مطلع القرن العشرين كانوا يرون الأتراك منقذين لا أعداء متربصين وقد تجلى ذلك بوضوح فى حادثة العقبة أو « طابة » — كما تسمى أحيانا — عندما اعتزمت تركيا فى سنة ١٩٠٦ مد سكة حديدية من معان الى العقبة — وفى ذلك تقوية لتركيا على حدود مصر وتهديد لمركز الاحتلال البريطانى — فاعترضت بريطانيا ولكن القوات التركية احتلت موقع « طابة » فثارت ثائرة بريطانيا وتوعدت وهددت ، فوقفت الأمة المصرية الى جانب تركيا وهاجم مصطفى كامل بريطانيا وأثار الجماهير ضدها وأحست بريطانيا لأول مرة منذ عام ١٨٨٢ بأن مركزها مهدد فى مصر[١١٧] ويرى بعض الكتاب أن موقف مصر فى حادثة العقبة ربما كان له أثر فى الأحكام الصارمة التى أصدرتها محكمة دنشــواى (٢٧ يونيو ١٩٠٧) على واحد وعشرين من المواطنين المصريين ، أعدم منهم أربعة[١١٨] ونفذ

---

(١١٦) أسعد داغر المصدر نفسه ص ٤٧

(١١٧) Arthur Goldschmidt, op. cit.

(١١٨) انظر تفاصيل الحادث والمحاكمة فى كتاب الرافعى : مصطفى كامل ص ١٩٩ — ٢٠٧

الحكم ببشاعة فاقت كل التصور ويذكر الأستاذ جولد شمت أن الغرض من هـذا الحكم كان ارهاب الوطنيين من دعاة الوحدة الاسـلامية وارغامهم على الاستسلام[١١٩] ولكن محاكمة دنشواى أكسبت مصطفى كامل مزيدا من التأييد ، وقد ندد بالحادثة وبالسياسة البريطانية فى مقالة شهيرة بعنوان « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن » نشرتها جريد الفيجارو الفرنسية فى عددها الصادر بتاريخ ١١ يوليو ١٩٠٦ وكان من نتائج تلك المقالة ، اقالة لورد كرومر من منصبه ، فيما يروى الأستاذ عبد الرحمن الرافعى[١٢٠] .

كان اتجاه مصطفى كامل الوطنى والاسلامى امتدادا لدعوة الأفغانى وكان فى جهاده الوطنى يستلهم الاسلام ويدفع عنه افتراءات الأقلام الغربية على نحو ما فعل الأفغانى ومحمد عبده فى «العروة الوثقى» ولهذا الغرض أصدر صحيفة « العالم الاسلامى » فى أول مارس سنة ١٩٠٥ وجاء فى العدد الأول منها أنها صدرت :

« لنشر ما يهم العالم الاسلامى معرفته وترجمة ما تكتبه صحف الغرب ويقوله خطباؤه عن الاسـلام والمسلمين ليعرف كل واحد من أفراد الجامعة الاسـلامية ما يقال عن قومه وبنى دينه فينهض القاعد وينشط الكسـول ويخجل المتلاهى ويتفق المفترقون وبالجملة تقوم للأمة الاسـلامية قائمة » .

« أما الأكاذيب والمفتريات فان نشرها على المسلمين ينبه أفاضل علمائهم والمغيورين من كتابهم للرد عليها فى الصحف التى صدرت فيها واقناع العالم المتمدن أنا لسنا كما يظن بعض رجاله ندين بدين يعـادى العلم والنور والاصلاح والنظام » [١٢١] .

---

(١١٩) Arthur Goldschmidt, op. cit. p. 320.

(١٢٠) الرافعى المصدر نفسه ص ٢٠٨

(١٢١) العالم الاسلامى ، العدد الأول ص ١ ، ٤ محرم سنة ١٣٢٣ هـ/ أول مارس ١٩٠٥ م .

وجاء فى رسالة لمصطفى كامل من لندن الى دام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة — التى مهدت له الاتصال بأشهر صحف فرنسا وكتابها — ما يلى :

« لندرة فى ١٨ يوليو ١٩٠٦ ..

« قرر مسلمو لندرة (لندن) مصريين كانوا أو أتراكا أو هنودا أو غيرهم وجميعهم من المثقفين اقامة احتفال عظيم مساء الثلاثاء تحية الى واحتفاء بى وسأخطب فيهم عن نهوض الاســلام »[١٢٢] .

ومن جراء نشاطه السـياسى الذى غلبت عليـه النزعة الوطنية الاسلامية تعرض مصطفى كامل لمضايقات شديدة من أنصار الاحتلال البريطانى والنفوذ الأجنبى ولنفسح له المجال ليحدثنا بنفسه عن هذه المضايقات فى رسالة بعث بها الى مدام جولييت جاء فيها :

« القاهرة فى ١٥ ديسمبر ١٩٠٥ ..

ســيدتى العزيزة

أسألك العذر اذا لم أكتب اليك فى هذه اليومين فانى كنت فى حرب عوان . ذلك أن أعدائى أرادوا بذر بذور البغضاء بينى وبين الأوروبيين القاطنين فى مصر بما تقولوه على من أنى هجت فى « اللواء » أبناء دينى على المسيحيين وقد ناضلت مثبتا الضد وعلى ذلك عادوا بخفى حنين لمـا قدمته من البراهين على أنى انما أنتقد السياسة الأوروبية ولا أخص النزلاء الأوروبيين بالمسئولية عن خطة حكوماتهم ، الحادثـة التى وقعت بشأنها المناقشة بسيطة جدا ليست الا مشاجرة سببها بعض رعاع اليونان مما جسم الأمر »[١٢٣] .

ويلاحظ أن توجيه هـذا النوع من التهم الى الوطنيين لم يكن غريبا فى ذلك الوقت فقد اتهم أحمد عرابى من قبل على لسان لورد

---

(١٢٢) رسائل « مصرية — فرنسية » — ترجمة على فهمى كامل ، القاهرة ١٩٠٩ ص ٢٤٩ .

(١٢٣) المصدر نفسه ص ٢٢٩

جورج لويد بأن ثورته كانت تهدف الى اضطهاد المخـــالفين له فى الدين :

« لو لم نتدخل اقمع الثورة العرابية لتطورت ـــ دون شك ـــ الى اضطهاد لا رحمة فيه لكل المخالفين له فى الدين وكان على السلطات البريطانية أن تحـــذر تعصب الســـكان واستعدادهم لتصـــديق كل ما يقال لهم » (١٢٤) ٠

لقـــد كان مصطفى كامل يعتبر الحزب الوطنى ، حزب الجلاء ، موجودا منذ بدأت الحركة الوطنية فى مصر ولكنه اتجه قبل وفاته ببضعة أشـــهر الى تنظيمه ودعا الى أول جمعية عمومية للحزب فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ ولكن المنية عاجلته فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ فخلفه على رئاسة الحزب محمد فريد (١٨٦٧ ـــ ١٩١٩) وقد أخذت سلطات الاحتلال بعد تقاعد كرومر (مايو ١٩٠٧) وتعيين جورست «Eldon Gorst» تعمل على اضعاف الحركة الوطنية عن طريق انشاء أحزاب جديدة كحزب الأمة (١٩٠٧) الذى كان يضم كبار الأثرياء ويدعو الى التعاون مع سلطات الاحتلال ونبذ أفكار دعاة الوحدة الاسلامية »(١٢٥) ٠

وعندما هاجمت ايطاليا ليبيافىسنة١٩١١وخلف كتشنر جورست على دار العمادة فى مصر كان الحزب الوطنى يجمع المتبرعات لجهود الدفاع التركى ثم واجه الحزب موجة من الاضطهاد من قبل السلطات البريطانية الحاكمة وانتهى نشاطه بنشوب الحرب العالمية الأولى ٠ وقد رأينا أن التمهيد للاتصال مع شريف مكة بدأ قبل اندلاع الحرب بوقت قصير وهو التمهيد للخديعة الكبرى التى واجهها العرب فى مصر والهلال الخصيب فى وقت واحـــد ٠

* * *

---

(١٢٤) Lord G. Lloyd, Egypt Since Cromer, Macmillan & Co. London, 1933, Vol. 1 p. 36.

(١٢٥) Arthur Goldschmidt, op. cit. pp. 321 - 22.

الفصل الثالث

الخديعة الكبرى

● القضية العربية فى طور جديد — ارهاب جمال باشا يعجل بالثورة العربية — بريطانيا صديقة العرب ضد الأتراك !! — اعلان الحماية فى مصر — السلطان حسين كامل — الملك فيكم آل اسماعيلا — الاتصالات الأولى بشريف مكة من القاهرة — تطويق الحركة العربية — كتشنر — ماكماهون — ستورز — وينجت — هوجارث — كلايتون — الوجه الآخر للسياسة البريطانية : بلفور — سايكس — صموئيل — وايزمان — محور (براندايس — ويلسون — وايزمان) — مراسلات حسين/ماكماهون — اعادة الخلافة الى العرب — ثقة الشريف حسين فى الشرف البريطانى — اتفاق سايكس/بيكو — اعلان الثورة العربية فى الحجاز — الأهمية الحربية للثورة العربية — وعد بلفور — وعود أخرى — تناقض الوعود البريطانية — مؤتمر الصلح فى باريس — لجنة كنج كرين — رسائل : (ويلسون — فرانكفورتر) — فلسطين تتاهب لاحباط المشروع الصهيونى — الصهيونية توجه وزارة الخارجية البريطانية — لجنة صهيونية تزور فلسطين — الاعداد لتنفيذ المشروع الصهيونى — ثورة ١٩١٩ — زغلول وفيصل امام مؤتمر الصلح فى باريس .

* * *

الخديعـــة الكبرى

دخلت القضية العربية فى مصر والهلال الخصيب طورا جديدا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى (١٤ يوليو ١٩١٤) واعلان بريطانيا الحرب على ألمـــانيا (٤ أغسطس ١٩١٤) وانحياز تركيا الى صف ألمـــانيا (٢٩ أكتوبر ١٩١٤) وكان أهم معالم هـــذا التحول اتجاه الحركة العربية فى سوريا والحجاز نحو الاستقلال السياسى والاستعانة ببريطانيا فى تفجير ثورة مسلحة ضد الأتراك واتخاذ بريطانيا مظهر الدولة المناصرة لحركة التحرير العربية ، بعد أن اتخذت من دخول تركيا الحرب ذريعة لأضفاء نوع من الشرعية على وجودها فى مصر باعلان الحماية عليها •

ففى ١٨ ديسمبر عام ١٩١٤ أعلنت الحماية البريطانية على مصر ثم « ذهب المستر ملن شيتام القائم بأعمال الوكالة البريطانية فى القاهرة والمستر ستورز سكرتيرها الشرقى الى القصر الذى يقيم فيه الأمير حسين كامل باشا وقدما اليه بلاغ الحكومة البريطانية المؤذن بجعل القطر المصرى تحت حمايتها وبجعله سلطانا من قبلها لمصر »[١] وصدر بيان رسمى من السلطات البريطانية فى القاهرة نشر فى الصحف المصرية وورد فيه « ان جميع الحقوق التى كانت لسلطان تركيا والخديو السابق قـــد سقطت منهما وآلت الى جلالة ملك بريطانيا وان أفضـــل وسيلة لقيام بريطانيا العظمى بمسئوليتها نحو مصر أن تعلن الحماية البريطانية اعلانا صريحا وان حكومة البلاد (مصر) تحت هـــذه الحماية تكون بيد أمير من أمراء العائلة الخديوية طبقـــا لنظام وراثى يقرر فيما بعد »[٢] كذلك أشار البلاغ الى أن الاتصال بين حكومة مصر وممثلى الدول الأجنبية لا يتم الا عن طريق وكيل الحكومة البريطانية فى القاهرة » •

---

(١) المنار ، ج ١ م ١٨ — ١٤ فبراير ١٩١٥ ص ٥٣ — ٥٦

(٢) المصدر نفسه •

وفى اليوم التالى تم خلع الخديو عباس الثانى الذى كان فى الآستانة فى ذلك الحين .

وفى احتفال كبير أقيم يوم ٢٠ ديسمبر عام ١٩١٤ تم نصب الأمير حسين كامل سلطانا لمصر وكان أحمد شوقى أحد الشعراء الذين شاركوا السلطان الجديد ابتهاجه فى ذلك اليوم بقصيدته الشهيرة :

الملك فيكم آل اسماعيلا	لازال بيتكمو يظل النيلا
لطف القضاء فلم يمل لوليكم	ركن ولم يشف الحسود غليلا
هذى أصولكم وتلك فروعكم	جاء الصميم من الصميم بديلا
أنتم بنو المجد المؤثل والندى	لكمو السيادة صبية وكهولا
أحيا أبوكم شاطئيه وابتنى	مجدا لمصر على الزمان أثيلا
نشر الحضارة فوق مصر وسوريا	وامتد ظلا للحجاز ظليلا
وأعاد للعرب الكرام بيانهم	وحمى الى البيت الحرام سبيلا(٣)

وقد سبق اعلان الحماية البريطانية على مصر اعلان الأحكام العرفية (٢ نوفمبر ١٩١٤) والرقابة على الصحف والاجتماعات العامة(٤) وخفت صوت الحركة الوطنية خلال الفترة (١٩١٤ — ١٩١٨) ، حتى اذا وضعت الحرب أوزارها انفجرت الثورة الوطنية ضد الاحتلال بقيادة سعد زغلول فى سنة ١٩١٩ .

ان ما حدث فى مصر بعد اعلان الحرب العالمية الأولى هو ما كان يخشاه قادة الحركة الوطنية منذ بدأوا يقاومون الاحتلال فتحقق ما كانوا يحذرون وانقطع حتى ذلك الخيط الرفيع الذى كان يربط مصر بدولة الخلافة العثمانية لتنفرد بريطانيا بالسيادة على مصر من الناحية الواقعية ومن هذا الموقع أخذت بريطانيا تباشر سياستها الجديدة نحو الحركة الوطنية فى مصر والهلال الخصيب .

---

(٣) المصدر نفسه ص ٥٩

(٤) P.M. Holt (Editor) Political and Social Change In Modern Egypt (MahmudZaid) op. cit., pp. 334 - 341.

وفى عامى ١٩١٥ و ١٩١٦ أفلحت بريطانيا بمساعى ممثليها فى مصر والسودان فى اكتساب ثقة الحركة العربية بقيادة شريف مكة الحسين بن على ، لكنها لم تكسب تلك الثقة بمعاهدات تلتزم بها بل بوعود يمكن انكارها أو تفسيرها بما يتفق ومصالحها ، وهـذا ما لم يفطن اليه قادة الحركة العربية آنذاك لأنهم كانوا يثقون فى شرف بريطانيا من ناحية[٥] وكانوا من ناحية أخرى يخوضون معركة ضارية وهم عزل ضد جمال باشا قائد الجيش الرابع التركى فى سـوريا ، معركة سقط فيها عشرات الشهداء فى أنهر من الدماء وشردت فيها مئات الأسر رجالا ونساء وأطفالا[٦] ومن ثم ساعدت سياسة جمال باشا وفتكه بقادة الحركة العربية على دفع العرب دفعا الى الوقوع فى فـخ الوعود التى كانت بريطانيا تنثرها ذات اليمين وذات الشمال بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ ولعب عدد من الشخصيات البريطانية الشهيرة دورا هاما فى تطويق الحركة العربية فى الهلال الخصيب وقمعها فى مصر ، منهم لورد كتشنر وريجنالد وينجت وآرثر هنرى ماكماهون ورونالد ستورز ود.ج هوجارث وجلبرت كلايتون كما لعب آخرون من المسئولين البريطانيين فى الوقت ذاته دورهم على صعيد آخر لتحقيق أحلام الصهيونية فى احتلال فلسطين وهم آرثر بلفور ومارك سايكس وهربرت صمويل فى لندن ، يشد أزرهم لوى برانديس وفيلكس فرانكفورتر لدى البيت الأبيض الأمريكى فى واشنطون ٠

وقبل أن نطرق موضوع الوعود البريطانية لشريف مكة يجدر بنا أن نلقى نظـرة على مسرح الحوادث فى سـوريا (الشام) حيث بدأ جمال باشا تنفيذ سياسة العنف الرامية الى القضاء على الحركة العربية الوليدة ٠ وجمال باشا أحد الطغاة الثلاثة الذين حكموا الدولة العثمانية فى تلك الفترة بالحديد والنار ، أولهم أنور وثانيهم طلعت وثالثهم جمال ٠

---

(٥) عبر الشريف حسـين عن ثقته فى شرف الانجليز مع استثناء لويد جورج فى لقائه مع جورج أنطونيوس فى ربيع سنة ١٩٣١ ، أنظر يقظة العرب ص ٢٧٥ ٠

(٦) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٧٣

دخل أحمـد جمال باشا دمشق فى الخامس من شـهر ديسمبر عام ١٩١٤[٧] ليتسلم أعماله قائدا للجيش الرابع التركى وأخذ يقرب اليه قادة الحركة العربية الاصلاحية من أمثال عبد الكريم الخليل معتمد الشبيبة العربية فى الآستانة والدكتور عبد الرحمن شهبندر الذى اتخذه جمال طبيبا خاصا ومحمد كرد على وعبد الغنى العريسى • ويبدو أن سياسة التودد هـذه كانت ذريعة للفتك بتلك الصفوة من قادة العرب الذين أخلصوا للدولة العثمانية ولم يتخلوا عنها فى أحلك الساعـات اذ لم يكن يخطر على ذهن أحد أن عبد الكريم الخليل الذى قدم من الآستانة الى سوريا غداة اعلان التعبئة العامة فى أغسطس عام ١٩١٤ ليجمع الصف العربى على مؤازرة الدولة العثمانية[٨] سيكون جزاؤه الاعدام بأمر جمال باشا فى ٢١ أغسطس عام ١٩١٥ ولكن هـذا ما حدث وكان اعتقال عبد الكريم الخليل فى أواخر شهر يونيو عام ١٩١٥ ايذانا ببدء حملة الابادة التى شنها جمال باشا لتصفية الحركة العربية وكان حصادها اعدام الرعيل الأول فى ٢١ أغسطس عام ١٩١٥ ومن بينهم عبـد الكريم الخليل وصالح حيدر ومسلم عابدين ومحمد المحمصانى ومحمود المحمصانى وسليم عبد الهادى وغيرهم وفى ٦ مايو سنة ١٩١٦ فاضت أرواح الفوج الثانى من قادة العرب على أعواد المشانق التى نصبها جمال باشا فى بيروت ودمشق ومن هؤلاء — على سبيل المثال لا الحصر — عبد الحميد الزهراوى وشـكرى العسلى وعبد الوهاب الانكليزى ورشدى الشمعة ورفيق رزق سلوم وعبد الغنى العريسى والشيخ أحمد طبارة ، وحكم بالاعدام غيابيا على السيد محمد رشـيد رضا ورفيق العظم وفارس نمر وجميع زعماء حزب اللامركزية المقيمين فى مصر[٩] وقد روى الأستاذ أمين سعيد صورا من بطولة هؤلاء الشهداء وهم يستقبلون الموت على أيدى جلادى جمال باشا[١٠] •

---

(٧) المصدر نفسه ص ٥٨

(٨) المصدر نفسه ص ٥٧ — ٥٨

(٩) المصدر نفسه ص ٦٠ — ٦٢ •

(١٠) المصدر نفسه ص ٨٦

وجاء فى البيان الذى أصدره جمال باشا دفاعا عن فعلته اتهام لعبد الكريم الخليل ورضا الصلح بأنهما كانا يدبران عصيانا فى سوريا وفلسطين واتهم الكثرة من الذين نفذ فيهم حكم الاعدام بالانتماء الى حزب اللامركزية الادارية العثمانى فى القاهرة بالاضافة الى عـدد قليل لا يجاوز بضعة أفراد اتهموا بأنهم كانوا يعملون تحت حماية فرنسـا وارشادها ولمصلحتها من أمثال نخلة مطران ويوسف الهانى وهـذه فئة لا صلة لها بقيادة الحركة العربية الذين كانوا يؤيدون الدولة العثمانية خوفا من وقوع البلاد العربية فريسة للدول الأوروبية[١١] ولكن جمـال باشا وصفهم جميعا بالخيانة والعصيان دون تميز بين هؤلاء وأولئك وفى هـذا يقول الأستاذ أمين سعيد :

« وثمة جريمة أخرى ارتكبها جمال باشا فقد وصم جميع الذين شنقهم ونفاهم أو حكم عليهم بالاعدام غيابيا بتهمة الخيانة للدولـة والتآمر عليها ولئن صحت هذه التهمة بالنسبة لنخلة المطران ويوسـف الهانى وبترو باولى وقد كانوا يمهدون لاستيلاء فرنسا على سـورية فانها لا تصح بالنسبة للشهداء الآخرين الذين لم يقترفوا ذنبـا ولم يرتكبوا خيانة يستحقون أن يحاكموا عليها فضلا عن اعدامهم لولا الرغبة فى التخلص منهم والقضاء على الحركة العربية فى أشخاصهم »[١٢] .

ويلاحظ أن عددا لا يسـتهان به من قادة الحركة العربية الذين أعدمهم جمـال باشا أو حكم عليهم غيابيا كانوا من حمـلة الأقلام كعبد الغنى العريسى صاحب جريدة «المفيد» البيروتية والشيخ أحمد طبارة صاحب جريدة « الاتحاد العثمانى » بيروت ، وشكرى العسلى صاحب جريدة « القبس » الدمشقية وعبد الحميد الزهراوى الحموى صاحب جريدة « الحضارة » فى الآستانة والسيد محمد رشيد رضا صاحب « المنار » فى مصر والدكتور فارس نمر صاحب « المقطم » وداوود بركات محرر « الأهرام » .

---

(١١) انظر هامش (٥٩) من الفصل الثانى .

(١٢) أمين سعيد ، المصدر نفسه ص ٩٨

وقد روى جورج أنطونيوس أن الأمير فيصل بن الشريف حسين كان فى دمشق عندما بلغته أنباء اعدام الرعيل الثانى من الشهداء وكان مقيما مع آل البكرى فى ضاحية قرب دمشق « فقفز واقفا وانتزع الكوفية من على رأسه وقذف بها على الأرض وداسها بعنف وصاح : طاب الموت ياعرب »[١٣] .

أما فى الحجاز فقد كانت المؤامرات التى يدبرها وهيب باشا القائد التركى للاطاحة بالشريف حسين والقضاء على سلطانه عاملا آخر فى تهيئة المناخ لانفجار الثورة .

فى هـذه الظروف التى سادها الألم والترقب والتوجس والحذر ، بدأت مراسلات «حسين ــ ماكماهون» التى انتهت بانحياز الحركة العربية الى جانب الحلفاء واعلان الثورة على الأتراك .

ليس هذا مجال الحديث عن تلك المراسلات التى أثارت كثيرا من الخواطر والتعليق والنقد والتى ظلت موضع عناية الباحثين وقتا طويلا ولكن سنشير اليها هنا بالقدر الذى يساعد على ايضاح طبيعة الخداع الذى مارسه المسئولون البريطانيون فى بناء علاقاتهم السياسية مع الأمة العربية بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى .

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن قادة الحركة العربية فى دمشق كانوا على استعداد لاضرام الثورة فى سوريا[١٤] وبعد وصول فيصل عقب زيارته الى الآستانة فى عام ١٩١٥ واتصاله برجال الجمعيات العربية السرية فى دمشق فى سراى آل البكرى تم تنسيق العمل بين قادة الحركة العربية فى كل من الحجاز وسوريا وكان هؤلاء القادة حريصين كل الحرص ألا يعلنوا ثورتهم الا بعد الحصول على ضمانات كافية بتحقيق استقلال البلاد العربية وقد أعد قادة حزبى الفتاة والعهد بيانا بالشروط التى رأوها ضرورية لقيام الثورة العربية[١٥] ولكنهم لم يظفروا بشىء

---

(١٣) جورج انطونيوس : المصدر نفسه ص ٢٨٥ .
(١٤) أمين سعيد ، المصدر نفسه ص ١٠٩
(١٥) George E. Kirk, A Short History of the Middle East, University Paperbacks, Methuen, 1963, pp. 125.

وكان ستورز وكلايتون على اتصال بعزيز على المصرى وغيره لاقناعهم بفكرة الثورة العربية دون أن يقدما الضمانات المطلوبة .

وقد مهد لمراسلات « حسين — ماكماهون » لورد كتشنر ، معتمد بريطانيا فى مصر قبيل الحرب ، فى اتصالات أجراها مع الأمير عبد الله ابن الحسين فى سنة ١٩١٣ كما قام الأمير عند قدومه القاهرة فى يوليو عام ١٩١٤ بالاجتماع بكتشنر وحضر الاجتماعين مستر ستورز وفى الاجتماع الثانى جرى حديث عن العلاقات العربية البريطانية أوضح فيه كتشنر أن سياسة بريطانيا نحو العرب تتحدد فى اطار العلاقات الودية التى تربط بريطانيا بالدولة العثمانية[١٦]، ولكن عندما لاحت نذر الحرب ووقفت تركيا مع ألمانيا بعث كتشنر من لندن الى رونالد ستورز برقية فى ٣١ أكتوبر عام ١٩١٤ ذكر فيها أن ألمانيا أغرت تركيا بالوقوف الى جانبها وشرت تأييدها بدراهم معدودات ، رغم استعداد بريطانيا وفرنسا وروسيا لضمان سلامة الامبراطورية العثمانية ، اذا لزمت تركيا الحياد فى الحرب القادمة وأن بريطانيا تضمن للعرب عدم التدخل فى الجزيرة العربية وتقدم لهم كل عون ضد العدوان الأجنبى اذا ساعد العرب بريطانيا فى الحرب [١٧] . وكانت هذه البرقية الثانية من كتشنر الى ستورز فقد سبقتها برقيته الأولى فى ٢٤ سبتمبر ١٩١٤ ، ومن ثم بعث ستورز رسولا اسمه على البزاز يحمل توجيهات كتشنر الى الشريف حسين ، الذى لم يعد بريطانيا شيئا ولم يقطع علاقاته بتركيا[١٨] . وتسلم الرسالة الأمير عبد الله وكان نصها :

« الى الشريف عبد الله بك . .

بما أن الدولة العثمانية قد ضربت بصداقتها التقليدية مع بريطانيا العظمى عرض الحائط وانضمت الى صفوف أعداء بريطانيا الألمان فان بريطانيا ترى نفسها فى حل من تلك التقاليد التى كانت تربطها بتركيا من القديم فهل أنتم وسمو والدكم المعظم على رأيكم الأول فى

---

(١٦) أمين سعيد ، المصدر نفسه ص ١٢٦
(١٧) Storrs, The Memoirs . p. 166.
(١٨) Storrs, Op. cit., pp. 163, 165, 166.

القيام بما يؤول الى استقلال العرب استقلالا تاما ؟ فان كنتم وسموه على ذلك الرأى الى الآن فان بريطانيا العظمى على استعداد لامداد الحركة العربية بكل ما هى فى حاجة اليه »[١٩] .

بعد هــذا الاتصال التمهيدى بفترة تقرب من ستة أشهر بدأت مراسلات « حسين ــ ماكماهون » عندما بعث الشريف حسين الى هنرى ماكماهون معتمد بريطانيا فى القاهرة رسالة مؤرخة فى ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ ومعها رسالة شخصية من الأمير عبد الله الى ستورز تطالب بتأييد بريطانيا لاستقلال العرب وتقترح حدودا معينة للدولة العربيــة المستقلة ومن ناحية أخرى أذنت الحكومة البريطانية لحاكم عام السودان فى ابريل عام ١٩١٥ أن يعلن أن بريطانيا سوف تشترط فى معاهدة السلام بقاء الجزيرة العربية والأماكن الاسلامية المقدسة فى يد دولة مستقلة ذات سيادة[٢٠] .

لقد كانت الرســالة الأولى المؤرخة ٢٨ رمضــان سنة ١٣٣٣ هـ (١٤ يوليو سنة ١٩١٥ م) من الشريف حسين الى هنرى ماكماهون واضحة فى تحديد الأهداف العربية وحرص العرب على الفوز بحريتهم المطلقة ومطالبة بريطانيا أن تعترف « باستقلال البــلاد العربية من مرسين ــ أدنة حتى الخليج الفارسى شمالا ، ومن بــلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا ــ يستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هى ــ ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غربا على أن توافق انجلترا أيضا على اعلان خليفة عربى على المســلمين »[٢١] .

وردا على هــذه الرسالة استهل ماكماهون رسالته الى الشريف

---

(١٩) مذكرات الملك عبــد الله ، الطبعة الثانية ، عمان ، الأردن ، ١٩٤٧ ص ١٣٨

(٢٠) Storrs, op. cit., p. 166.

(٢١) جامعة الدول العربية : الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين القاهرة ، ١٩٥٧ ــ المجموعة الأولى (١٩١٥ ــ ١٩٤٦) وثيقة رقم (١) من الشريف حسين الى السير هنرى ماكماهون ص ٧ ــ ٨

حسين المؤرخة ١٩ شوال ١٣٣٣ هـ (٣٠ أغسطس ١٩١٥ م) بهذه المقدمة :

« الى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل والمبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين » ثم خلص الى لب الموضوع فأوضح لشريف مكة أن بريطانيا ترحب باسترداد الخلافة الى يد عربى صميم « من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة » ولكنه اعترض من أول وهلة على الحدود التى اقترحها الشريف حسين فى رسالته المؤرخة ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ للدولة العربية المستقلة(٢٢) وكانت تلك الحدود طبقا لما جاء من الهيئة المركزية لحزب العربية الفتاة (٢٣) فى سوريا . وقد كان ماكماهون حذرا فى تقديم اعتراضه لأنه اكتفى فى تلك المرحلة بتوجيه نظر الشريف حسين الى أن مسألة الحدود سابقة لأوانها « وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها وتصرف الأوقات سدى فى مثل هذه التفاصيل فى حالة أن الحرب دائرة رحاها ولأن الأتراك أيضا لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالا فعليا » (٢٤) .

لم يقبل الشريف حسين تحفظ ماكماهون حول مسألة الحدود ، بل أكد له فى رسالته الثانية (٢٩ شوال ١٣٣٣ هـ — ٩ سبتمبر ١٩١٥ م) أن الحدود المقترحة هى مطالب شعب أجمع على أن حياته فى تلك الحدود(٢٥) لكن ماكماهون أصر على تحفظات حكومته وذكر للشريف حسين أن مرسين واسكندرونة وبعض الأقسام السورية الواقعة غربى دمشق وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال عنها انها عربية محضة وأنه يجب أن تستثنى من الحدود المقترحة وأن بريطانيا مستعدة — على أساس هذه

---

(٢٢) المصدر نفسه ، الوثيقة الثانية ص ٩

(٢٣) مذكرات الملك عبد الله ص ١٣٩

(٢٤) جامعة الدول العربية : المصدر نفسه ص ٩

(٢٥) أمين سعيد : المصدر نفسه ص ١٣٣ — ١٣٤

التعديلات ـــ أن تعترف باستقلال العرب وتقدم لهم المســاعدة فى حدود اقتراحات شريف مكة[٢٦] وعلى أن يكون ذلك فى الأراضى التى تستطيع انجلترا العمل فيها بحرية دون أن توقع ضررا بحليفتها فرنسا !! اننا نلمح فى تحفظات ماكماهون ما ينبىء عن أمر خطير تضمره بريطانيا ولا تود أن تبوح به فى ذلك الوقت وقد وضح فيما بعد أن هــذا الأمر هو تقسيم الأراضى العربية بين بريطانيا وحليفتها فرنسا وفقا لاتفاق « سايكس ـــ بيكو » ووعد بلفور باتخاذ فلسطين وطنا قوميا لليهود فكان ـــ كما وصف بحق ـــ وعد من لا يملك لمن لا يستحق ، ولكن هذه الحقائق المذهلة ظلت حتى سنة ١٩١٧ سرا دفينا عن شريف مكة الذى قبل أخيرا تعديلات ماكماهون واعترف بأنه تساهل فى قبولها لتجنب كل ما من شأنه أن يسىء الى تحالف انجلترا وفرنسا والاتفاق المعقود بينهما[٢٧] . وفي آخر رسالة من ماكماهون الى الشريف حسين ، مؤرخة فى ١٠ مارس سنة١٩١٦أبلغ المندوب السامي البريطاني شريف مكة «أن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم» . (على أساس التعديل)[٢٨] وفى ١٠ يونيو سنة ١٩١٦ أعلن الشريف حسين الثورة على الدولة العثمانية وأطلق بنفســه الرصاصة الأولى على قلعــة الأتراك فى مكة ايذانا باعلان الثــورة[٢٩] .

لم يكن الخلاف بين العرب وبريطانيا على حدود الدولة العربية المستقلة يدور حول مسألة شكلية وما كان خلافا على التفاصيل كما زعم ماكماهون فى احدى رسائله ولكنه اختلاف فى المبدأ والأهداف : العرب يتحدثون عن حرية مطلقة ودولة عربية شاملة تستظل بخلافة عربيــة ، وبريطانيا تظهر عطفا على العرب وتخفى نواياها فيما تعتزم القيام به

---

(٢٦) من ماكماهون الى الشريف : القــاهرة ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ م / ١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ هـ ، أمين سعيد : المصدر نفسه ص١٣٦ .

(٢٧) من الشريف الى ماكماهون : مكة : ٢٥ صفر ١٣٣٤ هـ/ أول يناير ١٩١٦ ، أمين سعيد : المصدر نفسه ص ١٤١ ـــ ١٤٢

(٢٨) من ماكماهون الى الشريف ، ١٠ مارس ١٩١٦ ، أمين سعيد : المصدر نفسه ص ١٤٣

(٢٩) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٢٩

رعاية لمصالحها فى الشرق الأوسط والهند وحرصا على مصلحة حليفتها فرنسا ، وعندما تتحدث عن عونها للعرب فان حديثها يتسم بالغموض .

كان العرب يتطلعون الى التحرر واحياء الخلافة فى دارهم بينما كانت بريطانيا تخطط لاحتواء الحركة العربية الوليدة وتحديد مسارها . كانت مهمة ماكماهون فى مصر غداة اندلاع الحرب العالمية الأولى العمل على عزل العرب عن تركيا[٣٠] التى استنفرت العالم الاسلامى للجهاد ضد الحلفاء ووضعت بريطانيا فى قفص الاتهام بأنها تعادى المسلمين وتحتل ديارهم . ومن السخرية أن تكون الحكومة التى حرضت العالم الاسلامى على الجهاد هى حكومة الأتراك الاتحاديين ، حكومة أنور باشا ، ولكن لم يكن فى وسع بريطانيا أن تتجاهل هذه الدعوة الخطيرة ، لأن مركزها فى مصر والهند كان مبعثا للحرج . انها تخشى غضبة ستين مليونا من المسلمين فى الهند[٣١] وتحذر عطف دعاة الوحدة الاسلامية فى مصر وتأييدهم لدولة الخلافة العثمانية ، وفى رأى ستورز أن مخاوف بريطانيا من الوحدة الاسلامية كان لها أساس من الحقيقة حتى اندلاع الحرب[٣٢] . هذا وكانت المقترحات لتشجيع الشريف حسين على الانفصال عن الدولة العثمانية تغمر وزارة الخارجية البريطانية عن طريق اللورد كرومر من ريجنالد وينجت فى الخرطوم[٣٣] وكلايتون فى القاهرة وكان وزير خارجية بريطانيا لورد كيرزون فى ربيع سنة ١٩١٥ يبدى ارتيابه فى جدوى تلك المقترحات ولكن ممثلى الحكومة البريطانية كانوا يعدون أنفسهم لمواجهة شعور عدائى واسع النطاق فى العالم الاسلامى نتيجة اعلان الجهاد من جانب تركيا وما قد ينجم عن ذلك من

---

(٣٠) Elie Kedourie, The Chatham House Version and other Middle Eastern Studies, London, 1970, p. 14.

(٣١) Storrs, op. cit. p. 92.

(٣٢) Storrs op. cit. p. 92.

(٣٣) Kedourie, op. cit. p. 14, Quoting Wingate Papers, File 141/4 .

نتائج فى مجال الأمن الداخلى والعمليات الحربية[٣٤] ومن ثم كانوا يسعون الى احداث انقسام فى الصف الاسلامى ، وتشجيع شريف مكة على الثورة ضد دولة الخلافة كان خطوة هامة فى تحقيق ذلك الانقسام وكان كلايتون ووينجت يؤكدان للدوائر البريطانية المعارضة فى لندن والهند أن الحسين بن على يتمتع بنصيب وافر من مقومات الخلافة وأنه أصلح من يقوم بهذه المهمة ، بل كان وينجت يرى أن مشروع الوحدة العربية فى ذلك الوقت يصلح ترياقا مضادا لدعوة الوحدة الاسلامية التى كانت تقودها الامبراطورية العثمانية[٣٥] وأن الحركة العربية من شأنها أن تحفظ توازن القوى فى قلب العالم الاسلامى وكان وينجت يتصور أنه فى الامكان اقامة اتحاد للدول العربية شبه المستقلة تحت رقابة أوروبية وحماية بريطانية •

وكان المسئولون البريطانيون فى الهند يخشون عاقبة احياء الخلافة فى العالم العربى أو تكوين اتحاد عربى ، ولكن وينجت — يؤيده كلايتون — كان يرد على أولئك المتشككين بأنه لا ضرر من قبول مقترحات الشريف حسين ، فاذا وئدت الدولة العربية فى مهدها فان كافة الوعود البريطانية تسقط تلقائيا ، واذا تحققت الفكرة فان لديهم من الضمانات الكافية ما يجعلهم قادرين على كبح جماح الدولة الجديدة وتفتيتها حتى لا تتحول الى مصدر للخطر الذى تخشاه حكومة الهند[٣٦] •

ومن الوجهة الاستراتيجية ، كان ممثلو بريطانيا فى الشرق الأوسط (القاهرة) يدركون أن الثغرة التى يستطيع الأتراك أن ينفذوا منها لتهديد مصر — وقطع شريان مواصلات الامبراطورية البريطانية — هى صحراء سيناء ، لأن حدود مصر الشمالية من ناحية البحر المتوسط كانت آمنة لتفوق بريطانيا فى السيطرة على البحار ، وكانوا يدركون أيضا أن الوسيلة الوحيدة للعبور تجاه مصر من الحدود الشرقية هى سفينة

---

(٣٤) Kedourie, op. cit. p. 16.

(٣٥) Kedourie, op. cit. p. 17, Quoting Wingate Papers, File 139/6 .

(٣٦) Kedourie, op. cit. pp. 18 , 19.

الصحراء (الجمال) ، وأن عرب الحجاز هم أقدر الناس على تعبئة قوافل الصحراء وأساطيلها[٣٧] ، ومن هنا كان اهتمامهم بحياد الجزيرة العربية فى الحرب ، اذا تعذر ادخالها فى تحالف مع بريطانيا ضد تركيا .

ويبدو أن الدوائر السياسية فى لندن اقتنعت بوجهة نظر ممثليها فى القاهرة لتأييد الحركة العربية باعتبارها حركة قومية لا اسلامية على أساس أن الحركة القومية أقل خطرا من الحركة الاسلامية[٣٨]، ومع أن تأييد بريطانيا للحركة العربية كان محدودا فانها تدافع عن موقفها ازاء الشريف حسين وتبرىء نفسها من تهمة الحنث بعهودها ، وفى هـذا الصدد يؤكد وينجت أنه لم يكن مؤمنا بقيام مملكة عربية موحدة بقيادة الشريف حسين وأن أية فكرة من هـذا النوع كانت بعيدة كل البعد عن تفكيره ، ويقول انه حتى اذا تمت الموافقة على كافة الادعاءات الفرنسية فى سـوريا فانه لا يمكن اتهام بريطانيا بأنها نقضت عهدها مع الشريف حسين بدرجة خطيرة[٣٩] ، ويقول كلايتون انهم كانوا حريصين ألا يلزموا أنفسهم بشىء فيما يتعلق بمطالب الشريف حسين . ويدلى د.ج. هوجارث مدير المكتب العربى التابع للجيش البريطانى فى القاهرة بعد ذلك بفترة ، أنه لم يكن هنـاك سوى عدد قليل يعتقد أن الشريف كان المتحدث باسم أمه عربية متحدة توشك أن تنهض من أنقاض الحرب وأنه لم يكن لديهم اعتقاد بأن هـذه الدولة ستقوم سواء أكانت برئاسة الشريف أم بزعامة غيره ومن ثم فانهم لم يتقدموا بأية ضمانات واضحة ولا بوعد للشريف أو لعربى غيره وأن الوعدة الوحيد الذى قطعوه هو تحرير جزيرة العرب من الأتراك[٤٠] .

أما ستورز فانه يعلن «أن الشريف حسين وأهل الحجاز كان يكفيهم خروج الأتراك من بلادهم وحصولهم على ضمانات ضد العدوان الخارجى على أماكنهم المقدسة (مكة والمدينة) مع استقلال موطنهم الأصلى

---

(٣٧) Storrs, op. cit. p. 162.
(٣٨) Kedourie, op. cit. p. 20.
(٣٩) Kedourie, op. cit., p. 22.
(٤٠) Kedourie, op. cit. p. 22.

وهو الحجاز فاذا شاءوا أن يسموا هــذه الرقعة وهــذه الدولة «خلافة» فهذا شأنهم وحدهم ، ولكن الشريف كان على صلة — عن طريق ابنه فيصل — بالثوار فى سوريا وكان يتطلع الى رياسة مملكة عربية شاملة وهو يعلم أنه لا حق له فى هــذا[41] .

من هذا المنطق كانت بريطانيا لا ترى فى مراسلات « حسـين — ماكماهون » ما يحول بينها وبين اتفاق مع فرنسا على تقسيم الشرق العربى بينهما الى مناطق للنفوذ المباشر ومناطق للتسلط السـياسى والاقتصادى ، بل لم تكن ترى ما يمنعها من النظر فى أمر اقتطاع فلسـطين من الوطن العربى لتصبح فى المستقبل القريب وطنا قوميا لليهود ، ولكنها لم تجرؤ على اعلان موقفها هــذا لقادة الأمة العربية آنذاك بل وجدت فى تلهى العرب بوعود ماكماهون شاغلا لهم طوال فترة الحرب ، ومن ثم بدأت خلال شــهرى ابريل ومايو سنة ١٩١٦ المحادثات السرية بــين بريطــانيا وفرنســا وروســيا وكانت نتيجتها اتفــاق «سايكس — بيكو»[42] الذى قام على مبدأ تصفية الامبراطورية العثمانية وقسمت بمقتضاه الأقطار العربية فى الهلال الخصيب بين بريطانيا وفرنسا فكان نصيب فرنســا منطقة رمز اليها باللون الأزرق شــملت الشريط الساحلى لسوريا بما فى ذلك لبنان حيث خولت فرنســا سلطة انشــاء ادارة مباشرة أو غير مباشرة ومنحت منطقة نفوذ داخل سوريا (حرف أ) شملت دمشق وحمص وحماة وحلب . أما بريطانيا فكــان نصيبها منطقة ما بين النهرين فى العراق وحيفا وعكا على البحر المتوسط وهى ما رمز اليها باللون الأحمر ، ولبريطانيا أن تقيم فيها ادارة مباشرة أو غير مباشرة بالاضافة الى منطقة نفوذ (حرف ب) داخل العراق .

---

(٤١) Storrs, op. cit., p. 167.

(٤٢) انظر النص الكامل للاتفاق فى :

E. L. Woodward and R. Butler

Documents on British Foreign Policy, First Series, 1919 — 1939, H. M. S.O., London, 1952 Volume 4, pp. 246 - 251.

وانظر أيضا : جامعة الدول العربية الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين وثيقة رقم (٢٣) ص ٨٤ — ٨٦ .

ومما نص عليه الاتفاق تأسيس دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربيـة تخضع لرئيس عربي فى منطقتى (أ،ب) على أن يكون لفرنسا نفوذ مماثل فى منطقة (ب) وانشـاء دولة فى المنطقة ذات اللون الأسمر (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسـيا وبقية الحلفاء وشريف مكة •

وصف أنتونى ناتنج[٤٣] اتفاق « سايكس — بيكو » بأنه كان وثيقة مخجلة « لأن بريطانيا ما كادت تنهى محادثاتها مع شريف مكة حتى شرعت فى محادثات سرية مع فرنسـا تستهدف تحقيق مطامع الدولتين فى الهلال الخصيب باقتسام سوريا والعرق ، ولمـا تمضى ستة أسابيع على آخر رسـالة من ممثل بريطانيا فى مصر هنرى ماكماهون الى الشريف حسين» ويستطرد ناتنج قائلا « ان بريطانيا أخفت أنباءالاتفاق عن الشريف حسين مع أن سايكس وبيكو زاراه فى جدة بعد سنة من تاريخ توقيع الاتفاق[٤٤] وبعد أن كشف البلاشفة فى روسيا أمر الاتفاق (الذى أذاعه جمال باشا فى بيروت فى ديسمبر ١٩١٧) واستوضح شريف مكة بريطانيا حقيقة الأمر ، أصدر آرثر بلفور وزير الخارجيـة البريطانى توجيهاته الى وينجت فى القاهرة أن ينقل الى الشريف حسين أن الأتراك هم الذين شوهوا الغرض الحقيقى للاتفاق وأغفلوا النصوص الخاصة باستطلاع رأى الشعوب التى يعنيها الأمر ورعاية مصالحها » ويعلق ناتنج على هذا التعبير بأنه كان محض اختلاق « وأن بلفور كذب على الشريف حسين الذى أحسن الظن بوزير خارجية بريطانيا وصدقه فيما قال دون أن يطلب الاطلاع على نصوص الاتفاق ولو أنـه فعل ذلك لتبين له أن الاتفاق لم ترد فيه كلمة واحدة عن موافقة الشعوب التى يعنيها الأمر أو استطلاع رأيها »[٤٥] •

---

(٤٣) Anthony Nutting أحـد رجال السياسة البريطانية ومن المهتمين بالدراسات والشئون العربية . كان وزير دولة للشئون الخارجية فى حكومة أنتونى ايدن سنة ١٩٥٦ وقد استقال منها على أثر غزو بريطانيا لمنطقة قناة السويس بالتضامن مع فرنسا واسرائيل فى أوائل نوفمبر ١٩٥٦ ، بعد تأميم الشركة العالمية لقناة السويس فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦

(٤٤) Anthony Nutting, The Arabs , A Mentor Book, New York 1964 , p. 290.

(٤٥) Nutting , op. cit, p. 291 .

وكان من المسائل التى ذكرها وينجت دفاعا عن موقف بريطانيا وحفاظا على ماء وجهها أن الوثائق التى نشرت لم تكن اتفاقا مبرما ، ثم ذكر أن الوضع السياسى تغير تغيرا تاما بعد انفجار الثورة العربية والنجاح الذى حققته وبعد انسحاب روسيا من الحرب ، وقد فسر بيان وينجت بأن بريطانيا أصبحت على استعداد لعدم اتخاذ اتفاق « سايكس — بيكو » أساسا للتسوية الاقليمية بعد نهاية الحرب[٤٦] غير أن الدكتور محمد أنيس لا يرى خلافا أساسيا بين اتفاق بريطانيا مع حلفائها « سايكس — بيكو » وبين اتفاق « حسين — ماكماهون » وهو لا يوافق بعض المؤرخين الذين يتهمون السياسة البريطانية بأنها كانت تخدع العرب من البداية بأن تعقد مع الشريف حسين اتفاقا تعلم مقدما أنها لن تنفذه بسبب اتفاقها مع حلفائها فيقول « والذى يجب أن نؤكده هنا أن السياسة البريطانية كانت ترحب بالفعل بخلق دولة عربية كبرى فى المنطقة شريطة أن تخضع للنفوذ البريطانى وهو أمر ارتضاه زعماء العرب فى ذلك الوقت » [٤٧] وقد يكون وصف الدكتور أنيس صحيحا لسياسة بريطانيا فيما يتعلق بالدولة العربية وفقا لما جاء فى رسائل ماكماهون ، ولكن تأكيده أن زعماء العرب وافقوا منذ البداية على تلك السياسة لا يخلو من افراط فى التعميم وتجاهل لبعض الحقائق كما أنه ينطوى على نوع من الظلم لقادة الأمة العربية فى ذلك الوقت . اننا لا نجد فى رسائل الشريف حسين الى ماكماهون ما يؤيد رأى الدكتور أنيس فى هـذا الصدد وليس هناك قط ما يثبت أن زعماء العرب وافقوا من البداية على خلق دولة عربية خاضعة للنفوذ البريطانى دع عنك خضوعها للاحتلال الفرنسى واقتطاع فلسطين من الوطن العربى بل ان التصريحات التى أدلى بها ممثلو بريطانيا فى الشرق الأوسط والذين أغروا الشريف حسين بالثورة — وينجت وكلايتون وستورز — لتدل دلالة واضحة على أنهم رفعوا شـعار الدولة العربية المستقلة وهم لا يؤمنون بها فى قرارة أنفسهم ولا يجدون الشجاعة الكافية للجهر بما يضمرون أمام قادة

---

(٤٦) P. M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, Longmans, London, 1966, p. 275.

(٤٧) محمد أنيس ، المصدر نفسه ص ٢٧٥

الأمة العربية ، بينما كانوا فى الوقت ذاته يؤكدون لرؤسائهم فى لندن أن لديهم من الضمانات ما يجعلهم قادرين على كسر شوكة هـذه الدولة اذا اتضح أنها تمثل خطرا حقيقيا على مصلحة بلادهم • أما اذعان العرب وارغامهم من جانب بريطانيا وحلفائها بعد نهاية الحرب على قبول التسوية التى أخضعت بلادهم للنفوذ البريطانى الفرنسى الاسرائيلى، فان ذلك تم عن طريق القوة والاكراه والتهديد لا عن رضا واختيار من جانب زعماء العرب •

لقد كان اتفاق «سايكس — بيكو» بمثابة انذار للأمة العربية ألا تسرف فى الآمال المعقودة على الوعود البريطانية كما وردت فى رسائل ماكماهون ولكن قادة العرب لم يفقدوا بعد ثقتهم فى بريطانيا وظلوا يأملون أن تعيد النظر فى سياستها وتحترم كلمتها ، ولكن بريطانيا رأت أن تشغل العرب بمزيد من الوعود[٤٨] خلال عام ١٩١٨ بعد أن سددت اليهم ضربة أخرى باصدار وعد بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ وهو كتاب موجه من آرثر بلفـور وزير خارجيـة بريطانيا نيابة عن حـكومته ، الى لورد روتشيلد[٤٩] وقد جاء فيه :

« عزيزى لورد روتشيلد ••

يسرنى جـدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته التصريح التالى الذى ينطوى على العطف على أمانى اليهود الصهيونية وقد عرض على الوزارة وأقرته :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هـذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى

---

(٤٨) انظر : جامعة الدول العربية ، الوثائق الرئيسية فى قضـية فلسطين ص ٧٧ — ٨٣ وثائق رقم ١٧ ملحق « و » ، ٢٠ ملحق « ز » — ٢٢ ملحق « ط » وملحق « د » •

(٤٩) Stein, The Balfour Declaration p. 548.

فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يستمتع به اليهود فى البلدان الأخرى » •

كان اصدار وعد بلفور تتويجا لجهود قادة الحركة الصهيونية فى لندن ومانشستر [٥٠] بقيادة حاييم وايزمان وقد رأينا أن التمهيد لوعد بلفور بدأ من شهر نوفمبر سنة ١٩١٤ فى رسالة «C.P. Scott» الى لويد جورج التى ربطت بين مصلحة الصهيونية والمصالح البريطانية ممثلة فى حمايه قناة السويس ولكن النشاط الحقيقى لقادة الصهيونية فى سبيل الحصول على وعد رسمى بدأ منذ مطلع عام ١٩١٦ عندما كونت أول لجنة رسمية فى يناير ذلك العام من وايزمان وسوكولوف وجوزيف كوين ودكتور جاستر وهربرت بنتونتش بالتعاون الوثيق مع أسرة روتشيلد وهربرت صمويل وأحد هاعام[٥١] وتلا ذلك نشاط صهيونى على كافة المستويات امتد الى بداية سنة ١٩١٧ وكان من نتائجه مذكرة اللجنة الصهيونية التى قدمها وايزمان الى السير مارك سايكس للحصول على اعتراف رسمى من الحكومة البريطانية بالجالية اليهودية فى فلسطين مع ايضاح أن المقصود بالجالية السكان اليهود المقيمين فى ذلك الوقت والمهاجرين الذين يلحقون بهم فى المستقبل ثم توالت الاتصالات مع المسئولين البريطانيين وحكومات أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية لاصدار وعد بلفور على النحو الذى سيرد تفصيله فى الحديث عن الصهيونية وهكذا وجدت الأمة العربية نفسها بين شقى الرحى فى عام ١٩١٩ ، بين زحف فرنسى مسلح يوشك أن يبدأ لاحتلال سوريا تنفيذا لاتفاق «سايكس — بيكو» وزحف صهيونى محسوب الخطى لاحتلال فلسطين فى المدى البعيد ، تنفيذا لوعد بلفور • أما شعب فلسطين فقد أطلق عليه اسم «الطوائف غير اليهودية» التى لن تضار حقوقها المدنية والدينية وهذا يعنى أنه لا مجال للحديث عن الحقوق السياسية للشعب العربى فى

---

(٥٠) انظر : أسعد رزوق ، اسرائيل الكبرى ، منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث بيروت ١٩٦٨ ص ٢٢٢ — ٢٣١

(٥١) Chaim Weizmann, Trial and Error, Hamish Hamilton, London 1950, p. 233.

فلسطين وهو صاحب الكثرة العددية الساحقة آنذاك وصاحب الأرض التى يراد انتزاعها لتنتقل ملكيتها الى القلة الوافدة من اليهود[٥٢] !!

وبعــد أن لاحت تباشير الســلام باعلان الهــدنة مع ألمــانيا (نوفمبر ١٩١٨) تعلقت آمال الأمة العربية بمؤتمر الصلح الذى عقد جلسته الأولى فى باريس فى ١٨ يناير سنة ١٩١٩ واستقبل العالم فى تفاؤل وثقة بيان الرئيس الأمريكى ودرو ويلسون الذى أعلن فيه شروطه الأربعة عشر فى ٨ يناير سنة ١٩١٩ لاقرار السلام العالمى[٥٣] ، على أساس من الاحترام لحرية الشعوب ونبذ الدبلوماسية التى تعمل فى الظلام (المعاهدات السرية) ، وكانت الأمة العربية أكثر تفاؤلا لأن جيشها المظفر شارك الحلفاء فى اجلاء ما تبقى فى الجزيرة العربية من فصائل الجيش التركى المندحر وزحف الأمير فيصل على رأس جيش التحرير صوب سوريا فدخل دمشق[٥٤] فى مطلع أكتوبر سنة ١٩١٨ فاستقبله الشعب والأعيان والعلماء استقبالا حاراً ثم أعلن تشكيــل الحكومة السورية فى ٥ أكتوبر سنة ١٩١٨ « حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالا مطلقا لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية »[٥٥] وتوجهت القوات العربية لتحرير الأجزاء الأخرى فى سوريا الشمالية فدخل الجيش العربى حلب بقيادة نورى السعيد فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٨ وبعد وصول فيصل مدينة حلب فى ٦ نوفمبر

---

(٥٢) أجرت حكومة الانتداب البريطانى فى فلسطين تعدادا للسكان فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ وقسمت السكان الى طوائف دينية فكان عدد اليهود وفقا للتعداد ٨٣٫٧٩٠ وعدد أفراد الطوائف غير اليهودية ٦٦٨٫٢٥٨ منهم ٥٨٩٫١٧٧ مسلمون و ٧١٫٤٦٤ مسيحيون و ٧٫٦١٧ ينمون الى طوائف أخرى وجملة عدد السكان ٧٥٢٫٠٤٨ انظر : - Palestine Royal Commission Memoranda Prepared by the Government of Palestine, H. M. S. O. London, 1937, p. 2.

(٥٣) David Thomson, Europe Since Napoleon Sec. Ed. Longmans, 1963, pp. 575 - 593.

(٥٤) راجع قصة دخول دمشق فى :
E. Kedourie, op. cit. pp. 33 - 47.

(٥٥) البلاغ الرسمى بتوقيع الشريف فيصل فى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣٣٦ هـ الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٩١٨ ، أمين سعيد : المصدر نفســه ج ٢ ص ٢ — ٣

١٩١٨ صدر التصريح «البريطاني — الفرنسي» وأشاد فيصل بهذا التصريح فى خطاب وجهه الى أهل سوريا ، وكان مما ورد فى ذلك التصريح :

« ان الغرض الذى ترمى اليه فرنسا وبريطانيا العظمى من نهجهما فى الشرق فى الحرب التى أثارتها أطماع ألمانيا هو التحرير التام النهائى للشعوب التى طال اضطهاد الترك لها واقامة حكومات وادارات قومية تستمد سلطتها من الاختيار الحر والارادة المستقلة للأهالى الوطنيين »[٥٦] .

وأخطرت الحكومة العربية فى دمشق جميع المدن السورية أنها تسلمت مقاليد السلطة فى البلاد وتم تعيين شكرى باشا الأيوبى حاكما عاما على بيروت ولبنان ولكن شبح اتفاق «سايكس — بيكو» أخذ يلوح فى الأفق عندما أنشأ المارشال اللنبى قائد القوات البريطانية (الحملة المصرية) فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩١٨ ثلاث مناطق ادارية فى سوريا فسميت فلسطين غربى نهر الأردن أرض العدو المحتلة الجنوبية Occupied Enemy Territory (South) وأطلق على لبنان والشريط الساحلى شمال فلسطين اسم أرض العدو المحتلة الغربية «O.E.T. West» وما تبقى من المناطق الداخلية لسوريا وشرق الأردن سميت أرض العدو المحتلة الشرقية[٥٧] «O. E. T. East» .

أثار تحرك الجيش العربى فى الأجزاء الشمالية الساحلية من سوريا قلق فرنسا التى أخذت تطالب بنصيبها من الأسلاب فى الهلال الخصيب استنادا الى اتفاق «سايكس — بيكو» ، فطالبت باحتلال دمشق واحتجت على تعيين شكرى الأيوبى حاكما على بيروت بل غزت القوات الفرنسية بيروت فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ وأنزلت العلم العربى ثم واصلت زحفها فاحتلت اللاذقية واسكندرونة وأنطاكية[٥٨] .

---

(٥٦) جامعة الدول العربية ، المصدر نفسه وثيقة رقم ٢٢ ملحق « ط » ص ٨٣

(٥٧) Holt, op. cit. p. 280.

(٥٨) أمين سعيد ، المصدر نفسه ص ١٣

كانت هـذه التطورات مقدمات لما ينتظر الأمة العربيـة من مواجهات خطيرة فى الجبهة السورية ، وفى الوقت ذاته اكتمل الاعداد لمؤتمر الصلح فى باريس واجتمع لويد جورج وكليمنصو فى لندن فى الأيام الأولى من شـهر ديسمبر سنة ١٩١٨(٥٩) لتنسيق سياستهما فى مؤتمر الصلح وكانت نتيجة اللقاء اتفاق الدولتين — بريطانيا وفرنسا — على تعديل اتفاق «سايكس — بيكو» لمصلحتهما ومصلحة الصهيونية فتم التخلى عن فكرة تدويل فلسـطين واعترفت بريطانيا بتأييد المطامـع الفرنسـية (أو ما سمته بالحقوق الفرنسية)(٦٠) فى سوريا وكيليكيا وذلك فى مقابل أعتراف فرنسا بسلطة بريطانيا على الموصل فى العراق وعلى فلسطين وهـذا الاتفاق يعنى أن الطريق أصبح ممهدا لتقرير مصير الأقاليم العربية فى الهلال الخصيب فى مؤتمر الصلح وفقا لنظام الانتداب الذى ابتدع فى أعقاب الحرب بموجب المـادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم (والميثاق جزء من معاهدة فرساى) • ويعتبر الانتداب تجربة جديدة فى تحديد علاقات الدول الحاكمة بالشعوب المحكومة وهو فى جوهره محاولة للتوفيق بين مطامع الدول المنتصرة وآمال الشـعوب المغلوبة على أمرها التى وعدها الحلفاء حق تقرير المصير عندما كانت رحى الحرب دائرة • أما بالنظر للأقاليم العربية التى فرض عليها هـذا النظام (سـوريا — العراق — فلسـطين) فهو لا يعدو أن يكون تقنينا للاحتلال البريطانى والفرنسى وتمهيـدا لاقامة الوطن اليهودى فى فلسطين • واطلاق يد بريطانيا فى فلسطين بموافقة فرنسا كان يعنى أن الصعاب أمام انشاء الوطن القومى لليهود — على الصـعيد الأوروبى — قد ذللت تماما ، ومع أن الرئيس الأمريكى ويلسون لم يكن يعطف كثيرا على مساعى بريطانيا وفرنسا لتأمين مصالحهما فى الهلال الخصيب فانه كان ملتزما بتحقيق مطامع الصهيونية فى فلسطين

---

(٥٩) Holt op. cit. p. 280 - 281.

(٦٠) Holt op. cit, p. 281.

بحــكم صلته الوثيقة ببراندايس وفرانكفورتر[٦١] . لقد تعلقت آمال العرب بمؤتمر الصلح وكان يضم ممثلين لستة وثلاثين دولة ، ولكن المؤتمر لم يكن يملك من الأمر شيئا لأن القرارات الحقيقية كانت تصدر من الثلاثة الكبار[٦٢] ، ودرو ويلسون ولويد جورج وكليمنصو ، وهذا ما يفسر لنا موقف المؤتمر من القضية العربية فى مصر والهلال الخصيب وهو موقف أقل ما يوصف به أنه لم يراع مقتضيات العدل والانصاف.

توجه الأمير فيصل الى باريس لاقناع المؤتمر بعدالة القضــية العربية فوصل مرسيليا فى ٢٦ نوفمبر عام ١٩١٨ ليواجه اعتراض فرنسا التى أعلنت أنها لا تعترف به حتى بصفته ممثلا لوالده الشريف حسين ، ملك الحجاز ، فكان ذلك ارهاصا لمواجهة دبيلوماسية تنتظر العرب على الساحة الأوروبية ، ولم يجد فيصل بدا من الذهاب الى لندن والعودة الى باريس فى ٦ يناير سنة ١٩١٩ بعد أن خففت فرنسا من غلوائها استجابة لضغط الحكومة البريطانية وسمح له بحضور المؤتمر فقــدم مذكرة فى ٢٩ يناير ١٩١٩ طالب فيها بالاستقلال الكامل للعرب ووحدتهم فى الأقاليم السورية والاعتراف لهم بحق تقرير المصير استنادا الى التصريح البريطانى — الفرنسى (٧ نوفمبر ١٩١٨) وعزز هذه المطالب بخطبة أكثر تفصيلا ألقاها فى ٦ فبراير سنة ١٩١٩ . ثم تبادل أقطاب المؤتمر وجهات النظر وأيد الرئيس ويلسون اقتراحا يقضى بايفاد لجنة دولية الى الهلال الخصيب لتدريس الأوضاع عن كثب وتقف بنفسها على رغبات سكان المنطقة ولكن مهمتهما الأساسية كانت التقدم بتوصيات تســاعد على تحديد الدولة التى يتعين أن يســند اليها أمر الانتداب على فلسطين[٦٣] .

---

(٦١) فيلكس فرانكفورتر (١٨٨٢ — ١٩٦٥) . أحد اقطاب الصهيونية ومن اشــهر أساتذة القــانون فى جامعة هارفارد ، كان مستشارا للرئيس ويلســون فى مؤتمر الصلح وعضــو الوفد الصــهيونى الأمريكى لذلك المؤتمر . راجع :

The Universal Jewish Encyclopeadia, New York 1941, Volume 4 pp. 407 - 410 .

(٦٢) D. Thomson, op. cit. p. 580.

(٦٣) Walter Laqueur (Edt.) The Israel-Arab Reader, New York, 1971, p. 23.

وتمت الموافقة فى ٢٠ مارس سنة ١٩١٩ على تكوين اللجنة على نحـــو تمثل فيه كل من فرنســـا وبريطانيا وايطاليا والولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن فرنسا قاطعت تكوين اللجنة وتخلى لويد جورج عن تأييده للفكرة بعد أن وافق عليها من حيث المبدأ ولاذت ايطاليا بالصمت فكانت اللجنة التى تم تشكيلها فعلا أمريكية خالصة وهى اللجنة التى عرفت « بلجنـــة كنج ـــ كرين » المؤلفـــة من دكتور هنرى تشرشل كنج وشارلز ر. كرين .

وعاد فيصل الى دمشق فى ٣ مايو سنة ١٩١٩ واستقبلته الوفود العربية من كل صوب فحدثها عن جهوده فى مؤتمر الصلح وعن حسن نية الحلفاء ووجهت الدعوة لعقد المؤتمر السورى العام وانتخب ممثلو الشعب الســـورى لهذا المؤتمر وفقا لقانون الانتخاب التركى القديم بالنظر الى ضيق الوقت [٦٤] وجاء نواب الشعب من بيروت وطرابلس واللاذقية وفلسطين الى دمشق وافتتح المؤتمر رسميا فى يوم ٧ يونيو سنة ١٩١٩ وبدأ الاعداد لاستقبال اللجنة الدولية التى وصلت يافا فى ١٠ يونيو سنة ١٩١٩ واستمعت الى ممثلى المؤتمر السورى الذين نقلوا اليها فى صدق رغبة الأمة فى تحقيق الاستقلال التام ووحدة ســـوريا الشاملة ورفض الانتداب الفرنسى والمطالبة باستقلال العراق واعتبار فلسطين ولبنان جزءا لا ينفصم من الدولة العربية الســـورية والغاء المعاهدات السرية « سايكس ـــ بيكو » ورفض وعـــد بلفور ومطامع الصهيونية والهجرة اليهودية الى فلسطين .

وقد أبرق الجنرال كلايتون من القاهرة فى ٢٤ يونيو سنة ١٩١٩ الى كيرزون فى لندن ناصحا ألا ينشر أى قرار حول مستقبل الوضع فى سوريا وفلسطين الا بعد أن تقدم اللجنة الدولية تقريرها[٦٥] .

---

(٦٤) أمين سعيد ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٤٦

(٦٥) Woodward and Butler op. cit., p. 295 , No. 201, General Clayton (Cairo) to Earl Curzon (Received July, 1. 1919)No. E. A. 2555 Telegraphic [962 47 /2117 /44] Cairo, June, 24, 1919 .

وفى ٦ أغسطس ١٩١٩ تلقى كيرزون رسالة من الكولونيل فرينش فى القاهرة ينقل اليه النتائج والأفكار التى انتهت اليها لجنة « كنج — كرين » ويلخصها على النحو التالى :

١ — أن سوريا لن تقبل فرنسا باعتبارها دولة يسند اليها أمر الانتداب .

٢ — أن البرنامج الصهيونى لفلسطين لا يمكن تنفيذه الا بالقوة ضد رغبات السكان وذكرت اللجنة أنها لم تكن تدرك قبل مجيئها الى فلسطين مدى المعارضة التى تواجهها الصهيونية هناك من قبل السكان غير اليهود .

٣ — أن الرغبة العامة للسكان فى فلسطين هى الاتحاد مع سوريا[٦٦] .

مكثت اللجنة فى الشام نحو ستة أسابيع زارت خلالها عددا كبيرا من المناطق وتلقت ما يقرب من ألفى عريضة تؤيد المطالب العربية وعادت الى باريس وقدمت تقريرها الى مؤتمر الصلح فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩١٩ ولكن أقطاب المؤتمر غضوا الطرف عنه وظل دفينا حتى نشر للمرة الأولى فى نيويورك فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢[٦٧] .

وكان من أهم ما ذكرته اللجنة فى تقريرها أنها لا ترى سببا يحول دون اعتبار فلسطين جزءاً من دولة سورية موحدة ، شأنها فى ذلك شأن سائر الأجزاء الأخرى من الاقليم السورى ، على أن تخضع الأماكن المقدسة لاشراف لجنة دولية .

وبينما كان العرب فى سوريا يتطلعون الى وصول لجنة «كنج — كرين» الدولية كان فرانكفورتر فى باريس يحث الرئيس ويلسون على الاسراع

---

(٦٦) Woodward and Butler op. cit, pp. 315 - 316, No. (224) Colonel French (Cairo) to Earl Curzon (Received Aug 6 No. C.P. 311 [1125 76 /2117 / 44A] Cairo, July, 19, 1919.

(٦٧) Ceorge Antonius, The Arab Awakening Khayats, Beirut, 1938, p. 296.

أنظر النص الكامل لتوصيات لجنة « كنج — كرين » فى المصدر نفسه ص ٤٤٣ — ٤٥٨

بتسوية المسائل المعلقة فى الشرق الأوسط وجلب الاطمئنان لليهود باعادة فلسطين اليهم باعتبارها وطنهم الأصلى(٦٨) وقد رد الرئيس ويلسون على رسالة فرانكفورتر المؤرخة فى ٨ مايو سنة ١٩١٩ برسالة قصيرة تاريخها ١٣ مايو سنة ١٩١٩ ونصها :

« باريس — ١٣ مايو ١٩١٩

« عزيزى فرانكفورتر

« هـذا مجرد سطر لابلاغك أننى تسلمت كتابك الهام المؤرخ فى ٨ مايو ولأقول لك اننى أقدر الأمر كله أعمق التقدير لما ينطوى عليه من خطورة وأهمية »(٦٩) .

« المخلص ودرو ويلسون »

ولم يقتنع فرانكفورتر بكتاب الرئيس ويلسون ، لأنه يريد كلمة صريحة يلتزم فيها الرئيس الأمريكى بادراج وعد بلفور فى معاهدة الصلح والعمل على تنفيذه فورا ، فكتب اليه مرة أخرى رسالة مؤرخة فى ١٤ مايو سنة ١٩١٩ ختمها بقوله « أرجو أن تسمح لى أن أقترح عليك بث الطمأنينةفى نفوسنا بكلمة عدل وحكمة، مكتوبة أو مسموعة — رغم مافى ذلك من الحاح — بأنكم عازمون فى أدراج وعد بلفورفى معاهدة الصلح وأنكم تهدفون الى ترجمة هـذا الوعد الى عمل قبـل أن تغادروا باريس »(٧٠) .

ورد الرئيس ويلسون على هـذه الرسالة من باريس فى ١٦ مايو ١٩١٩ مخاطبا فرانكفورتر أنه — أى ويلسون — لم يكن يحلم بأن ثمة ضرورة لاصدار مزيد من التأكيد لالتزامه بوعد بلفور ، وقال ويلسونفى

---

(٦٨) Woodward and Butler, op. cit. Vol. 4, pp. 260 - 261 Mr. Franfurter to President Wilson, paris, May, 8. 1919 Encl. 1 in No. 180. Mr. Balfaur to Earl Curzon, No. 861|82739/1051/44| Paris, May, 31, 1919.

(٦٩) Woodward and Bultler op. cit. p. 261, President Willson to Mr. Franfurter, May, 13, 1919. تعريب المؤلف .

(٧٠) Woodward and Putler op . cit. p. 261. Mr. Franfurter to President Wilson, May, 14, 1919.

تلك الرسالة أنه لم يجد أحدا يعارض الغرض الذى ينطوى عليه وعـد بلفور معارضة خطيرة واختتم رسالته مؤكدا لفرانكفورتر أنه لا يرى سببا يبعث على تثبيط الهمم وأن لديه من الأساليب ما يجعله يأمل أنه من الممكن الحصول على ضمانات وافية فى هـذا الصدد(٧١) .

تلقى فرانكفورتر رد الرئيس ويلسون بالابتهاج والشكر وطلب منه أن يأذن له بعرض ذلك الخطاب على جميع من يهمهم الأمر وابراق براندايس بمحتوياته(٧٢) فأذن له فى رسـالة مؤرخة فى ٢١ مايو عـام ١٩١٩ وقع عليهـا جلبرت كلوس السـكرتير الخاص للرئيس ويلسـون(٧٣) .

ان الضمانات التى حصل عليها فرانكفورتر من ويلسـون حول وضع فلسطين ووعد بلفور تعنى أن اجماع الرأى العربى لم يعد له وزن فى هذه المسألة وأن فكرة ارسال لجنة « كنج — كرين » لتقصى الحقائق فى سوريا وفلسطين والعراق كان مقضيا عليها بالفشل منذ البداية ، وقد فطن لذلك الجنرال كليتون الضابط السياسى الأول الملحق بالحملة المصرية فى القاهرة عندما أبرق الى كيرزون فى وزارة الخارجية البريطانية فى أول يونيو سنة ١٩١٩ قائلا « انه تلقى أنباء من مسيو بيكو(٧٤) ومصدرها الدوائر الفرنسية الرسمية ، وأن بيكو أكد له صحتها ، تفيد أن العمل جار فى تقسيم سـوريا دون علم فيصل وأن اللجنـة الأمريكية « كنج — كرين » قادمة لتضليل فيصل ريثما يتم تقسيـم سوريا ، وأوضح كلايتون فى برقيته أن هذه الأنباء « اذا تحقق صدقها

---

(٧١) W. and Butler, op. cit. p. 262, Encl. 4 in No., 180. President Wilson to Mr. Franfurter, Paris, May 16, 1919.

(٧٢) Woodward and Butler op. cit. p. 262, Encl. 5 in No. 180, Franfurter to President Wilson, May, 20, 1919.

(٧٣) W. and Butler, op. cit., p. 262 Encl. 6 in, No. 180, Mr. Close to Franfurter, Paris, May, 21, 1919.

(٧٤) رئيس الادارة المدنية الفرنسية فى الاقليم السورى الساحلى الذى كان يعرف بأرض العدو المحتلة الغربية «O.E.T.W.» وهى المنطقة التى كانت من نصيب فرنسـا .

فانها فى رأى بيكو — وأنا أوافقه على ذلك — تمثل لعبة خطيرة ، لأن فيصل اذا علم أن مصير سوريا قد تقرر دون علمه وقبل أن تقدم اللجنة الدولية تقريرها فانه لا شك سوف يقوم بعمل عدائى »[٧٥] •

وكانت وزارة الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت تتلقى تقارير دقيقة عن الموقف الداخلى فى سوريا وفلسطين ومن تلك التقارير تقرير نائب الضابط السياسى الأول فى دمشق كورنواليس المؤرخ فى ١٦ مايو سنة ١٩١٩[٧٦] الذى وصف فيه الاجتماعات السياسية فى سوريا وفورة الحماس الوطنى للأمة والتفافها حول فيصل بعد عودته من باريس واصرار الشعب على الاستقلال ورفض التدخل الفرنسى ثم وصف اجتماع الوفود السورية التى بايعت فيصل فى ٩ مايو ١٩١٩ (ذكر أمين سعيد أن هـذا الاجتماع تم فى ٥ مايو ١٩١٩) وقد نقل كلايتون هـذه الصورة الى حكومته فى لندن ونصحها بل حذرها من انفجار الموقف اذا اتضح للشعب العربى — وهو مجمع على معارضة أى تقسيم للأقاليم العربية — أن مؤتمر الصلح قد اتخذ قرارا فى ذلك من قبل ، أو اذا كان الغرض من ارسال اللجنة الدولية ذر الرماد فى العيون ، ولكن المسئولين فى لندن وباريس لم يستجيبوا للنصح • كذلك أشار كلايتون فى تقريره الى أن أى قرار يتخذ بشأن مصير البلاد العربية المذكورة قبل أن يتاح لأهلها التعبير عن رغباتهم وبسط قضيتهم سوف يعتبر فى نظرهم خرقا لميثاق عصبة الأمم ولمبدأ تقرير المصير الذى كثيرا ما دافع عنه أقطاب الدول المتحالفة ، ونقضا للتصريح البريطانى الفرنسى[٧٧] •

---

(٧٥) W. and Butler op. cit. p. 263, No. 181, Clayton (Cairo) to Earl Curzon (Received June 2,) No. E. A. 2491 Telegraphic [82973 / 2117 / 44] Cairo, June, 1, 1919.

(٧٦) Woodward and Butler op. cit. pp. 263 - 272 , No. 182 General Clayton to Earl Curzon No. CPO / 93 / 2 [89850/ 2117 / 44,] Cairo, June, 5, 1919.

(٧٧) Woodward and Butler op. cit. pp. 272 - 273 General Clayton (Cairo) to Earl Curzon CPO / 107 / 5 [91480/2117/44] Cairo, June, 8, 1919.

وفى تقرير آخر من كلايتون الى وزارة الخارجية البريطانية وجه نظر المسئولين فى لندن الى أن شعب فلسطين يرفض الانتداب البريطانى اذا كانت بريطانيا ترى أنه لا مناص من اقتران البرنامج الصهيونى بالانتداب . لأن الفلسطينيين يريدون بلادهم لأنفسهم وأنهم سيقاومون الهجرة اليهودية الى فلسطين بكل ما يملكون من وسائل بما فى ذلك المقاومة المسلحة(٧٨) وبدلا من أن تولى وزارة الخارجية هـذا التقرير الخطير اهتماما خاصا ، أحالته الى هربرت صمويل بتوجيه من بلفور وطلبت منه ابداء رأيه فيما يمكن أن يتخذ من تدابير لتخفيف روح العداء التى تواجهها الصهيونية فى فلسطين وذلك بوصفه — أى صمويل — رئيسا للجنة الانماء الاقتصادى لفلسطين وقام صمويل بدوره باستشارة وايزمان وسوكولوف وهما فى باريس ثم رد على وزارة الخارجية فى ٥ يونيو سنة ١٩١٩ ردا يبـدو أن اعداده تم برضاء وموافقة الوفد الصهيونى فى باريس(٧٩) وقد نصح صمويل وزارة الخارجية أن تؤكد للسلطات الادارية فى فلسطين أن وعد بلفور أصبح جزءاً من السياسة البريطانية المقررة وأن سياسة بريطانيا تتجه نحو وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى وأن شروط الانتداب سوف تشمل اعلان ٢ نوفمبر ١٩١٧ — أى وعد بلفور — وأن العرب لن يجردوا من أراضيهم أو يطلب منهم مغادرة البلاد ، وأنه لن يكون هناك مجال فى فلسطين لاخضاع الكثرة من السكان لحكم القلة ، وأن البرنامج الصهيونى لايحتوى على مثل هـذه الأفكار . كذلك نصح صمويل لندن أن تصدر توجيهاتها الى المسئولين لتحذير العرب هناك أن اثارة الاضطرابات ليست فى مصلحتهم ولن تحقق لهم غرضا وأن أموالا طائلة سوف تتدفق فى فلسطين تحت

---

(٧٨) Woodward and Butler , op. cit. pp. 282 - 283 Enclosure 1 in No. 197, Letter from Sir W. Tyrrell to Mr. Samuel No. 242 ME / 44 Foreign Office May 31, 1919 .

(٧٩) Woodward and Butler op. cit. p. 285, Enclosure 3 in 197, letter from Mr. Samuel to Sir W. Tyrrell, Paris, June, 5, 1919.

الادارة الجديدة لتنميتها وستجنى كافة الطبقات والأجناس ثمرة انفاق تلك الثروة[٨٠] ٠

اننا نلمح فى ثنايا هـذا الكتاب أصابع وايزمان والوفد الصهيونى فى باريس لأن هربرت صمويل سافر الى باريس لاستشارة وايزمان وسوكولوف قبل أن يعد رده وذكر ذلك صراحة فى كتـابه[٨١] ٠ ومن الواضـح أن نصيحة صمويل لوزارة الخارجية فى لندن تنطوى على استجابة لرغبة زعماء الصهيونية المجتمعين فى باريس وتحمل تهديدا ووعدا ووعيدا للشعب العربى فى فلسطين وتكتمل الصورة عندما يتحرك بلفور فى باريس ويكتب الى لورد كيرزون رسـالة مؤرخة فى أول يوليو ١٩١٩ يؤيد فيها كتاب هربرت صمويل ويوجه بنقل خلاصة رأى صمويل الى اللنبى فى القاهرة وقام كيرزون — فعلا — بارسال برقية فى ٤ أغسطس سنة ١٩١٩[٨٢] الى كولونيل « French »فى القاهرة اشتملت على أهم ما ذكره هربرت صمويل فى رسـالته وبنفس الصيغة التى أعدها صمويل ٠

ان المقترحات التى تقدم بها هربرت صمويل وتبناها بلفور لانقاذ الصهيونية من غضبة الشعب العربى فى فلسطين ، لا تخلو من سذاجة فقد استندت الى الاغراء والتهديد والتلويح بالثروة والرخاء المرتقب ولكن الموقف فى فلسطين كان يختلف فى حقيقته عن تصور بلفور وهربرت صمويل ، لأن الشعب العربى هناك كان يقظا لكل مايراد به وكان على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات بما فى ذلك المواجهة المسلحة، وهـذه هى الحقائق التى نقلها الضابط السياسى المساعد فى القدس

(٨٠) Woodward and Butler op. cit. p. 284 letter from Samuel to Sir W. Tyrrell, Paris, June 5, 1919.

(٨١) Woodward and Butler op. cit. pp. 300 - 301 (No. 210) Mr. Balfour (Paris) to Earl Curzon No. 1132 [96834/2117/44] Paris, July, 1, 1919.

(٨٢) Woodward and Butler op. cit. p. 329, No. (236) Earl Curzon to Colonel French (Cairo) No. 245 Telegraphic [96834 / 2117 / 44] Foreign Office, August, 4, 1919.

الى المسئولين البريطانيين فى القاهرة ولندن ، فى تقرير مفصل مؤرخ ١٢ أغسطس ١٩١٩ بعنوان « الحركة العربية والصهيونية » وقد أيدت القاهرة الحقائق التى وردت فى ذلك التقرير(٨٣) وكاتب التقرير هو الرائد كامب «J.N.Camp» الذى ذكر أن الحركة العربية فى القدس تتركز فى أربع جمعيات وهى المنتدى الأدبى والنادى العربى وجمعية الاخاء والوفاء والجمعية الفدائية ، وكانت المنتدى — أهم هـذه الجمعيات وأقواها أثرا — تنادى باستقلال العرب ووحدة فلسطين وسوريا ورفض الصهيونية فى أية صورة من صورها ومنع الهجـرة اليهودية والغاء الامتيازات الأجنبية ، وكان أبرز قادة هذه الجمعية محمد يوسف الخطيب ويعرف أحيانا بمحمد يوسف جمعـة الكنانى ومحمود الخالدى وحسن صدقى دجانى واسعاف النشاشيبى وعمر زعانى البيروتى وعدد من أفـراد أسرة النابلسى • وانضمت اليهم أخيرا جمعيـة أخرى هى « المنتدى الدجانى » وكان نشـاط هذه الجمعيات يتمثل فى تسليح أعضائها بالأسلحة الخفيفة واعداد قوائم بأسماء زعماء اليهود والموالين للصهيونية وبث الوعى بين البدو فى شرقى الأردن وتركيز تجمع الضباط الفلسطينين فى عمان استعدادا للطوارىء اذا ما أعلنت السياسة الموالية للصهيونية • وكان من بين أعضاء الجمعيات المذكورة من تعلم اللغـة العبرية لمتابعة كل مايقال ويكتب فى الصحف اليهودية، وكان منهم من يراقب الموقف بدقة ، ومن يقوم باستمالة رجال الأمن للاتفاق معهم على تسـليم أسلحتهم أو على الأقل لحملهم على الامتناع عن التدخل اذا اندلعت الثورة • ويستطرد الرائد كامب قائلا: ان المنتدى الأدبى كانت تلعب دورا قياديا فى كل هذا النشاط وأن الاعداد جار فى هدوء من كافة الوجوه تمهيدا للعمل اذا قدر للسياسة الصهيونية أن تحرز نجاحا • ويعتبر كاتب التقرير أن أخطر الشخصيات العربية على الاطلاق من المعادين للصهيونية ولبريطانيا على حد سواء هم :

---

(٨٣) Woodward and Butler op. cit. pp. 360 - 365, No. 253, Colonel French (Cairo) to Earl Curzon (Received Sept.6) No. C. P. O. 31 / 110 [125609 / 2117 /44A | Cairo Aug. 26, 1919 and Enclosure No. 253, Arab Movement and Zionism.

محمود يوسف العلمي ومحمود عزيز الخالدي وحسن صدقي دجاني وعمر زعاني البيروتي والشيخ رشيد الخطيب وجودت الحلبي،وأضاف الرائد كامب قائلا : ان هذه الجمعيات موجودة أيضا في كل بقعة ذات أهمية في فلسطين ، في نابلس ويافا وغزة وتل كرام وحيفا الخ(٨٤) ويؤكد مستر كامب للمسئولين البريطانيين أن جميع المسلمين والمسيحيين من ذوى المكانة المرموقة في فلسطين هم ضد الصهيونية ويتجاوبون مع الجمعيات التي تعادي الصهيونية والهجـرة اليهودية ، ثم يقول : « اننا اذا كنا نعني أن ننفذ أي نوع من أنواع السياسة الصهيونية ، فعلينا أن نفعل ذلك بالقوة العسكرية ونتخذ سياسة حازمة قوية ضد جميع دعاة الفتنة في البلاد » وحذر مستر كامب قومه ألا يطمئنوا الى فيصل لأن « لديه المقدرة — فيما يبدو — على الاتفاق معنا ومع الفرنسيين ومع الصهيونية بما في ذلك من تناقض — ثم يحاول أخيرا أن ينفرد بالعمل كما يشاء »(٨٥) .

كانت قوة المعارضة الجارفة ضد الصهيونية من قبل الشعب العربي في فلسطين أكبر مشكلة أمام السلطات البريطانية التي عقدت العزم على تنفيذ البرنامج الصهيوني ، ولكن الصهيونية وجدت في الكولونيل «R. Meinertzhagen» — الذي خلف كلايتون في القـاهرة في منصب الضابط السياسي الأول — سندا قويا فقد بعث هـذا الضابط في ٢٦ سبتمبر سـنة ١٩١٩ من موقعه الرسـمي في القاهرة رسـالة الى كيرزون(٨٦) أعلن فيها أنه يتحدث عن الصهيونية بوصفه أحد المؤيدين المتحمسين لها ثم تطرق الى الصعاب التي واجهت الاداريين البريطانيين في فلسـطين من جراء معارضة العرب لسياسة بريطانيا الرامية الى التمكين للصهيونية في فلسـطين وضغط قادة الصهيونية المحلية عليهم

---

(٨٤) Woodward and B. op. cit. p. 364.

(٨٥) W. and B. op. cit. p. 364.

(٨٦) W. and B. op. cit. p. 425 - 428.
No. 298, Colonel Meinertzhagen (Cairo) to Earl Curzon (Received Oct. 14) No. C. P. O. 311 /1 [141037 / 441A] .

لاعلان البرنامج الصهيونى قبل أن يصبح الأنتداب البريطانى نافذا .
ثم ذكر الكولونيل ماينرتزاجن أنه رأى أن يسند الى دكتور وايزمان رياسة اللجنة الصهيونية لأن ذلك يساعد على دعم مركز الصهيونية المحلية ، وذكر أنه من المؤكد نجاح الصهيونية فى فلسطين آخر الأمر رغم معارضة السكان ولكن ذلك رهين بالأسلوب الذى يتبع والنمو التدريجى للحركة وهو يرى أن الوقت ليس ملائما لابلاغ الشعب الفلسطينى جهرة أن اقامة الصهيونية فى فلسطين هى السياسه التى التزمت بها بريطانيا وأمريكا وفرنسا وأنه يفضل أن يعالج الموقف بعد وصول وايزمان وذلك باعداد بيان رقيق يشرح للسكان معنى الصهيونية وبراءتها من التعصب الدينى بلغة معتدلة للغاية ويبصرهم بالأسلوب المترفق الذى يتبع فى ادخالها وما تجلبه من مزايا لفلسطين(٨٧) .

ولم يكن الموقف فى مصر خيرا منه فى سوريا وفلسطين لأن الأمة العربية كانت تواجه جبهة متحدة فى أوروبا قوامها الثلاثة الكبار ، وكان على ريجنالد وينجت الذى خلف ماكماهون على دار العمادة فى مصر أن يواجه تطورات الموقف بعد اعلان الهدنة ، ولم يطل انتظاره فقد طرق بابه فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وفد من قادة الحركة الوطنية فى مصر برياسة سعد زغلول ليضعوا أمامه مطالب الأمة ، وقبل أن نستعرض مادار فى تلك المقابلة الهامة يجدر بنا أن نستمع الى الأستاذ العقاد وهو يصف الوضع فى مصر بعد اعلان الحماية البريطانية فيقول :

« لم تمض أشهر قليلة بعد اعلان الحماية حتى كانت السلطات الانجليزية قد نقضت كل ما عاهدت عليه الأمة المصرية ، فأطلقت أيديها فى دواوين الحكومة جميعا الا ما هى فى غنى عنه ولا قدرة لها على ادارته لقلة الموظفين الانجليز فى تلك الفترة وأمعنت من جهة فى التضييق على أعداء الاحتلال ... ثم احتاجت الى العمال فجمعت منهم نحو مليون ومائتى ألف من الفتيان الأشداء فرقتهم فى ميادين القتال وأهملتهم

---

(٨٧) W. and B. op. cit, p. 428.

أسوأ اهمال ••• واحتاجت الى الزاد والعلف والماشية والدواب فأخذت منها ما شاءت أن تأخذ بلا اكتراث لحاجة الفلاح الفقير » [٨٨] •

وكان مع سعد فى مقابلته لـــ «وينجت» على شعراوى باشـــا وعبد العزيز فهمى بك وبدأ وينجت الحديث ، ورد سعد مطالبا بالغاء الأحكام العرفية ومراقبة الصحف والمطبوعات لينفس الناس عن أنفسهم بعد ما عانوا من الضيق أكثر من أربع سنين ، وتحدث شعراوى قائلا « اننا نريد أن نكون أصدقاء للانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للسيد » فصاح وينجت دهشا « اذن أنتم تطلبون الاستقلال » ؟ فأجابه سعد : «نعم •• ونحن أهل له »[٨٩]• وكانت تلك المقابلة بمثابة الشرارة التى انطلقت منها ثورة مصر العربية سنة ١٩١٩ عندما استخف المسئولون البريطانيون بحق أبنائها فى الحرية والاستقلال وأصدروا توجيهاتهم الى وينجت بمنع قادة الحركة الوطنية من الســـفر الى أوروبا لبسط قضيتهم العادلة أمام مؤتمر الصلح فى وقت بشر فيـــه أقطاب المؤتمر بمبادىء الحرية وحق تقرير المصير ولكن أهل الحل والعقد فى لندن لم يطيقوا أن يسمعوا نبأ المقابلة التى تمت بين وينجت وســـعد زغلول وأقبلوا على وينجت ذما وتأنيبا [٩٠] لمجرد استماعه الى رأى الوفد المصرى فى مستقبل بلاده ورفض وينجت التوبيخ مدافعا عن وجهـــة نظره وكان لا يرى غضاضة فى السماح لسعد زغلول وحسين رشدى وعدلى يكن للذهاب الى لندن للافصاح عن آرائهم لأن ذلك من شـــأنه أن يساعد على تهدئة الموقف فى مصر [٩١] ، واستدعى وينجت فى لندن للتشاور فوصلها فى نهاية يناير سنة ١٩١٩ ، ولكن وزارة الخارجية

---

(٨٨) عباس محمـــود العقاد ، ســـعد زغلول ، القـــاهرة ١٩٣٦ ص ١٨١ — ١٨٢

وانظر أيضا : E. Kedourie , The Chathman House Version, and other Middle Eastern Studies (Sa'ad Zaghlul and the British) pp. 102 - 103 .

(٨٩) العقاد ، المصدر نفسه ص ١٩٧ — ١٩٨

(٩٠) Kedourie, op. cit. Sa'ad Zaghlul and the British, pp. 95 - 96 .

(٩١) Kedourie, op. cit. p. 99.

البريطانية وعلى رأسها بلفور كانت ضد فكرة سفر الوفد بحجة أن قادة الحركة الوطنية فى مصر (يعنى الوفد) وضعوا أنفسهم على رأس حركة لا تدين بالولاء لبريطانيا وتعمل لاخراج الانجليز من مصر ولذلك لا ينبغى أن يسمح لهم بالسفر لئلا يفسر ذلك بأنه ضعف من جانب الحكومة البريطانيه ، وجاءت التوجيهات قاطعة فى برقية من لندن بتاريخ ٢٦ فبراير ١٩١٩ الى مستر شيتام القائم بأعمال المندوب السامى فى القاهرة ، ألا يسمح لأى مصرى ، بصفة رسمية أو غير رسمية بمغادرة البلاد مهما كانت النتيجه فقدم حسين رشدى استقالة حكومته فى أول مارس ١٩١٩ ويعث شيتام رسالة الى لندن يقول فيها ان الأحوال هادئة فى مصر وأن سعد زغلول ورفاقه لا يتمتعون بتأييـد شعبى !! (٩٢) بل أبرق الى لندن فى ٢٤ فبراير ١٩١٩ يحثها على تجاهل حركة سعد زغلول ويقول انه لا ينبغى أن يسمح لتلك الحركة أن تؤثر على قرارات الحكومة البريطانية فيما تراه حول المسائل الدستورية وما ينبغى أن يكون عليه وضع الحماية فى مصر .

وفى اليوم السادس من شهر مارس ١٩١٩ تلقى سعد زغلول وتسعة من أصحابه انذار القائد العام الجنرال واطسون يحذرهم من وضع مسألة الحماية موضع المناقشة « واقامة العقبات فى سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعى فى منع تشكيل وزارة جديدة ، ويهددهم ان أقدموا على مخالفة ذلك بالمعاملة الشديدة بموجب الأحكام العرفية » (٩٣) ورد سعد على الانذار البريطانى بأن « الوفد يطلب الاستقلال التام ويرى الحماية غير مشروعة ولا يتأخر عن أداء واجبه مهما كلفه ذلك » (٩٤) .

وفى اليوم نفسه (٦ مارس) أبرق شيتام الى لندن طالبا الاذن باعتقال سعد وأصحابه ونفيهم، وتلقى الرد بالموافقة من وزارة الخارجية

---

(٩٢) Kedourie, op . cit. , p. 100.

(٩٣) العقاد ، المصدر نفسه ص ٢١٩ — ٢٢٠

(٩٤) العقاد ، المصدر نفسه ص ٢٢٠

فى ٧ مارس ، وفى ٩ منه تم اعتقال سعد وثلاثة من أصحابه وهم اسماعيل صدقى وحمد الباسل ومحمد محمود ونفوا الى مالطة [٩٥] .

وسرى نبأ الاعتقال رغم تكتم القيادة العسكرية وانطلقت ثورة ١٩١٩ لا تلوى على شىء ولم يعلم عنها سعد وأصحابه فى مالطة حتى جاءهم حاكم الجزيرة لورد ثوين ليقول لهم « أشعلتم النار فى مصر وجئتم الى هنا » ؟ [٩٦] ، وعمت الثورة البلاد وشارك فيها الفلاحون مشاركة مرموقة وظهرت الحكومات الوطنية المستقلة عن القاهرة فى زفتى والمنيا والمجالس الوطنية فى كثير من المراكز [٩٧] .

وأدركت بريطانيا أنها أخطأت التقدير ووصف شيتام الموقف بالخطورة وقال ان مصر لم تشهد موقفا كهذا منذ ثورة عرابى (١٨٨٢) ووصف الثورة بأنها ثورة وطنية بمعنى الكلمة [٩٨] ولكن هذا الوصف من رجل مسئول فى ذلك الوقت لم يرق لخدورى الذى أراد أن يضفى على الثورة ثوبا آخر ليجعلها ثورة رعاع ضاقت بهم سبل الحياة وأرهقهم الغلاء وسوء الحالة الاقتصادية [٩٩] !!

واتصل شيتام بالقنصل الأمريكى فى القاهرة لابلاغه خطورة الموقف ونصح لندن أن تسمح للمصريين بالذهاب الى لندن وباريس حتى اذا لم تعترف بهم رسميا ، ولكن كيزون أخذته العزة بالاثم فرفض الاستماع الى رأى شيتام واتهمه بالضعف ، وتأزم الموقف ، ووقف بلفور الى جانب شيتام مطالبا بتأليف حكومة قوية فى مصر ومرحبا بوفد رسمى من مصر تمثل فيه القوى الوطنية ، وعين اللنبى (٢٠ مارس ١٩١٩) مندوبا ساميا خاصا لمصر مع أن وينجت لم يبعد

---

(٩٥) Kedourie, op. cit. p. 101.

(٩٦) العقاد ، المصدر نفسه ص ٢٤١

(٩٧) محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ جـ ١ ، الطبعة الأولى القاهرة ، ١٩٦٣ ص ١٠ — ١١

(٩٨) Kedourie, op. cit. p. 105.

(٩٩) Kedourie, op. cit. pp. 102 - 104.

من منصبه • وتسلم اللنبى مهمته الجديدة فى القاهرة فى ٢٥ مارس ١٩١٩ وآلت اليه السلطة الحقيقية ، وظل وينجت فى منصبه أيضاحتى خريف سنة ١٩١٩ ولكن بغير سلطة فيما يبدو [١٠٠] •

ولم تجد بريطانيا مناصا من الاعتراف بسوء تقديرها لموقف الحركة الوطنية فى مصر فقررت الافراج عن سعد وأصحابه بعد شهر من الاعتقال فى مالطة وسمحت للوفد المصرى بالسفر الى باريس ، ولكن عندما وصل أعضاء الوفد الى مقر مؤتمر الصلح وضح لهم أن أمريكا قد اعترفت بالحماية البريطانية على مصر منذ ١٩ ابريل ١٩١٩ أى بعد وصول الوفد الى مرسيليا بيوم واحد وأدرك سعد أن الأمل فى الموقف الدولى قد انقطع وأن المعركة فى سبيل القضية المصرية سوف تجرى على أرض مصر وحدها ، وكان الانجليز — كما قال الدكتور محمد أنيس — يدركون هذه الحقيقة فلم يقلقهم كثيرا وجود الوفد فى باريس وانما كان مصدر قلقهم الوحدة الوطنية التى التفت حول الوفد [١٠١] ، وأخذ سعد يقود المعركة من باريس عن طريق رسائله السرية الى عبد الرحمن فهمى سكرتير لجنة الوفد فى القاهرة •

* * *

(١٠٠) Kedourie, op. cit. pp. 108 - 111.

(١٠١) محمد أنيس ، المصدر نفسه ص ١١ — ١٢ •

الفصل الرابع



● مؤتمر الصلح ــ تفاؤل واستبشار ــ بيعة فى المسجد الحرام ــ الشريف حسين ملكا ــ لا حق للعرب فى تقرير مصيرهم ــ الحلفاء أصحاب القرار ــ بريطانيا أول من ينكر البيعة ــ بريطانيا وفرنسا لا تعترفان بالحسين ملكا للامة العربية ــ سوريا تبايع فيصلا ــ أصدقاء العرب ينددون بقرار العرب ــ كيرزون يتعد فيصلا وسعدا عن مؤتمر الصلح ــ لا حق للعرب فى بسط قضيتهم ــ اللنبى يحذر كيرزون ــ بريطانيا تحنث بوعدها ــ ذهبت وعود ماكماهون ادراج الرياح ــ بريطانيا توقف اعانتها المالية لفيصل ــ مؤتمر الصلح يؤازر الصهيونية ضد العرب ــ الانتداب البريطانى على فلسطين ــ تعيين هربرت صمويل ــ كيرزون لفيصل : صمويل صديق العرب !! ــ فرنسا تغزو سوريا ــ ميسلون ــ الجنرال غورو ــ اخراج فيصل عنوة ــ اللنبى فى مصر ــ فشل لجنة ملنر ــ تصريح ٢٨ فبراير ــ سعد رئيسا لوزارة الشعب الاولى ــ سعد : لقد صدقنا اننا مستقلون !!

* * *

قبض الريح

استبشر العرب بنصر الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى وحسبوا أن ظلمة اليأس قد انقشعت بهزيمة ألمانيا وتركيا الاتحادية وزوال عهد جمال باشا وجمعية الاتحاد والترقى الى غير رجعة ٠ ظنوا أن حريتهم المفقودة أوشكت أن تعود وأن قادة مؤتمر السلام سيلتزمون بمبادىء الحرية وحق تقرير المصير التى بشر بها ودرو ويلسون ٠ أما بريطانيا التى وعدتهم الاستقلال وأغرتهم بالخلافة بلسان ممثلها هنرى ماكماهون فى عام ١٩١٦ فقد كانوا لا يشكون فى سلامة مقاصدها وعزمها على الوفاء بكلمتها ، ومن ثم تمت بيعة الشريف حسين بن على فى مكة المكرمة بالمسجد الحرام ، ملكا للأمة العربية فى أول المحرم من سنة ١٣٣٥ هـ (٢٩ أكتوبر ١٩١٦) أى بعد أربعة أشهر فقط من اعلان الثورة ضد الأتراك (٩ شعبان ١٣٣٤ هـ — ١٠ يونيو ١٩١٦) ولكن الأمير عبد الله ابن الحسين دهش عندما وجه اليه فى اليوم التالى (الثانى من شهر المحرم) معتمد بريطانيا فى جدة ، الكولونيل ويلسون والمعتمد الفرنسى سؤالا : لم تمت البيعة دون الرجوع الى الحلفاء ؟ [1] ٠

فرد عليهما : « عجيب ما تقولان !! ، اننا نقاتل بسيوفنا فى سبيل الله واعلاء كلمته وارجاع حقنا القومى الى نصابه ، فمن ساعدنا وأيدنا فهو صديقنا ، ومن نكص عنا وأحب أن يفت فى عضدنا فهو لا يريد بنا الخير » ٠

فقالا : نشك سموك فى أخلاقنا ؟

قلت [*] : لا ٠٠ ولكن نحن أعلم بما ينبغى لنا أن نفعله من أجل أنفسنا [2] ٠

---

(١) الملك عبد الله : مذكراتى ، عمان ، ١٩٤٧ ، ص ١٧٥ — ١٧٦ ٠
(*) المتحدث هنا الامير عبد الله بن الحسين ، الذى أصبح فيما بعد ملكا لشرق الاردن ٠
(٢) الملك عبد الله : المصدر نفسه ص ١٧٦ ٠

وجاء القول أن بريطانيا لا تعترف بالشريف حسين ملكا للأمــة العربية ، ثم تمت استشارة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا تمخضت عن اعتراف الدول الثلاث بالشريف حسين ملكا على الحجاز فقط !! وأخطر بذلك رسميا فى رسالة مؤرخة ١٠ ديسمبر سنة ١٩١٦ (٣) .

أما مصير الدولة العربية المترامية الأطراف التى كانت موضع بحث مستفيض فى رسائل «حسين ــ ماكماهون» فأصبح من اختصاص مؤتمر الصلح فى سنة ١٩١٩ ، ولم يعد يحق لأحد من العرب أن يتحدث عنها ، فضلا عن أن يقرر مصيرها ، سوى مؤتمر الصلح (أى الثلاثة الكبار) وعندما أعلنت الدولة السورية المستقلة بتفويض من المؤتمر السورى العام فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠ ، وبويع فيصل ملكا على سوريا ثارت ثائرة بريطانيا وفرنسا وعلت صيحة الاستنكار من المسئولين فى لندن وباريس تندد بالمؤتمر السورى وتتساءل : ما شأن هذا المؤتمر بمستقبل سوريا وفلسطين ؟ على نحو سيأتى بيانه فى هذا الفصل .

وارتفع صوت الاستنكار مرة أخرى بعد تعيين الأمــير عبد الله رئيسا للوفد العربى فى مؤتمر الصلح خلفا لأخيه فيصل ملك سوريا عندما قال اللنبى :

« ان رئيس الوفد هو الأمير فيصل » فأجابه عبد الله : هو الآن (يعنى فيصل) ملك سوريا .

اللنبى : ان الحلفاء لم يعترفوا بهذا .

عبد الله : ان الذى ولاه هذه الرئاسة فى مؤتمر الصلح قد اعتبر الأمر الواقع وعين رئيسا آخر هو أنا .

اللنبى : هذا الأمر لا يقبله الحلفاء .

عبد الله : وما للحلفاء وتعيين موظف فى وظيفة ؟

اللنبى : هو ما سمعت (٤) .

---

(٣) U.S. Department of State Mandate For Palestine, Division of Near Eastern Affairs Series No. I. Washington, 1931, p. 7 .

(٤) الملك عبد الله : المصدر نفسه ص ٢٢٤ .

ولم يكن العرب يتوقعون استنكارا كهذا من جانب الحلفاء للقرارات التى اتخذوها فى مسائل هى من أخص شئونهم الداخلية ، لا سيما بعد أن ساندوا قضية الحلفاء وأعلنوا الثورة على الأتراك مما كان له أثر كبير على مجرى الحرب فى الشرق الأوسط لصالح الحلفاء ومع أن المتحاملين على العرب حاولوا أن يقللوا من شــأن الثورة العربية (ثورة الصحراء) وأهميتها فان المسئولين البريطانيين هم الذين كانوا يعرفون حقيقة الدور الذى لعبته لصالحهم ومن هؤلاء السير رونالد ستورز الذى تحدث عنها قائلا : ان أهم النتائج الاستراتيجية للثورة العربية أنها مكنت القوات البريطانية المرابطة فى منطقة قناة السويس أن تتحول من موقع الدفاع ضد الأتراك الى مركز الهجــوم على قلب الامبراطورية العثمانية (٥) • كما أشاد اللنبى فى رسالته الى كيرزون المؤرخة ٢٨ مايو سنة ١٩٢٠ بشريف مكة باعتباره أحد الذين أسـدوا للحلفاء مساعدة أحبطت خطة الجهاد فى وقت كانت نتيجة الحرب فيه غير معروفة (٦) ، ولكن كل ذلك لم يشفع للعرب عندما انقشعت ظلمة الحرب وحان اقتسام الأسلاب !! فاذا بالثلاثة الكبار يتخذون أخطـر القرارات باسم مؤتمر الصلح فيما يتعلق بمستقبل البلاد العربية دون أدنى اعتبار لرأى الأمة العربية التى يعنيها الأمر • لقد رأينا وزارة الخارجية البريطانية تستشير هربرت صمويل وهذا بدوره يستشير قادة الحركة الصهيونية فى كل المسائل المتعلقة بمصلحة الصهيونية فى فلسطين وذلك فى وقت كانت كثرة يهود العالم تقف فيه ضد فكرة الصهيونية !! ثم تملى وزارة الخارجية البريطانية على ممثليها فى الوطن العربى ما أشار به قادة الصهيونية للتنفيذ !!

ولكن الأسلوب يختلف عندما تطرح قضايا الأمة العربية للبحث : ينهض سعد زغلول ومن ورائه الشعب المصرى على قلب رجل واحـــد

---

(٥) Storrs, The Momoirs of Sir Ronald Storrs, p. 179.

(٦) Woodward and Butler, Documents on British Foreign Policy, 1919 - 1939, Vol. 13, P. 257 No. 253 from Allenby (Cairo) to Curzon, No. 559 (E 6180 / 2854 / 44) Cairo, May 28, 1920.

مطالبا بالاستقلال وانهاء الحماية البريطانية فتسخر بريطانيا من سعد وتنكر عليه حق تمثيل الشعب المصرى ثم تأمر باعتقاله وعدد من خيرة أبناء مصر وتنفيهم الى مالطة ثم الى جزائر سيشل ثم الى جبل طارق[٧] . ويرتفع صوت فيصل فى الهلال الخصيب يؤيده الشعب العربى فى سوريا وفلسطين والعراق ، مطالبا باستقلال العرب ووحدة سوريا ويقف المؤتمر السورى العام من ورائه يشد أزره فى الدعوة الى الاستقلال ورفض الصهيونية والانتداب الفرنسى فتستشيط فرنسا غضبا ويكتب السفير الفرنسى فى لندن مسيو كامبون الى كيرزون ليبلغه رسالة من حكومته فى باريس [٨] تستنكر فيها قرار المؤتمر السورى بمبايعة فيصل ملكا على سوريا ، ويجدر بنا قبل الحديث عن المؤتمر السورى وقراراته وموقف الحلفاء منه ، أن نذكر شيئا عن استراتيجية الحكومة البريطانية والفرنسية ازاء فيصل خلال النصف الثانى من عام ١٩١٩ .

كان فيصل يتوقع العودة الى باريس فى نهاية يوليو ١٩١٩ لحضور مؤتمر الصلح مع أ.ت. لورنس عندما يحين الوقت لبحث موضوع الهلال الخصيب ، ولكن لورنس (عضو الوفد البريطانى فى مؤتمر الصلح وأحد مستشاريه) أبرق الى فيصل فى ١٥ يوليو ١٩١٩ عن طريق اللنبى فى القاهرة أن المؤتمر لن ينظر فى الشئون العربية حتى شهر سبتمبر وأنه ينصح بتأجيل حضوره حتى ذلك التاريخ [٩] ، ولم يكن كيرزون يطمئن الى وجود فيصل فى باريس فى ذلك الوقت جنبا الى جنب مع لورنس لأنه كان يخشى أن يكون ذلك مدعاة لاحراج حليفته فرنسا . ومن ناحية أخرى كانت فرنسا تعمل جهد استطاعتها على

---

(٧) انظر العقاد ، سعد زغلول ص ٣٨٦ — ٤٠٨ .

(٨) Woodward and Butler, op. cit., p. 278. No. 254, note from the French Ambassador to Earl Curzon (Received June 1) (E 5598 /244). Ambassade De France A'Londres, 31 Mai 1920.

(٩) Woodward and Butler op. cit. Volume 4, p. 314, No. 221 Mr. Balfour (Paris) to General Sir E. Allenby (Cairo) No. 66 Telegraphic (384 /1/1/14444) Paris, July 15, 1919.

ابعاد فيصل عن مؤتمر الصلح فأرسلت برقية الى المسيو بيكو فى سوريا تنصح فيصل بتأجيل مجيئه الى باريس لأن المؤتمر لن ينظر فى أمر سوريا الا بعد فترة من الوقت (١٠) ، وفهم فيصل أن المقصود من هذه البرقية الحيلولة بينه وبين الذهاب الى المؤتمر فأخطر الضابط السياسى فى دمشق أنه (أى فيصل) اذا حيل بينه وبين المؤتمر أو اذا أجلت رحلته لأجل غير ملائم فانه سيتخذ التدابير الدفاعية التى يقتضيها الموقف ضد أى قرار قد يتخذ لغير مصلحة القضية العربية .

وقد صرح كيرزون فى برقيته الى بلفور فى باريس (١٧ يوليو ١٩١٩) (١١) ان التعاون بين الكولونيل لورنس وفيصل من شأنه أن يضع بريطانيا فى موضع جد حرج ازاء فرنسا وأنه لا ينصح أن تتم زيارة فيصل قط (لأوروبا) فى الظروف الراهنة وأنه يرى فى الامكان استمالة فيصل لالغاء رحلته اذا حيل بين لورنس والذهاب الى باريس (كان لورنس فى لندن فى ذلك الوقت) . ومن ثم توجه كيرزون بسؤال الى بلفور عما اذا كان لورنس عضوا فى الوفد البريطانى الذى يقوده بلفور ويتلقى الأوامر منه واذا كان الأمر كذلك ألا يرى من الأصوب ألا يؤذن له (أى للورنس) بالذهاب الى باريس ؟

كان كيرزون يرمى الى ابعاد فيصل عن باريس حتى تتقرر شروط معاهدة الصلح مع تركيا بصفة نهائية ثم يستدعى فيصل بعد ذلك ليوضع أمام الأمر الواقع كما فعل مع سعد زغلول وتنقل اليه شروط المعاهدة للسلم !! وذلك فيما زعم كيرزون استنادا الى نصيحة الجنرال كلايتون (١٢) .

---

(١٠) Woodward and Butler op. cit. pp. 314 - 315 No. 222 Colonel French to Earl Curzon (Received July 17) No. 385 Telegraphic [103235 / 103235 / 44] Cairo, July 17, 1919.

(١١) Woodward and Butler op. cit. p. 315, No. 223, Earl Curzon to Mr. Balfour (Paris) No. 994 Telegraphic [105018/ 103235 / 44A] Foreign Office July, 17, 1919.

(١٢) Woodward and Butler op. cit. p. 316, No. 225 Earl Curzon to Mr. Balfour (Paris) No. 1001 Telegraphic [103235/ 103235 / 44] Foreign Office, July 21, 1919 .

وعندما تلقى فيصل الدعوة من لويد جورج للسفر الى باريس (١٠ سبتمبر ١٩١٩) وتوجه فورا الى العاصمة الفرنسية فوصلها فى ١٩ منه ، كانت بريطانيا وفرنسا قد اتفقتا على جلاء الجيش البريطانى من المنطقتين الشرقية والغربية فى سوريا « O.E.T.W. and O. E.T.E. » وكليلكيا لتباشر القوات الفرنسية احتلال سوريا (عدا دمشق وحمص وحماة وحلب) وفى ١٢ أكتوبر ١٩١٩ عين الجنرال غورو قائدا عاما للجيش الفرنسى فى الشرق ومندوبا ساميا لفرنسا فى سوريا وكيلكيا[١٣] ووصل الجنرال غورو (جمال باشا الجديد) بيروت فى ١٨ نوفمبر ١٩١٩ أى بعد خمس سنوات فقط من تاريخ دخول جمال باشا التركى دمشق (٥ ديسمبر ١٩١٤) • وكان وصوله ايذانا بقرب المعركة بين فرنسا والأمة العربية فى الجبهة السورية •

وكما كان متوقعا فان زيارة فيصل لباريس خلال النصف الثانى من عام ١٩١٩ كانت جهدا ضائعا ، لأن الحلفاء أبرموا أمرهم فلم يجد مناصا من العودة الى دمشق فى مطلع عام ١٩٢٠ وقبل أن يغادر باريس فى ٦ يناير سنة ١٩٢٠ بثلاثة أيام تلقى برقية من الأمير زيد فى دمشق تنبىء باحتلال القوات الفرنسية ثلاث قرى من أعمال حمص ودخولها بعلبك بثلاثة آلاف جندى •

وتحرك الشعب العربى فى سوريا لمباشرة مسئولياته عن طريق المؤتمر السورى العام الذى دعى الى الانعقاد فى ٦ مارس سنة ١٩٢٠ ليتخذ قراره التاريخى فى ٧ مارس باعلان الدولة السورية المستقلة بحدودها الطبيعية والمناداة بسمو الأمير فيصل بن الحسين ملكا عليها وفى يوم ٨ منه تمت البيعة فى دار بلدية دمشق وجاء فى القرار التاريخى الذى أعلنه رئيس المؤتمر :

« وقد اخترنا سمو الأمير فيصل ابن جلالة الملك حسين الذى واصل جهاده فى سبيل تحرير البلاد وجعل الأمة ترى فيه رجلها العظيم ، ملكا دستوريا على سورية بلقب صاحب الجلالة الملك فيصل الأول

(١٣) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ٨٧ — ٩١ .

وأعلنا انتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة فى المناطق الثلاث على أن تقوم مقامها حكومة ملكية نيابية مسئولة تجاه هذا المجلس فى كل ما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام » [١٤] .

ورد الملك فيصل :

« أشكر للأمة نياتها الحسنة نحــوى وعلى ما أبدته من حسن الاعتماد وأشهد الله أنى ما قمت الا بما يجب على وأتمنى أن أوفق لأقوم بكل ما يكفل استقلال البلاد وحريتها ولأعتنى بشئون الشعب السورى ورقيه وأشهدكم على قولى هذا ، والله خير الشاهدين » .

وهكذا تم العقد بين ممثلى الأمة وقائدها ، عقدا اكتملت له كل عناصر التراضى والعرض والقبول .

وفى اليوم الثامن من شهر مارس ١٩٢٠ أصدر الملك فيصل قرارا بتكليف رضا باشا الركابى لتأليف أول وزارة لسوريا المستقلة ، وأوفد فيصل اللواء نورى السعيد الى لندن وباريس يحمل كتابين من جلالته الى الحكومتين الفرنسية والبريطانية كما بعث رسالة خاصة الى الرئيس الامريكى ويلسون يبلغهم اعلان الاستقلال ومبايعته ملكا لسوريا [١٥] .

وفى الوقت ذاته تلقى الجنرال اللنبى فى القاهرة رسالة من الملك فيصل تحمــل اليه قرار المؤتمر السورى وتؤكد له أن اعــلان الدولة السورية المستقله لن يؤثر على العلاقات الودية القائمة بين ســوريا وبريطانيا وأنه (أى فيصل) يؤكد صداقته للحكومة البريطانية .

ونقل اللنبى هذه الرسالة الى كيرزون فى برقيــة أرسلت فى الساعة الخامسة والدقيقة الخمسين مساء يوم ١٣ مارس ١٩٢٠ [١٦]

---

(١٤) أمين سعيد ، المصدر نفسه ص ١٣٢ .

(١٥) أمين سعيد ، المصدر نفسه ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(١٦) Woodward and Butler op. cit. Volume 13, pp. 224 - 225 No. 219 Field Marshal Viscount Allenby (Cairo) to Earl Curzon. No. 260 Telegraphic [E 1538 / 2 / 44] Cairo, March , 13, 1920, 5. 50 P. M.

وأبرق كيرزون فى الساعة السادسة مساء اليوم نفسه من لندن الى اللنبى قائلا :

« يجب أن تخطر الأمير فيصل (كذا) فورا أن حكومة صاحب الجلالة لا يمكن أن تعترف بحق مؤتمر دمشق فى تقرير مستقبل سوريا وفلسطين والموصل أو العراق ، وهى لا تعلم شيئا عن تكوين هذا المؤتمر وسلطته . ان هـــذه الأقطار قد فتحتها جيوش الحلفاء وأخذتها عنوة من الأتراك ولن يتقرر مستقبلها — وهو الآن أمام مؤتمر الصلح — الا على أيدى دول الحلفاء مجتمعة . اننا لا نعلم اذا كان « الأمـــير فيصل » قد تسلم التحذير المشترك الـــذى بعثنا به اليه فى الثامن من شهر مارس فى هذا المعنى ولا ندرى اذا كان مؤتمر دمشق اتخذ هذا القرار عن جهل بذلك التحذير أم تحديا له .

« ومهما يكن الأمر فان حكومة صاحب الجلالة لا تســتطيع أن تعترف بحق هيئة كونت نفسها بنفسها فى دمشق أن تنظم هذه المسائل وان حكومة صاحب الجلالة والحكومة الفرنسية لا يسعهما الا القول بأنهما تعتبران هذه التدابير غير ذات موضوع .

« ويجب أن تضيف أيضا نيابة عن حكومة صاحب الجلالة أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال التسليم بحق أية هيئة فى دمشق أن تقرر مصير العراق أو الموصل .

« وعليك أن توجه الدعوة مرة أخرى للأمير فيصل أن يعود الى أوروبا ليبسط قضيته أمام مؤتمر الصلح » (١٧) .

وتحرك السفير الفرنسى فى لندن بتوجيه من حكومته لينقـــل الى الحكومة البريطانية أن الموقف — فى رأى الحكومة الفرنسية — يقتضى أن ترسل الحكومتان برقية أخرى بصفة عاجلة الى الأمير فيصل

---

(١٧) Woodward and Butler op. cit. p. 225, No. 220, Earl Curzon to Field-Marshal Viscount Allenby (Cairo) No. 223 Telegraphic [E 1461 / 2 / 44] Foreign Office, March, 13, 1920 6. P. M.

تعلنان فيها أنهما لا تعترفان بقرار المـؤتمر السورى على الاطـلاق وأن ترسل البرقية باسم الحكومتين الى فيصل عن طريق المارشـال اللنبى [١٨] •

لكن حقائق الموقف فى سوريا لم تدع للفيلد مارشال اللنبى خيارا غير أن ينصح حكومته قائلا « اذا أصرت الدول المتحالفة على عـدم الاعتراف بما قام به فيصل والمؤتمر السورى فان ذلك يعنى نشوب حرب مؤكدة ، واذا بدأت العداوات فان العرب سوف ينظرون الى الفرنسيين والانكليز نظرة تضعهم فى مصاف الأعداء ، وسوف يجرنا الفرنسيون الى حـرب ••• ليست فى مصلحتنا ولسنا على استعداد لخـوض غمارها » [١٩] ومن ثم نصح اللنبى — وألح فى النصح — أن تعترف الدول بسيادة فيصـل على أمة عربية أو اتحاد عربى يضم سـوريا وفلسطين والعراق ، على أن تبقى ادارة سوريا فى أيدى الفرنسيين وتشرف بريطانيا على ادارة فلسطين والعراق ، وذكر اللنبى أن هـذا الاقتراح — فى اعتقاده — سيكون مقبولا لدى فيصل وسوف يضمن لبريطانيا صداقة العرب •

ومع أن الاقتراح الذى تقدم به اللنبى الى حكومته لا يحمل غير اعتراف شكلى بما سماه سيادة فيصل على أمة عربية أو اتحاد عربى مع الاحتفاظ بالسلطة الحقيقية لبريطانيا وفرنسـا ، فان كيرزون لم يقبل الاقتراح ذاكرا أنه لا يقبل وصاية من فيصل يأخذ بمقتضاها سوريا وفلسطين والعراق قبل أن ينظر مؤتمر الصلح فى الموضوع برمته • ومن ناحيـة أخرى قال كيرزون انه لا يستطيع أن يفهم كيف يمـكن

---

(١٨) Woodward and Butler op. cit., p. 224, No. 218, Letter from the French Ambassador to Earl Curzon, [E 1461 / 2 / 44] Ambassade De France A' Londres, 11 Mars, 1920.

(١٩) Woodward and Butler op. cit., p. 231, No. 223, Field-Marshal Viscount Allenby (Cairo) to Earl Curzon No. 271 Telegraphic [E 1813 / 2 / 44] , Cairo, March 18, 1920.

التوفيق بين الاعتراف بفيصل ملكا على بلاد تمثل فلسطين جزءا منها وبين مطالب الصهيونية ؟ [٢٠] .

ودار حوار طويل بين اللنبى فى القاهرة وكيرزون فى لندن حول أنجع الوسائل لمعالجة الموقف فى سوريا وفلسطين وكانت مهمة اللنبى عسيرة لأنه بصفته موظفا مسئولا عن أمن المنطقة لا يستطيع أن ينكر الحقائق التى يلمسها عن كثب وهى حقائق لا ترضى عنها حكومته فى لندن وليس فى استطاعته أن يحجب هذه الحقائق عن لندن لأن اخفاءها قد يزيد الموقف تعقيدا ، فالمؤتمر السورى — فى رأى اللنبى — وتمثيله للشعب العربى فى سوريا وفلسطين وبيعة فيصل بالملك حقائق لا سبيل الى انكارها ولكن اثبات الحقائق لا يعفى اللنبى من مسئولية تنفيـذ السياسة التى تقررها حكومته وقد قرر المسئولون فى لندن أن المؤتمر السورى لا وجود له وأن فيصل ليس ملكا على الدولة السورية الموحدة وأن فلسطين ليست جزءا من سوريا ولكنها الوطن المرتقب الشـعب اليهودى ، وأحس اللنبى بخطورة المسئولية الملقاة على عاتقه فآثر أن يبصر حكومته بالحقائق أولا ثم يتقدم الى كيرزون بمشروع جمـع بين كل النقائض والأضداد ، فكتب الى كيرزون فى ٢٠ مارس ١٩٢٠ [٢١] قائلا ان الحقائق التى يعلمها أن مؤتمر دمشق يمثل رغبة الكثرة الراجحة فى سوريا رغم أن موقف الدروز والكنيسة الأرثوذوكسية يشوبه بعض التردد ثم اقترح أن يعترف مؤتمر الصلح بفيصل ممثلا لأهل سوريا وفلسطين مع الاعتراف لسكان هذين القطرين بحقهم فى الاتحاد تحت لواء سلطة واحدة ، على أن يعترف العرب بمطامع بريطانيا فى فلسطين والعراق ومطامع فرنسا فى سوريا ولبنان ومطامـع الصهيونية فى

---

(٢٠) Woodward and Butler op. cit., p. 231, No. 224 Earl Curzon to Field-Marshal Viscount Allenby (Cairo) No. 251 Telegraphic [E 1813 / 2 / 44] Foreign Office, March, 19, 1920.

(٢١) Woodward and Butler op. cit. p. 233 No. 225 Field-Marshal Viscount Allenby (Cairo) to Earl Curzon, No. 273 Telegraphic [E 1927 / 2 / 44] Cairo, March 20. 1920.

فلسطين !! ورحب كيرزون باقتراح اللنبى [٢٢] قائلا انه لن تكون هناك صعوبة فى الاعتراف بفيصل على النحو المقترح ولكن ذلك رهين بشرطين : أن يحضر فيصل الى مؤتمر الصلح ويعترف لفرنسا بوضعها الخاص فى سوريا ولبنان ، ولبريطانيا بوضعها فى فلسطين مع الاعتراف بالتزام بريطانيا نحو الصهيونيين باعداد وطن قومى لهم فى فلسطين . ونلمح من خلال هذا التصريح أن بريطانيا تريد أن تلزم فيصل بالحضور الى باريس ليعلن تسليمه بالمطامع البريطانية الفرنسية والصهيونية فى البلاد العربية على ألا تلتزم هى بشىء على الاطلاق !!

وأدرك اللنبى أن اقتراح كيرزون ينطوى على حيلة لن يتردد فيصل فى رفضها فرد على رسالة كيرزون قائلا « اننى أشك كثيرا فى قبول فيصل لهذا العرض الا اذا أبلغناه فى الوقت ذاته أن مؤتمر الصلح سوف يعترف فى معاهدة الصلح مع تركيا بمبدأ الوحدة بين سوريا وفلسطين فى ظل سلطة واحدة كما نصحت فى برقيتى رقم ٢٧٣ » [٢٣] وحذر اللنبى مرة أخرى السلطات البريطانية فى لندن من الاستهانة بأمر المؤتمر السورى وعدم الاعتراف به ممثلا لارادة الكثرة فى سوريا .

وبينما كان كيرزون يسعى جاهدا لاحباط عمل المؤتمر السورى فى دمشق ، تلقى رسالة من الكولونيل ماينرتزاجن فى القاهرة تؤكد الأنباء التى وردت عن انعقاد المؤتمر العراقى العام فى ٨ مارس ١٩٢٠ واعلان استقلال الدولة العراقية التى تمتد حدودها من شمال ولاية الموصل الى الخليج الفارسى ومبايعة الأمير عبد الله ملكا للعراق وانهاء الاحتلال البريطانى [٢٤] .

---

(٢٢) Woodward and Butler op . cit. p. 235, No. 228 Earl Curzon to Field - Marshal Viscount Allenby (Cairo) No. 264 Telegraphic [E 1927 / 2 / 44] Foreign Office, March 22, 1920.

(٢٣) Woodward and Butler op . cit., pp. 235 - 236, No. 229 Field-Marshal Allenby (Cairo) to Earl Curzon No. 282 Telegraphic [C 2068 / 2 / 44] Cairo, March 23, 1920.

(٢٤) Woodward and Butler op. cit. pp. 236 - 237, No. 230 Colonel Meinertzheger (Cairo) to Earl Curzon No. Pol./607 Telegraphic [E 2329 / 2 / 44] Cairo, March, 26, 1920.

وأبرق الملك حسين الى اللنبى مؤكدا مبدأ الوحدة العربية مذكرا اياه بكتاب ماكماهون المؤرخ فى ٣٠ أغسطس عام ١٩١٥ الذى أيد فيه رسالة من كتشنر تتعلق بالخلافة واستقلال العرب ، وأعرب الملك حسين فى برقيته الى اللنبى عن تأييده لقرارات المؤتمر السورى والمؤتمر العراقى ووصف تلك القرارت بأنها تتفق والمبادىء التى أعلنها مؤتمر الصلح [٢٥] .

ومع ذلك فان القضية سارت فى الأتجاه الذى رسمته لها السياسة البريطانية والفرنسية غير عابئة بحقوق الشعب العربى صاحب الكلمة الأولى فى تقرير مصيره ، رغم الاحتجاج الذى بعث به الملك حسين الى اللنبى معلنا أنه ليست له صلة بمؤتمر الصلح لأن ارتباطه كان مع بريطانيا عن طريق ممثلها فى مصر (يعنى ماكماهون) وأن بريطانيا هى التى دعته الى الثورة على تركيا وقبلت شروطه الخاصة باستقلال الوطن العربى وأنه ضحى بكل شىء فى سبيل الثورة على الأتراك استنادا الى ثقته فى بريطانيا [٢٦] .

ورفض فيصل — بحق — دعوة الحكومة البريطانية له لحضور اجتماعات مؤتمر الصلح ، وضاق المسئولون البريطانيون فى لندن ذرعا بموقف فيصل وقررت الحكومة البريطانية قطع الاعانات المالية التى كانت تقدمها له وذلك لحمله على قبول دعوة المجلس الأعلى للصلح بالتوجه الى أوروبا ، ولقى اللنبى نصيبا من التأنيب لأنه دفع لفيصل العون المالى المستحق عن شهرى يناير وفبراير ١٩٢٠ (مائة ألف جنيه) وطلب من اللنبى أن يتقدم بمذكرة عن أسباب هذه المخالفة التى ارتكبها لتعرض على مجلس الوزراء البريطانى [٢٧] ، وكان للجنرال اللنبى رأى

---

(٢٥) Woodward and Butler op. cit., p. 237., No. 231 Field - Marshal Allenby (Cairo) to Earl Curzon, No. 298 Telegraphic [E 2491 / 2 / 44] Cairo, March, 27, 1920.

(٢٦) Woodward and Butler op. cit. p. 246, No. 237 Allenby (Cairo) to Curzon, April 7, 1920.

(٢٧) Woodward and Butler op. cit., p. 286, Curzon to Allenby, Foreign Office June, 9, 1920.

فى الاعانات المالية التى تقدمها بريطانيا للحكام فى الأقطار العربية أدلى به فى كتابه المؤرخ ٢٨ مايو سنة ١٩٢٠ (٢٨) الى كيرزون ، حيث قال : ان سياسة الحلفاء فيما يتعلق بسوريا وفلسطين لا تتفق ورغبات المواطنين هناك وأن بريطانيا تواجه تهمة الحنث بوعدها وبسبب هذا الموقف انفتح المجال أمام الدعاية التركية والبلشفية ، وقد كانت الحكومة البريطانية فعلا تخشى أن ينحاز فيصل — بتأييد من البلشفيك — الى جبهة الأتراك القوميين فى نضالهم ضد بريطانيا وفرنسا ، اذا لم تتفق معه فرنسا بشأن الوضع فى سوريا ومن ثم اقترح كيرزون أن تسعى الحكومة الفرنسية لتحقيق هذا التفاهم مع فيصل ووضح كيرزون فى رسالته الى السفير الفرنسى فى لندن أن فيصل اذا رفض الحضــور بشخصه الى أوروبا فعليه أن يتحمل النتائج المترتبة على ذلك ومنها سحب الاعتراف به بصفته ممثلا للحجاز فى مؤتمر الصلح وايقاف الاعانات المالية التى يتلقاها من بريطانيا وفرنسا واعطاء فرنسا حـق احتلال الخط الحديدى بين حمص وحلب (٢٩) .

وتدخلت الصهيونية لتزيد الموقف اشتعالا فبعث هربرت صمويل برسالة الى كيرزون (٢٦ يونيو ١٩٢٠) قال فيها ان رئيس الوزراء الفرنسى مسيو ميليران يخشى أن يتجه العــرب الى ضرب الفرنسيين بالانجليز ولذلك فانه يطالب أن تتم كل الاتصالات من جانب بريطانيا مع فيصل عن طريق الجنرال غورو الحاكم العســكرى الفرنسى فى سوريا ... (٣٠) وكان صمويل قد عين حاكما عاما على فلسطين بعد أن قرر الحلفاء فى مؤتمر سان ريمو اخضاع سوريا للانتداب الفرنسى ووضع العراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب البريطانى مع الالتزام بانشاء الوطن القومى اليهود فى فلسطين ، وبلغ فيصل هـذا

---

(٢٨) Woodward and Butler op. cit., p. 274, No. 253, Allenby (Cairo) to Curzon No. 559 Telegraphic [E 6180 / 28 / 2854 / 44] Cairo May, 28, 1920.

(٢٩) Woodward and Butler op. cit., p. 271, No. 251 Curzon to the French Ambassador, London, May 18, 1920.

(٣٠) Woodward and Butler op. cit., p. 297 Herbert Samuel to Curzon, June 26 , 1920.

القرار رسميا فى رسالة من اللنبى مؤرخــة فى ٢٧ ابريل ١٩٢٠ (٣١) ورفض فيصل فكرة الانتداب قائلا « ان كلمة الانتداب لا حد لها وليس لها معنى صريحا وقد رفضتها الأمة رفضا باتا ولا يقبلها أحــد يريد الحياة ، فهى كلمة مطاطة ، تفسر طورا بأشد أنواع الاستعمار وتارة بأخف ضروب المعاونة الودية التى لا تمس الاستقلال ومع ذلك فقبولها عار على أمة تريد الحياة » (٣٢) .

كان تعيين هربرت صمويل حاكما عاما على فلسطين انتصــارا لمساعى قادة الصهيونية نحو الاستيلاء على فلسطين وامعانا فى التحدى لمشاعر الأمة العربية وقد تسربت أنباء تعيينه الى فيصل وشعب فلسطين فبعث فيصل بمذكرة الى الحكومة البريطانية يستفسر فيها عن صحة هذا النبأ الذى كان له أسوأ الأثر على الأمة العربية لأن صمويل عرف على نطاق عالمى بأنه صهيونى مثــله الأعلى أن يؤسس دولة يهــودية على أنقاض جزء كبير من سوريا (فلسطين) ووجه فيصل نظر الحكومــة البريطانية الى أن العرب يعتبرون هذا التعيين — اذا صح النبأ — قد تم ضد مصلحتهم وطلب فيصل من الحكومة البريطانية — اذا أكدت صحة الخبر — أن تعيد النظر فى الموضوع وتلغى قرار التعيين لأنه ضار بمصلحة العرب (٣٣) .

ومع أن اختيار هربرت صمويل حاكما عاما لفلسطين قد تم من قبل لويد جــورج عن قصد وتدبير لتنفيذ البرنامــج الصهيونى فى فلسطين (٣٤) ولأن صمويل من الملتزمين بأهداف الحركة الصهيونية . فان الأسباب التى ذكرها كيرزون لهذا التعيين فى معرض رده على رسالة الملك فيصــل تشير الى أن الخداع ما زال سمة ملازمــة للمسئولين

---

(٣١) Woodward and Butler op. cit., p. 253.

(٣٢) امين سعيد ، المصدر نفسه ص ١٥٠ .

(٣٣) Woodward and Butler op. cit. p. 284, Allenby to Curzon No. 257, Cairo, June 9, 1920.

(٣٤) E. Kedourie, The Chatham House Version and other Middle Eastern Studies, Sir Herbert Samuel and the Government of Palestine, pp. 52 - 54.

البريطانيين فى علاقاتهم مع العرب ، فقد جاء فى رسالة كيرزون الى اللنبى فى ١٤ يونيو ١٩٢٠ :

« لقد تقرر تعيين مستر صمويل مندوبا ساميا لفلسطين لاقتناع الحكومة (البريطانية) بأن سمعته المالية وخبرته الادارية تجعله أهلا لهذه المهمة بالذات ولأن نفوذه على الصهيونيين وعطفه المعروف نحو العرب (كذا) سوف يمكنانه من الحكم بالعدل والقسطاس المستقيم » وختم كيرزون كتابه قائلا « اننا نعتقد أن الأمير (يعنى فيصل) والعرب سيجدون صمويل صديقا مخلصا لهم » (٣٥) .

لقد أشار بعض الباحثين فى قضية فلسطين من أبناء الأمة العربية الى تعيين هربرت صمويل بما يوحى الى الأذهان أن العرب فى ذلك الوقت كانوا يجهلون صمويل وصلته بالحركة الصهيونية وأنهم (لم يقوموا بثورة ولا حتى بمظاهرات عند مجيئه وكانوا لا يعرفون الرجل ونشاطه) (٣٦) غير أن الوثائق تثبت غير ذلك . لقــد كان العرب فى سوريا وفلسطين يعرفونه حق المعرفة وقد رأينا فى تقرير الرائد كامب (انظر الفصل الثالث) ما قام به الشــعب العــربى فى فلسطين من استعداد لمقاومــة تنفيذ البنامج الصــهيونى ولم يكن تعيين هربرت صمويل سوى مرحلة من مراحل تنفيذ ذلك البرنامج . أما من الناحية الرسمية فان الملك فيصل لم يترك مجالا لمستزيد وقام اللنبى نفســه بنقل ما رأى وسمع من الشعب العربى الى المسئولين فى لندن :

« ان تعيين أحد اليهود ليكون أول حاكم عام على فلسطين ، أمر بالغ الخطورة فى نظر ســكان هذه البلاد . والسكان المسلمون فى حالة هياج شديد الآن لما ترامى اليهم من أنباء بأن وعد بلفور سوف يدرج فى معاهدة الصلح . أن المسلمين سوف يعتبرون تعيين أول حاكم عام

---

(٣٥) Woodward and Butler op. cit., p., 287, No. 261 Curzon to Allenby, Foreign Office, June, 14 - 1920.

(٣٦) جلال يحيى ، مشكلة فلسطين والاتجاهات الدولية . منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٦٥ ص ٦٨ — ٦٩ .

لفلسطين من اليهود — حتى لو كان بريطانى الجنسية — بمثابة تسليم البلاد فورا لادارة صهيونية دائمة » (٣٧) .

وفى هذا الوقت كانت فرنسا تمهد للاستيلاء على سوريا عن طريق اثارة الفتن والاضطراب وتسليح العناصر الموالية لها فى سوريا مما دفع الملك فيصل الى مناشدة رئيس وزراء بريطانيا أن يبذل مساعيه مع الحكومة الفرنسية لاطفاء نار الفتنة ، وجاء فى رسالة فيصل أن المسيحيين والمسلمين فى سوريا يعيشون اخوة فى قطر واحد بل انهم لم يتخلوا عن هذه الروح الأخوية حتى فى ظروف الحرب عندما حاول الأتراك (الاتحاديون) الايقاع بينهما ، وأضاف فيصل قائلا : « يبدو أن الادارة الفرنسية السيئة هى سبب المتاعب القائمة الآن فى كل مكان فى المنطقة الغربية واذا كانت المساعدة التى تريد فرنسا أن تقدمها لسوريا هى سياسة «فرق تسد» فانى أعلن بصراحة منذ الآن أننا نرفض هذه السياسة » (٣٨) .

وفى نهاية شهر يونيو ١٩٢٠ أعلنت الحكومة الفرنسية عن طريق سفير بريطانيا فى باريس (مستر داربى) أن وقت التحالف بين فرنسا وبريطانيا ضد فيصل قد انتهى وأنه منذ ذلك التاريخ يجب أن يترك أمر الاتصال بفيصل لفرنسا وحدها ، اذا رأت ما يدعو الى الاتصال ، وشكت الحكومة الفرنسية لبريطانيا أن فيصل يحاول أن يقذف بالفرنسيين الى البحر ، ومن ثم فان الحكومة الفرنسية ليست ملزمة بالاعتراف به ولن تسمح لفيصل أن يفرض ارادته عليها (٣٩) .

وكانت هذه الرسالة بمثابة انذار من الحكومة الفرنسية بأنها قررت أن تحسم القضية بالتدخل العسكرى فى سوريا وهذا ما حدث فى شهر يوليو ١٩٢٠ عندما أرسل الجنرال غورو انذارا فى ١٤ يوليو

---

(٣٧) Woodward and Butler op. cit., p. 255, No. 246 Allenby (Cairo) to Curzon, May 6, 1920.

(٣٨) Woodward and Butler, op. cit. pp. 283 - 284 No. 256, Allenby (Cairo) to Curzon, June, 4, 1920.

(٣٩) Woodward and Butler op. cit., p. 297, The British Ambassador, Paris, to Curzon, June, 29, 1920.

الى الحكومة السورية مطالبا بتسريح الجيش السوري والاعتراف بالانتداب الفرنسي ، ومع أن الحكومة السورية أكرهت على قبول الانذار فان القوات الفرنسية زحفت نحو دمشق وبدأت الاشتباكات في ٢٢ يوليو واستبسلت القوات العربية الشعبية في الدفاع عن أرضها ضد الغزو الأجنبي الجديد ولكن قوة السلاح الفرنسي أسكتت صوت الحق العربي ودخلت القوات الفرنسية دمشق في ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٠ على أشلاء شهداء « ميسلون » (٢٤ يوليو) وعزل الجنرال غورو الملك فيصل ليؤلف حكومة من العناصر الموالية للاحتلال الفرنسي ونزع سلاح الجيش العربي وأحال قوات الشعب الى فرقة من الشرطة وأعلن نهاية حكم فيصل وشرع في محاكمة الوطنيين الذين دفعوا ضريبة الوطن من عرقهم ودمائهم وفي ٢٧ يوليو ١٩٢٠ طلب من فيصل مغادرة دمشق ولم يذعن فيصل لأمر غورو فأخرج عنوة من عاصمة بلاده في ٢٨ يوليو من العام ذاته فنقل الى حوران ومنها الى حيفا ثم توجه الى ايطاليا (٢٨ أغسطس ١٩٢٠) ليواصل الدفاع عن قضية العرب وكان يرافقه احسان الجابري وساطع الحصري ونوري السعيد [٤٠] ومن مدينة كومو في ايطاليا بعث بمذكرة طويلة الى لويد جورج (١١ سبتمبر ١٩٢٠) بسط فيها شكاته وناشد بريطانيا أن تنجز وعدها للعرب [٤١] وأسدل الستار — الى حين — على مأساة الحرية في الشرق العربي ولما يجف المداد الذي سطرت به مبادىء مؤتمر السلام .

وفي مصر واصلت بريطانيا مساعيها لضرب الوحدة الوطنية عندما أخفقت في قمع ثورة الشعب المصري بقيادة سعد زغلول ، فسعت قبل وصول لجنة ملنر في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩ الى اثارة الفتنة الداخلية عندما كلفت يوسف وهبة باشا بتأليف الوزارة على اثر استقالة وزارة محمد سعيد باشا التي كان من رأيها تأجيل وصول لجنة ملنر حتى يتم الصلح بين الحلفاء والدولة العثمانية [٤٢] ، لقد أدركت الحكومة

---

(٤٠) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٤١) انظر نص المذكرة في أمين سعيد ، المصدر نفسه ص ٢١٢—٢٣٣

(٤٢) محمد أنيس ، دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ ، ج ١ ص ٥٠ .

البريطانية أن اندلاع ثورة ١٩١٩ فى مصر يقتضى تغييرا فى سياستها وان كان شكليا وتغييرا فى مواقع المسئولين عن تنفيذ تلك السياسة فى مصر وكان من نتائج هذا الاتجاه ابعاد ريجنالد وينجت وتعيين الفيلد مارشال اللنبى خلفا له على دار العمادة فى مصر ، وارسال لجنة ملنر (٧ ديسمبر ١٩١٩ — ٦ مارس ١٩٢٠) للبحث فى أسباب ما وصفته الدوائر البريطانية الرسمية بالاضطرابات الأخيرة فى مصر والنظر فى وضع نظام اساسى للحكم فى المستقبل فى اطار الحماية البريطانية وكان رئيس اللجنة اللورد ملنر ومن أعضائها « Cecil Hurst » و « J. A. Spender » واذا كان كيرزون قد حدد مهمة اللجنة فى احدى رسائله الى اللنبى (٥ أكتوبر ١٩١٩) بأنها تتلخص فى وضع تفاصيل لدستور يحدد دائرة اختصاص كل من بريطانيا باعتبارها صاحبة الحماية على مصر والحكومة المصرية (٤٣) ، فان اتجاه الحكومة البريطانية كما تصوره ملنر كان لا يهدف الى تصفية الحماية بقدر ما كان يرمى الى دعمها (٤٤) . ومن ثم يتضح أن الغرض من ارسال اللجنة لا يعدو أن يكون ذراً للرماد فى العيون وهذا ما يفسر موقف الشعب المصرى ودوره الايجابى فى مقاطعة اللجنة . وتحدثنا وثائق ثورة ١٩١٩ عن رأى القوى الوطنية فى اللجنة كما تحدثنا عن الموقف الداخلى فى مصر والعنف الذى قابلت به قوات الاحتلال مظاهرات الوطنيين والحصار الذى ضربه أهل مصر على لجنة ملنر حتى باءت بالفشل .. فقد جاء فى تقرير لسعد زغلول (٢٨ أغسطس ١٩١٩) : « لابد أن تكونوا علمتم بأن اللجنة الانجليزية التى تعينت برئاسة اللورد ملنر للتوجه الى مصر ستتوجه قريبا وأن مهمتها البحث عن أسباب الاضطرابات الأخيرة والنظر فى نظام يكفل تحت الحماية الانجليزية التدرج فى الحكم الذاتى فمهمتها مما توسعت ومما لاحظت فى تنفيذها مصلحة المصريين لا تنطبق مع أمانيهم ولا تتفق مع مطلب الاستقلال التام الذى كلفتنا الأمة بالسعى اليه وجدنا للسعى له ما استطعنا اليه سبيلا ولذلك

---

(٤٣) E. Kedourie op. cit., p. 120, Quoting Documents Collected for The Special Mission, Vol. 3, p. 112. F. O.848/1.

(٤٤) E. Kedourie, op. cit., p. 120.

استحسنا ونستحسن رأيكم فى اجتناب مخابرة هذه اللجنة بأى طريقة كانت » [٤٥] . وتصف رسائل عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول فى باريس فظائع الاحتلال البريطانى فى ضرب ثورة ١٩١٩ ويقظة شعب مصر ونجاحه فى احباط الفتنة الداخلية التى أراد الاستعمار البريطانى اثارتها باسناد الوزارة الى يوسف وهبة . قال عبد الرحمن فهمى فى احدى رسـائله : « ان المظاهرات التى حصلت بالاسكندرية ونوهتم بجوابكم أن أخبارها ساءتكم لم تكن شيئا بجانب ما حصل بعدها بمصر والاسكندرية وأرسلنا ما وصل الى علمنا عنها تلغرافيا اليكم ، نسأل الله الخلاص مما نحن فيه » .

« ان المظاهرات التى حصلت أمس بالاسـكندرية قوبلت بعنف وشدة متناهية والأخبار متناقضة فى عدد القتلى والجـرحى ولذلك ما أمكننا ذكرها بالتلغراف الذى أرسلناه لسعادتكم اليوم وأهم شىء فى هذا الموضوع هو نص استقالة محافظ الاسكندرية التى يقول فيها حرفيا : « ان الرصاص يطلق فى شوارع المدينة من غير داع وقد ارتكب أحد المفتشين خطأ لا مبرر له ولم أبلغ شيئا من الحوادث ولهذا أقدم استقالتى » [٤٦] .

وعن مهمـة اللنبى ومقاطعـة الشعب لحكومة يوسف وهبة كتب عبد الرحمن فهمى فى ٣ ديسمبر ١٩١٩ :

« ١ — فلقد عاد اللورد اللنبى من انجلترا مزودا بشدة متناهية فى كل شىء .

« ٢ — حصل اجتماع كبير بالكنيسة المرقسية يوم الجمعة ٢١ نوفمبر حضره أكثر من أربعة آلف شخص من علية الأمة القبطية وكتبوا احتجاجا شديدا جدا ضد ترشيح يوسف باشا وهبة لرئاسة الوزارة وضده اذا قبل وهو غاية فى الاحكام » [٤٧] .

---

(٤٥) محمد أنيس ، المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٢ .
(٤٦) محمد أنيس ، المصدر نفسه ص ١٥٥ — ١٥٦ من عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول (غير مؤرخة) .
(٤٧) محمد أنيس ، المصدر نفسه ص ١٥٧ — ١٥٨ .

« ٦ — لقد نشط قلم المطبوعات نشاطا زائدا فى مراقبة الجرائد والتضييق عليها فهو يستدعى من وقت الى آخــر أصحاب الجــرائد ورؤساء تحريرها ويهددهم بالقتل ان لم يعتدلوا فى لهجتهم ولا يتعرضوا للسلطات والوزراء والحالة العامة حتى أن مستشار الداخلية اشترك فى قلم المطبوعات فى هذه المأمورية وهو الآخر يستدعى أصــحاب الجرائد ويهددهم بهذه الصفة .

« ولقد أصدرت السلطة العسكرية أمرها أمس تاريخه بقفل جريدة مصر وأظن أن مقالات سينوت بك من أكبر الأسباب لهذا القفل ولايعرف الى أى حد تصل بنا هذه المعاملة القاسية ولا أدرى ما هى قيمة أبحاث لجنة ملنر فى الشئون المصرية بعد قفل ثلاثة (هكذا وردت) جرائد عربية وكم أفواه الباقية وسيف الأحكام العرفية لا يزال مسلولا على رقاب الجميع بل مسلولا بحالة أشد مما كان عليها ابان الحرب . نسأل الله الخلاص » (٤٨) .

ثم يتحدث عبد الرحمن فهمى عن وصول لجنة ملنر ومقاطعــة الشعب لهــا :

« ٢ — وصلت لجنة اللورد ملنر صباح الأحد ٧ الجارى (ديسمبر ١٩١٩) بطريقة مستترة جدا ، بحيث لم يعلن عنها فى الجرائد الا حين وصولها الى القاهرة .

« حيا الله الأمة المصرية فقد نفذت ارادتها التى أعجبت الوفــد وأحكمت مقاطعتها لهذه اللجنة احكاما شديدا جدا وراقبت ذوى النفوس الصغيرة الذين كان يظن تقدمهم للتكلم مع اللجنة مراقبة شديدة حلت أعصاب « الحزب المستقل الحر » الذى كونته يد الغاصب وأمواله لهذه الغاية » .

ويمضى عبد الرحمن فهمى قائلا :

« ٤ — لم تكتف الأمة المصرية بمقاطعة اللجنــة الانجليزية بل

---

(٤٨) محمد أنيس ، المصدر نفسه ص ١٥٩ — ١٦٠ .

أرادت أن تظهر استياءها للملأ بطريقة محسومة فأضربت تلاميذ المدارس وطلبة المعاهد الدينية عن الدراسة وأضرب المحامون الأهليون وكذلك المحامون الشرعيون لمدة سبعة أيام ابتداء من ١٧ ديسمبر الجارى ، كذا أضرب المحامون الوطنيون لدى المحاكم المختلطة سبعة أيام كذلك أضربت الطوائف الأخرى كالحوذية وعمال الترام ولفافى السجاير الخ وكانت صيغة اضرابهم لا تخرج عن احتجاجهم على الحماية واحتجاجهم على قدوم اللجنة الانجليزية وطلب الاستقلال التام وتوجت هذه الحركة المباركة باحتجاجين عظيمين لهما من الأهميــة المكانة الأولى ألا وهما احتجاجا هيئة كبار العلماء والمجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية وأولهما خاص بالاحتجاج على دخول العســاكر الانجليزية يوم ١١ ديسمبر داخل الأزهر الشريف » (٤٩) .

وفى ٧ يناير ١٩٢٠ كتب عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول :

« أحمد الله الذى وفقنا الى احكام عملية مقاطعة اللجنة احكاما فاق حد المنتظر وأذهل الجميع هنا وأصبح أعضــاء اللجنة الانجليزية يتنقلون لزيارة من يتوسمون فيهم خيرا لمناقشتهم أو قبول مفاوضتهم فلم يجدوا الا اعراضا ونفورا من كل مفاوضة وأصبح ثابتا عند الجميع أن الهيئة الوحيدة التى يمكن المفاوضة معها باسم الأمة المصرية هى هيئة الوفد المصرى الموقرة » (٥٠) .

وقد أكد اللورد ملنر نفسه خطورة المقاطعة التى واجهتها لجنته فى مصر عندما أعلن « أنه كان دائما يشعر أن الوزراء كانوا يتطلعون فى قلق الى خروجنا من البلاد دون أن يلزموا أنفسهم بأى حال من الأحوال » كما أعلن يوسف وهبة فى مقابلة له مع ملنر فى ٢٩ فبراير سنة ١٩١٩ أن وزراء حكومته يؤثرون ألا يستشاروا فى أية مقترحات قد ترى لجنة ملنر أن تتقدم بها (٥١) .

---

(٤٩) محمد أنيس ، المصدر نفسه ص ١٦٢ — ١٦٥ : من عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول ، مصر ، فى ٢٧ ديسمبر ١٩١٩ .

(٥٠) محمد أنيس ، المصدر نفسه ص ١٧٠ : من عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول ، مصر ، فى ٧ يناير سنة ١٩٢٠ .

(٥١) E. Kedourie op. cit., p. 124.

ومع ذلك تقدمت لجنـــة ملنر بتقريرها الى وزير الخارجية مستر كيرزون فى ١٧ مايو ١٩٢٠ وكانت أهم مقترحاتها عقد معاهدة مع مصر وتحديد مدى اشراف بريطانيا على شئون مصر بحيث تنحصر ممارسة النفوذ المباشر فى أضيق نطاق ممكن مع الاعتماد خارج ذلك النطاق على النفوذ الأدبى للمستشارين البريطانيين الذين يعملون مع الوزراء المصريين [٥٢] فى ظل ادارة مصرية • وعلى ضوء توصيات اللجنة بدأت المباحثات بين الحكومة البريطانية وعدد من رؤساء الوزارات المصرية الذين لا يملكون حق التحدث باسم الشعب المصرى لحل القضية المصرية على أساس من التوفيق بين بقاء الاحتلال البريطانى ورعاية المصالح الأجنبية من ناحية ، واعطاء مصر قدرا من الحكم الذاتى من ناحية أخرى وكان طبيعيا أن تجرى هذه المفاوضات بمعزل عن رأى الكثرة من سكان البلاد الذين وقفوا مع سعد زغلول مطالبين بالاستقلال التام وبدأت فى عهد وزارة عدلى يكن من يوم ١٢ الى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢١ وتعثرت المفاوضات واضطر عدلى الى تقديم استقالته وتعذر على بريطانيـــا تأليف وزارة مصرية تحظى باحترام الشعب وأخذ اللنبى يضغط على حكومته لتقبل مقترحاته الخاصة بالتعاون مع من سماهم « العناصر المعتدلة » لوضع تسوية دائمة لنقضية المصرية وتمخضت هذه المقترحات عن تصريح (٢٨ فبراير ١٩٢٢) بعد أن كمم اللنبى أفواه المعارضة الوطنية واعتقل عبد الرحمن فهمى (أكتوبر ١٩٢٠) وسبعة وعشرين من قادة الحركة الوطنية وحوكم عبد الرحمن فهمى باعتباره متهما أول فى قضية المؤامرة الكبرى [٥٣] وحكم عليه بالاعدام وترددت لندن فى تأييد الحكم واحتج الوفد المصرى فى باريس على الحكم الجائر وعارض ملنر تأييد الحكم قائلا : « اننا اذا أيدنا هذه الأحكام فاننا نكون قد ارتكبنا خطأ أكبر مما فعلناه فى محاكمة دنشواى » [٥٤] وأخيرا أوقفت السلطات البريطانية تنفيذ الأحكام وخففت الحكم على عبد الرحمن

---

(٥٢) E. Kedourie op. cit., p. 123.

(٥٣) أجمع المؤرخون أن هذه القضية ملفقة ، انظر محمـــد انيس المصدر نفسه ص ١٨ •

(٥٤) E. Kedourie op. cit., p. 131.

فهمى الى السجن • كذلك مهد اللنبى لتصريح ٢٨ فبراير باعتقال سعد زغلول ونفيه الى جزائر سيشل (٢٣ ديسمبر ١٩٢١) •

كان تصريح ٢٨ فبراير أحد انجازات اللنبى التى حققها فى وجه معارضة عنيفة من حكومته حتى هدد بالاستقالة أكثر من مرة ، وكان اللنبى يعتقد أن الجو قد خلا له بعد اسكات صوت المعارضة الوطنية لينفرد بالتعاون مع العناصر التى لم تقف الى جانب الشعب (العناصر المعتدلة) فى سبيل تنفيذ السياسة الجديدة التى ترمى الى الغاءالحماية مع الاحتفاظ لبريطانيا بالسلطات التى كانت تمارسها فى ظل الحماية وهى تأمين مواصلات الامبراطورية فى مصر والدفاع عن مصر وحماية المصالح الأجنبية فى مصر ومسألة السودان مع بقاء قوات الاحتلال •

وأذعن مجلس الوزراء البريطانى لوجهة نظر اللنبى ومستشاريه بعد استدعائه الى لندن للتشاور وأعلن تصريح ٢٨ فبراير بعـــد مفاوضات بين اللنبى وثروت باشا ، مؤذنا باستقلال مصر واتخاذ ولى الأمر فيها « السلطان أحمـــد فؤاد » لقب ملك مصر ولكن بريطانيـــا احتفظت لنفسها بالشروط الأربعة سالفة الذكر فيما يتعلق بتـــأمين المواصلات الامبراطورية والدفاع عن مصر ورعاية المصالح الأجنبية ومسألة السودان • ومن الواضح كما قال الأستاذ العقاد أن بريطانيا « لو لم تحتفظ بهذه الشروط الأربعة لكان فى جيشها المقيم بالبـــلاد الكفاية لتحقيق كل دعوى تدعيها وتضييع كل استقلال تعتصم به البلاد المحتلة » (٥٥) •

لكن الحكومة البريطانية أدركت بعد فترة من عدم الاستقرار فى مصر أن السياسة التى تبناها اللنبى بتأييد منها لحل القضية المصرية أفضت بهم الى طريق مسدود وأن اعتماد بريطانيا على من سمتهم « المعتدلين » فى مصر لتنفيذ سياستها كان بمثابة امتطاء صهوة الحصان الخاسر كما يقول التعبير الانجليزى ، ولم تجد مناصا من الافراج عن سعد زغلول بعد اعلان تصريح ٢٨ فبراير فعاد سعد من منفاه وخاض

---

(٥٥) عباس محمود العقاد ، سعد زغلول ص ٤١٤ .

الوفد أول انتخابات شعبية بعد الغاء الحماية واعـــلان النظام الملكى الدستورى فى مصر، وقال الشعب العربى فى مصر كلمته فى الانتخابات (٢٧ سبتمبر ١٩٢٣) وحمل سعدا على الأعناق الى كرسى رياسة الوزارة ، وزارة الشعب الأولى (٢٨ يناير ١٩٢٤) ومنذ ذلك التاريخ بدأ الجهاد الوطنى الشاق لتحقيق الاستقلال لأن سعدا « كان يقول اذا ذكرت وزارة الشعب الأولى وأزماتها ومعضلاتها : ان عيبنا الأكبر فى تلك الوزارة أننا أخذناها جدا وصدقنا أننا مستقلون » (٥٦) .



(٥٦) العقاد ، المصدر نفسه ص ٤٣٩ .

الفصل الخامس

الصَّهْيُونِيَّة

● ترقب اليهود للمعجزة — المركز الروحى ليهود المنفى « Diaspora » جبل صهيون — أحلام اليهود فى العودة الى فلسطين — الصهيونية السياسية فكرة حديثة — البحث عن أسس فلسفية — موسى هس — المسألة اليهودية — هرتزل والدولة اليهودية — خلاف يهودى حول الصهيونية — بنسكر والحل الاقليمى — التحرر النفسى — الاحتماء بالنفوذ البريطانى — مؤتمر بال — وايزمان يضفى على الصهيونيه طابعا فلسفيا — براندايس — أحدها عام — كثره يهود العالم ضد الصهيونية — توينبى وأبا ايبان — معارضة عاتية ضد الصهيونيه فى بريطانيا وفرنسا — تحالف الصهيونية والاستعمار البريطانى — وزارة الخارجيةالامريكية ضد وعد بلفور — الحرب العالمية الأولى ترجح كفة الصهيونية — النظام المصرفى الامريكى فى قبضه اليهود الالمان — ابتزاز صهيونى — « Warburg » — أسرة « Herr Warburg Untermeyer » — التنسيق بين براندايس ووايزمان والرئيس ويلسون — تحول أمريكى رسمى لصالح الصهيونية — السناتور « J.A. Reed » يعارض وعد بلفور — الصهيونية تعد وثيقة الانتداب البريطانى على فلسطين — اللجنة الصهيونية فى القدس — وايزمان يهدد — ثورة شعب فلسطين — لجان التحقيق — بلفور فى فلسطين يرافقه بولسون نيومان — بلفور يتحرك فى فلسطين تحت الحراسة المشددة — المتظاهرون يرمون بلفور بالحجارة — عصبة الامم تجيز وعد بلفور ووثيقة الانتداب على فلسطين — الصهيونية تحقق اهدافها .

* * *

الصـــــهيونية

من المعالم الشهيرة فى تاريخ اليهودية قلعة مدينة القدس القديمة المعروفة بجبل صهيون وهو معلم ارتبط فى أذهان اليهود ومشاعرهم بتاريخ عقيدتهم وذكريات ماضيهم البعيد باعتباره المركز الروحى ليهود المنفى فى ترقبهم للمعجزة التى تعود بهم الى فلسطين مرة أخرى ومنه استمدت الصهيونية الحديثة اسمها واتخذ منه دعاتها أساسا فلسفيا لفكرتهم التى تسعى الى تحقيق أحلام اليهودية فى العودة الى الأرض الموعودة عن طريق العمل السياسى والنفوذ الاقتصادى والغزو الحربى والارهاب الفكرى تحت ستار مقاومة نزعة عـــداء السامية وذلك على نقيض المعتقدات السائدة لدى الكثرة الساحقة من يهود العالم الذين كانوا يتطلعون الى العودة من منطلق الاعتقاد فى المسيح المنتظر .

ولعل منشأ الفكرة الصهيونية فى صورتها الحديثه يرجـــع الى الدعوة التى تبناها ثلاثة من رواد الصهيونية الأوائل خلال القرن التاسع عشر وكان لكل منهم تصوره الخاص للفكرة الصهيونية ، وأول هؤلاء موسى هس (١٨١٢ ـــ ١٨٧٥) الذى حاول فى كتابه « روما والقدس» (١٨٦٢) أن يجد للصهيونية أسسا فلسفية تجعل منها مذهبا كغيرها من المذاهب التى ظهرت فى القرن التاسع عشر [١] . ويعتبر هس فى نظر الصهيونيين أول من وضع النظرية وحدد معالم الطريق للحــــركة الصهيونية [٢] وكان فى اعتقاده أن فرنسا ـــ بما لها من نفوذ فى شرقى البحر المتوسط ـــ ستقوم بمساعدة اليهود لاقامة مستعمرات تمتد من السويس الى القدس ومن ضفاف الأردن الى ساحل البحر المتوسط [٣].

---

(١) ابراهيم الحاردلو : الصهيونية وعـــداء السامية ، قسم التأليف والنشر ـــ جامعة الخرطوم ١٩٧٠ ص ٩ .

(٢) Leo Pinsker, Auto Emancipation . The Zionist Organization of America, Washington D. C. 1944 p. 4.

(٣) L. Stein, The Balfour Declaration, London, 1961 p.p. 11 - 12 .

ثم جاء ليو بنسكر [٤] بكتابه « التحرر النفسى » الذى نشر فى برلين عام ١٨٩٢ ونادى فيه بحل اقليمى للمسألة اليهودية قائلا : « ليس اليهود أمة لأنهم يفتقرون الى أحد المقومات الأساسية للأمة وهى العيش المشترك فى رحاب دولة واحدة • وما دام اليهود يهيمون فى دار الشتات « Diaspora »فانهم لن يستطيعوا تحقيق آمالهم فى العيش كما تعيش الأمم • وعندما حاول اليهود الانصهار فى المجتمعات الأخرى ونبذوا — الى حد ما — قوميتهم ، لم تعترف لهم تلك المجتمعات بحق المشاركة فى الوطن على قدم المساواة ، ولكن أكبر عقبة تحول بين اليهود وبين تحقيق وجودهم القومى المستقل هى عدم احساسهم بالحاجة الى ذلك الوجود المستقل الذى استعاضوا عنه بوحدتهم الروحية بعد زوال كيانهم السياسى [٥] ثم توجه بنسكر الى اليهود بنداء لنبذ ما سماه الفكرة الخيالية التى وقرت فى أذهانهم بأن قبولهم الاستكانة فى دار الشتات هو قدرهم المحتوم [٦] •

ويمكن القول ان الفكرة الصهيونية التى تهدف الى حل المسألة اليهودية عن طريق العمل السياسى المنظم والنشاط الدبيلوماسى لم تظهر الا فى نهاية القرن التاسع عشر مع ظهور كتاب « الدولة اليهودية » فى فبراير ١٨٩٦ لتيودور هرتزل (١٨٦٠ — ١٩٠٤) وانعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بال (بسويسرا) فى ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ •

---

(٤) ولد ليو بنسكر فى بولندا عام ١٨٢١ ومات فى روسيا سنة ١٨٩١ . كان طبيبا مرموق المكانة • شارك بقلمه فى أول مجلة يهودية فى روسيا ودعا الى المساواة فى الحقوق بين اليهود والمواطنين الروس وكان من دعاة الانصهار « Assimilation »ولكنه غير رأيه بعد حوادث الاضطهاد التى وقعت على اليهود فى اوديسا عام ١٨٧١ ثم تخلى عن دعوة الانصهار بعد موجة الاضطهاد التي سميت بمذابح سنة ١٨٨١ فى روسيا ضد اليهود وأخذ يدعو الى القومية اليهودية باعتبارها حلا للمسألة اليهودية لأن الانصهار لم يعد فى نظره حلا مجديا ما دام اليهود يعيشون بلا وطن تحت مطارق عداء السامية .. ومن ثم أصدر كتابه « التحرر النفسى » وأصبح فيما بعد رئيسا لجمعية أحباب صهيون فى بلدته •

انظر : The Universal Jewish Encyclopaedia New York 1941 Vol. 8 p. 537.

(٥) Pinsker op. cit. pp. 8 - 9 .

(٦) Pinsker op. cit. p. 18.

لقد كان ميلاد الحركة الصهيونية فى صورتها السياسية فى نهاية القرن التاسع عشر ظاهرة جديدة تختلف اختلافا جوهريا عن فكرة العودة كما تصورها يهود العالم حتى نهاية ذلك القرن وبداية القرن العشرين •

كانت العودة الى فلسطين قبل هرتزل أملا دينيا يتطلع اليهود الى تحقيقه بفعل الارادة الالهية ولم يكن لديهم أدنى تصور لتحقيق العودة فى اطار الفكرة القومية الحديثة تحت راية الوطن القومى وحماية القانون العام • بل كانوا يرون أية مبادرة بشرية لتحقيق العودة بمجهود بشرى ضربا من الاثم (٧) •

لقد سلفت الاشارة الى المحاولات التى بذلت منذ عهد بالمرستون فى القرن التاسع عشر (أنظر الفصل الثانى) لتسلل اليهود الى فلسطين تحت شعار اصلاح أوضاع اليهود فى الشرق برعاية الحكومة الانجليزية وقد ازداد هذا النشاط اليهودى بعد أن حسمت الدول الأوروبية الكبرى النزاع بين محمد على باشا والى مصر والسلطان العثمانى (١٨٣٩ — ١٨٤٠) وعادت سوريا الى دائرة النفوذ العثمانى وكان زعيم حركة التسلل اليهودى الى فلسطين موسى مونتفيور (١٧٨٤—١٨٨٥) (٨) ومن ثم شرع بالمرستون بعد تسوية عام ١٨٤٠ (معاهدة لندن) فى تنفيذ مقترحات مونتفيور ، وكان محور تلك المقترحات تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين لأن ذلك من شأنه أن يخلق لانجلترا مركزا لدعم نفوذها السياسى ورعاية مصالحها الاقتصادية فى سوريا ونشر الحضارة فى ذلك الاقليم لقاء تأييد انجلترا لمطالب اليهود أمام الباب العالى بانشاء مستعمرة يهودية فى فلسطين لأغراض التنمية الزراعية والتجارية (٩) •

---

(٧) Arnold Toynbee, A Study of History (Oxford U. Press) London, 1969 Vol. 8 p. 298.

(٨) Nahum Sokolow, History of Zionism, Longmans, London, 1919, Vol. I pp. 115 , 116 .

(٩) W. T. Young to Viscount Canning F. O. 78 / 501 (Separate) London, 13 Jan. 1842, Enc. 1 to 29. A. M. Hyamson, =

ثم ظهرت حركة « أحباب صهيون » فى روسيا القيصرية (١٨٨٤) اثر موجة الاضطهاد التى اجتاحت اليهود فى عام (١٨٨١ و ١٨٨٢) ولكن كل هذه الحركات كانت مجرد ردود فعل لما واجه اليهود فى أوروبا الغربية وروسيا القيصرية من ضروب الاضطهاد التى عرفت بعداء السامية .

وفى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أثارت قضية دريفوس الشهيرة (٢٥ أكتوبر — ٢٣ ديسمبر ١٨٩٤) (١٠) اهتماما كبيرا فى العالم الأوروبى واليهودى وبلغت كراهية اليهود ذروتها فى فرنسا أثناء تلك الفترة عندما كانت الهتافات تدوى فى شوارع باريس بسقوط اليهود « a bas les juifs »(١١) وقضية دريفوس هى التى دفعت تيودور هرتزل مراسل الصحيفة النمساوية « Neue Freie Presse » الى الشروع فى اعداد كتابه « الدولة اليهودية » فى صيف عام ١٨٩٥ وبعد فترة من التردد قام هرتزل بنشر الكتاب فى ١٤ فبراير عام ١٨٩٦ بتشجيع زميله ماكس سيمون ناردو الذى أصبح ساعده الأيمن بعد مؤتمر بال ، فأثار القضية اليهودية (قضية الاضطهاد والتشرد) على نطاق واسع وقوبل كتابه بالاعراض والنقد فى بعض الدوائر وبالتأييد فى دوائر أخرى وأخيرا استجمع هرتزل قواه ودعا الى عقد المؤتمر

= The British Consulate in Jerusalem, London 1939 Vol I, pp. 41 - 46 .

يلاحظ أن أسطورة اقامة قاعدة صهيونية فى فلسطين لنشر الحضارة ورعاية المصالح الانجليزية ضد ما سموه « البربرية الآسيوية » هى نفس الاسطورة التى رددها هرتزل فى كتابه « الدولة اليهودية » وذكرها « C. P. Scot » فى رسالته بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩١٤ الى لويد جورج .
انظر :

Herzl, The Jewish State Fifth Ed. London, 1968 p. 30.,
E.D. Blanche, The Balfour Delcaration, Jerusalem, 1940 p. 25 .

(١٠) انظر موجز قضية دريفوس فى مجلة الرسالة (القاهرة) عدد ١١٠ بتاريخ ١٢ أغسطس ١٩٣٥ ص ١٢٩٠ — ١٢٩٣ للاستاذ محمد عبد الله عنان .

(١١) James Parkes, Five Roots of Israel, London, 1964, p. 26 .

الصهيونى فى مدينة « بال » عام ١٨٩٧ وتأسست المنظمة الصهيونية واتخذ المؤتمر قراره الذى جاء فيه أن الصهيونية تهدف الى انشاء وطن لليهـود فى فلسطين تحت حماية القانون العـام [١٢] • ويرى قادة الصهيونية أن أهمية الدور الذى لعبه هرتزل لا تكمن فى اصـدار كتـاب « الدولة اليهودية » بقـدر ما ترجع الى قدرته على التنظيم ودعوته الى عقد أول مؤتمر صهيونى ، ذلك أن شخصية هرتزل كانت موضع نقد اذ وصفت أفكاره عن الصهيونية بالسذاجـة والسطحية ووصف هو بأنه كان يجهل اليهودية وآدابها وثقافتها كما يجهل جذور الحركة الصهيونية التى سبقت دعوته •

ومع أن حركة هرتزل — كغيرها من الحركة اليهودية التى سبقتها — كانت نابعة فى المقام الأول من احساس الجاليات اليهودية بأنها أقليات مشردة ومضطهدة ، فقد حاول دعاة الصهيونية السياسية بعد مؤتمر بال أن يضفوا عليها طابعا فلسفيا عقائديا وزعـم حاييم وايزمان أنه عندما يتحدث عن الصهيونية فانه ينطق بلسان ملايين اليهـود الذين لا يستطيعون التحدث بما تنطوى عليه صدورهم [١٣] ومن السخرية أن يدلى وايزمان بهذا الحديث الى آرثر بلفور فى عام ١٩٠٦ عندما كان يهود العالم ينظرون الى صهيونية هرتزل نظرة ارتياب ولم يكن وايزمان وحده فى هذا الادعاء ولكن كانت تؤازره حفنة من زعماء الحركة الجديدة منهم ناحوم سوكولوف (١٨٦٠ — ١٩٣٦) مؤرخ الصـهيونية والناطق باسمها بعد موت هرتزل وسفيرها فى القارة الأوروبية ومنهم «أحدها عام» (١٨٥٦ — ١٩٢٧) « Asher Ginsberg » فيلسوف الحركة الصهيونية وناقدها ، ومنهم القاضى الأمريكى لوى براندايس •

ان الصهيونية فى نظر وايزمان هى قوة للحياة والابداع تسرى فى أوصال اليهود وليست حاجة عمياء فى نفس شعب مشرد يبحث عن وطن يؤويه ، ولا يوافق وايزمان على رأى هرتزل الذى يرد منشأ الحركة

---

(١٢) Herzl, op. cit. p. 5.

(١٣) Chaim Weizmann, Trial and Error Hamish Hamilton, London 1950, p. 144.

الصهيونية الى مأساة الاضطهاد والفقر والشتات [١٤] بل يردها الى عزم الشعب اليهودى على الاحتفاظ بما سماه صفاته الخلاقة ونزعته الايجابية .

ويستطرد وايزمان فى مجال آخر فيعرف الصهيونية بأنها عزم الشعب اليهودى خلال عشرين قرنا من التشرد على تنظيم حياته فى صورة جماعية ذات طابع خاص به وحده على أساس من العقيدة التى تربط بين خلود اسرائيل واله اسرائيل وهيمنته على الكون ومن تلك العقيدة تنبثق آمال اليهود القومية فى العودة الى ما سماه موطنهم حيث يلتقون بعد فرقة لممارسة حياة يهودية جديدة فى أرض يهودية [١٥] .

ويخاطب لوى براندايس [١٦] الاجتماع السنوى « لفرسان صهيون » فى شيكاجو الذى عقد فى الثانى من يناير عام ١٩١٦ قائلا : « انكم فى رأيى لا تستطيعون أن تؤدوا واجبكم اليهودى ان لم تعملوا على دفع الشعب اليهودى الى المرتبة التى تمكنه من خدمة أمريكا والعالم على أفضل وجه وهذا لا يتم الا بتحقيق الحلم الذى راودنا عصورا طويلة وتحقيق دعوات اليهود وابتهالاتهم بأن يكون لهم

(١٤) Weizmann, op. cit. p. 223.

(١٥) Weizmann , What is Zionism, The Zionist Organization London, Bureau, London, 1919, p. 4 - 12.

(١٦) «Louis D. Brandeis» أحد دعائم الصهيونية فى الولايات المتحدة الأمريكية وهو من أصل ألمانى . ولد فى عام ١٨٥٦ ونشأ وتعلم فى المانيا . كان من أشهر رجال القانون فى عصره . عينه الرئيس ودرو ويلسون قاضيا بالمحكمة العليا سنة ١٩١٦ . حمل راية الصهيونية فى أمريكا بعد أفول نجمها فى أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى وهو المسئول الأول عن تأييد حكومة الرئيس ويلسون لوعد بلفور ، رغم معارضة وزارة الخارجية الأمريكية. زار فلسطين عام ١٩١٩ . وهو القائل : « ان المثل العليا لأمريكا فى القرن العشرين هى المثل التى دعت اليها اليهودية منذ عشرين قرنا »وقد اختاره ويلسون رئيسا للوفد الأمريكى فى مؤتمر الصلح .

انظر : The Universal Jewish Ency. Vol 2, p. 495.

وانظر ايضا : E. Rabinowitz, Justice L. Brandeis, N. Y. 1968, p. 61.

وطن مـرة أخرى يمارســون فيه حياتهم اليهـودية وفقـا للروح اليهودية (١٧) .

أما « احدها عام » (١٨) الذى يتمتـع باحترام خاص بين قادة الصهيونية الحديثة فيرى أن الحركة الصهيونية يجب أن تستند الى العمل المثمر الذى يعنى بالكيف قبل الكم . وكان يرى أن التحرر النفسى لليهود لا يتم الا عن طريق الترويض النفسى ومن ثم كان يرى فى منظمة « أحباب صهيون » ومؤتمر بال مجرد تجمعات تفتقر الى برامج أساسية تعنى بالتربية والنهضة الروحية التى هى قوام الدولة اليهودية.

ومهمة الصهيونية فى رأى « أحدها عام » تتمثل فى بعث الروح اليهودية وتقوية العاطفة القومية التى ضعفت بين اليهود من جـراء الاضطهاد المرير ، وانقاذهم من النزعة الفردية التى تردوا فيها ، وحثهم على العمل الجاد من أجل بناء أمتهم وهذه مهمة شاقة لا تتحقق بالخطب والعمل الفردى والتعجل لاقتطاف الثمار (١٩) .

لقد أشاد « أحدها عام » بوعد بلفور ولكنه كان يرى أن الصيغة التى ظهر بها الوعد مخيبة للآمال لأنها اكتفت بذكر انشاء « وطن قومى لليهود فى فلسطين » بدلا عن النص الذى اقترحته المنظمة الصهيونية

---

(١٧) Brandeis on Zionism (Collection) Zionist Organization of America Washington D. C. 1942, p. 84.

(١٨) « أحدها عام » واسمه الحقيقى « أشر جنزبرج » ، من أشـهر دعاة الفكرة الصهيونية فى جيله . ولد فى روسيا عام ١٨٥٦ ومات فى تل أبيب سنة ١٩٢٧ . تميز بين أقرانه بالتعمق فى دراسة اليهودية ووضوح الفكـر وبرز اسمه ناقدا للحركة الصهيونية واختلف مع قادتها فى أهدافهم ووسائلهم . وكان له رأى خاص فى حركة استيطان فلسطين على عهد البارون أدمونـد روتشيلد فى نهاية القرن التاسع عشر .. كان يرى أن أسلوب هـرتزل فى العمل لا يحقق أهداف الصهيونية وكان يوجه اهتمامـه الاكبر الى تعبئة الجهود المادية والعقلية والتربية الروحية بين اليهود وهذا فى رأيه يتطلب جهدا وصبرا وأناة .

انظر : The U.J. Encyc. Vol. 1, P. 135.

(١٩) Achad Ha-am, Essays on Zionism and Judaism Leon Simon.

ترجمه عن العبرية :

G. Routledge and Sons Ltd. London, 1922 pp. 10 — 13.

« باعادة بناء الوطن القومى القديم لليهود » والنص الأول فى رأى «أحدها عام» غير مقبول لأنه يجعل من فلسطين وطنا لليهود والعرب على السواء !! [٢٠] ومع ذلك فانه رحب بتأييد مؤتمر الصلح فى باريس (١٩١٩) لوعد بلفور واعتبر هذا التأييد بمثابة التزام دولى •

هذه طائفة من آراء قادة الصهيونية الحديثة حول الفكرة التى اعتنقوها وعملوا من أجلها فهل تتفق هذه الآراء مع تصور الجاليات اليهودية فى العالم لفكرة العودة الى جبل صهيون وفقـا لمعتقداتهم الدينية ؟ يجيب الأستاذ «أرنولدتوينبى» بالنفى القاطع [٢١] ولكن الاجابة من أحـد أعلام المؤرخين فى هذا القرن (الأستاذ توينبى) على هذا النحو تثير ثائرة « أبا ايبان » وزير خارجية اسرائيل الأسبق فيرد عليه بمقالة تحمل عنوانا صارخا هو «هرطقة توينبى The Toynbee Heresy » ويقول أن فكرة « العودة » تعتبر فى المصادر الاسرائيلية ارادة الهية وواجبا بشريا [٢٢] • ان توينبى لم ينف أن لليهود حقا فى العودة الى فلسطين لأداء شعائرهم الدينية — وهذا حق ظلوا يمارسونه طـوال حياتهم دون أن يعترض طريقهم أحد — ولكنه أنكر على الصـهيونية احتلالها فلسطين بقوة السلاح واخراج أهلها منها بغـير حق ونهب ممتلكاتهم على نحو ما حدث فى واقع الأمر [٢٣] وذلك تحت سـتار « العودة » •

أما المصادر اليهودية نفسها فتقول ان فكرة « العودة » واردة فى كتابهم المقدس ولكن بعض فلاسفة اليهود لايؤمنون بعودة مملكة داوود أو اعادة بناء المعبد أو امتلاك فلسـطين مرة أخرى ويرفضون رفضا

---

(٢٠) Achad Ha-am, op. cit. p. 16.

(٢١) Toynbee, op. cit. p. 298.

(٢٢) Abba Eban, The Toynbee Heresy, Israel Institute, Yeshna University, New York. Address Delivered on Jan. 18, 1955.

(٢٣) A. Toynbee, The Middle East, Past and Present An Article Published in the Arab — Israel Impasse Edited by Majidia Khadduri, Robert B. Luce Inc. Washington, 1968 p. 42.

بأنا فكرة الوطن القومى لليهود •• وقد قرر مؤتمر الأحبار اليهود فى فرانكفورت (١٥ — ٢٨ يوليو ١٨٤٥) حذف الجزء الخاص بالدعاء للعودة الى فلسطين من التعاليم اليهودية • وفى المؤتمر اليهودى فى فلادلفيا (٣ — ٦ نوفمبر ١٨٦٩) ورد فى الجـزء الأول من وثيقـة المبادىء التى أصدرها المؤتمر أن الغرض الدينى من عودة بنى اسرائيل هو وحدة كل أبناء اسرائيل فى اعترافهم بوحدانية الله • وأصـدر مؤتمر « Pittsburg » (١٦ — ١٨ نوفمبر ١٩٨٥) بيانا مؤيدا لذلك جاء فيه « اننا لم نعد نعتبر أنفسنا أمة بل طائفة دينية ومن ثم فاننا لا نتوقع العودة الى فلسطين » [٢٤] وقال بعض النقاد اليهود: ان الذين أصدروا مثل هذه البيانات لم يفسروا كتابهم تفسيرا صحيحا أو أنهم كانوا يتجاهلون تعاليمه وحتى اذا سلمنا بصحة هذا النقد — وهو موضع شك كبير — فان المعارضة التى واجهتها الصهيونية السياسية ابان ظهورها وخاصة بعد صدور وعد بلفور من الطوائف اليهودية فى أوروبا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية لتنهض دليلا قويا على أن صهيونية هرتزل ووايزمان وبرانديس كانت بدعة مستنكرة فى نظر الكثرة من يهود العالم •

كانت المعارضة ضـد الصهيونية قوية فى أوروبا الغربية وكان من أبرز المنظمات اليهودية التى قادت تلك المعارضة الحلف الإسرائيلى العالمى الذى تأسس فى فرنسا عام ١٨٦٠ وفيما عدا أسرة روتشيلد وعلى رأسها البارون أدموند [٢٥] كان كل زعماء اليهود فى فرنسا ضد الصهيونية •

وفى بريطانيـا حمل لواء المعارضة ضد الصهيونية الاتحـاد البريطـانى اليهـودى بريـاسـة الدكتور « Claude G. Montifiore » وتقدم هذا الاتحاد بمذكرة قوية الى مجلس الحرب البريطانى فند فيها

---

(٢٤) U.J. Encyclopaedia Vol, 12, pp. 666 - 667.

(٢٥) James Malcolm, origins of The Balfour Delaration, (Unpublished) London, July, 1944 British Museum Reading Room Ref. C.U.P. 1247 C. 28 p. 7.

دعاوى الصهيونية.ونشر مونتفيور مع زميله « David L. Alexander » رئيس لجنة النواب من اليهود البريطانيين مقالا ضــد الصهيونية فى صحيفة التايمز اللندنية بتاريخ ١٧ مايو ١٩١٧ وآثار المقال ضـــجة كبرى دفعت وايزمان الى الرد عليهما فى نفس الصحيفة بتاريخ ٢٨ مايو ١٩١٧ [٢٦] .

وقد حاول وايزمان فى مذكراته أن يقلل من أهمية هذه المعارضة فوصف القائمين بها بأنهم قلة من اليهــود الأثرياء والمرجعيين دعاة الانصهار « Assimilationists » [٢٧] . غير أن الخلاف بين الصهيونية فى بريطانيا والمعارضين لها من اليهود البريطانيين لم يكن بهذا القدر المتواضع كما زعم وايزمان . لأن الخلاف بلغ حداً دعا الى عقــد اجتماع بين الفريقين فى ١٤ ابريل ١٩١٥ للحوار والوصول الى اتفاق وكان وفد الحركة الصهيونية يضم دكتور جاستر وتشلنوف وسوكولوف وجوزيف كوين وهربرت بتوبتش وتكون الوفد المعارض للصهيونية من دافيد الكسندر وكلود مونتفيور ولوسين وولف ولم يصل الطرفان الى اتفاق [٢٨] .

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فلم تجد الصهيونية استجابة تذكر قبل ظهور لوى براندايس . لقد توجه هرتزل الى يهود أمريكا بدعوة فى يونيو عام ١٩٠١ يحثهم على التضامن معه لحل القضـــية اليهودية.ويذكرهم بالعبودية التى يرسف فيها اخوانهم فى أوروبا ولكن يهود أمريكا قابلوا دعوته بالفتور ووصف بعضهم الصهيونية بأنهـــا ازعاج لســـــلام الذهن وعقبة أمام استيعاب اليهــود فى البيئـــة الديموقراطية وأنها فوق ذلك لا تتفق وولاءهم لأمريكيتهم وأنها تعيد الى أذهانهم ذكريات يودون أن يسدلوا عليها الستار [٢٩] .

---

(٢٦) Ed. D. Blanche op. cit. p. 31.

(٢٧) Weizmann,, op. cit., p. 200.

(٢٨) I. Friedman, The question of Palestine, 1914 — 1918, London, 1973, P. 35,

(٢٩) Samuel Halperin, The Political World of American Zionism, Wayne State University Press, Detroit, 1961, p. 10.

أما اليهود التقليديون فنبذوا الفكرة الصهيونية لأنها لا تتفق وفكرة العودة كما وردت فى تعاليمهم الدينية وواجهت الحركة العمالية الأمريكية فكرة الصهيونية بالاعراض باعتبارها حركة رجعية (٣٠) •

ان هذه المعارضة التى أبداها يهود العالم ضد الصهيونية وضد وعد بلفور هى التى دفعت المسئولين فى الحكومة البريطانية الى اضافة بعض التحفظات فى صيغة التصريح وهى ذلك الجزء الذى نص على ألا تضار « الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى » (٣١) وفى هذا التحفظ اعتراف بخطورة تلك المعارضة •

وحتى فى الدوائر الرسمية كانت هناك معارضة لا يستهان بها ضد الصهيونية فى كل من لندن وواشنطون وباريس وكان قائدالمعارضة فى مجلس الوزراء البريطانى ضد وعد بلفور أدوين مونتاجو وهو من أصل يهودى • لقد وقف مونتاجو ضد الصهيونية منذ أن قدم هربرت صمويل مذكرته عن مستقبل فلسطين فى يناير عام ١٩١٥ الى مجلس الوزراء البريطانى وأثار فيها أهمية فلسطين الاستراتيجية وضرورة وضعها تحت نفوذ بريطانيا بعد نهاية الحرب واقامة دولة يهودية فيها لحماية المصالح البريطانية (٣٢) • ففى رسالة وجهها فى ١٦ مارس عام ١٩١٥ الى هربرت اسكويث رئيس الوزراء البريطانى فند مونتاجو الزعم القائل بضرورة استيلاء بريطانيا على فلسطين من أجل الدفاع عن مصر وقال إن المصلحة الكامنة خلف هذا الاقتراح لا تعدو أن تكون آخر الأمر انشاء دولة يهودية فى فلسطين تحت الحماية البريطانية وهذه فى اعتقاده الراسخ سياسة من شأنها أن تؤدى الى كارثة (٣٣) •

وكان قادة الصهيونية فى بريطانيا يخشون أن تؤدى معارضة

---

(٣٠) Halperin, op. cit., P. 11

(٣١) Ed. D. Blanche op. cit. P. 8.

(٣٢) Stein, op. cit., PP. 103 — 108.

(٣٣) I. Friedman, op. cit., pp. 22 — 24

مونتاجو الى القضاء على وعد بلفور (٣٤) في مهده ولكنهم وجدوا تأييدا رسميا قويا وخاصة بعد التغيير الوزارى الذى شهدته العاصمة البريطانية اثر استقالة هربرت اسكويث رئيس الوزراء فى ٥ ديسمبر ١٩١٦ واسناد رئاسة الوزارة الى دافيد لويد جورج ووزارة الخارجية الى آرثر بلفور • وكان اسكويث معروفا بأنه لم يكن من مؤيدى الفكرة الصهيونية ولا الوطن القومى لليهود بينما كان لويد جورج وبلفور من أقوى مؤيدى الصهيونية ومن أكثر المعجبين بوايزمان وقد ذكر وايزمان أن مذكرات لويد جورج توحى للقارىء بأن وعد بلفور كان بمثابة مكافأة لوايزمان لقاء الخدمة التى أسداها لبريطانيا (٣٥) • ومع ذلك فان معارضة مونتاجو كانت مصدر قلق عظيم لمؤيدى الصهيونية الذين حاولوا أن ينالوا منه بالطعن فى سلامة مقصده وذهبوا الى تفسير عدائه للصهيونية بأنه نابع من عقدة انتمائه اليهودى ومن دافع المحافظة على مركزه الشخصى ومستقبله السياسى (٣٦) ولكن يبدو أن هنالك اعتبارات سياسية هامة دفعت مونتاجو الى اتخاذ هذا الموقف وهى ادراكه للنتائج الخطيرة التى قد يتمخض عنها اصدار الوعد فقد روى عنه أنه قال بعد سماعه اعلان وعد بلفور وهو فى الهند :

« لقد حاولت الحكومة (البريطانية) أن تقيم شعبا لا وجود له وأثارت قلق العالم الاسلامى بأسره دون أن يكون هنالك ما يوجب الاثارة » (٣٧) • ولا شك أن التجربة التى خاضتها بريطانيا مع العالم العربى والاسلامى بعد اعلان وعد بلفور أثبتت أن مونتاجو كان أرحب أفقا وأبعد نظراً من أقرانه فى مجلس الوزراء البريطانى الذين ساروا فى ركاب الصهيونية وذلك فضلا عن أن وجهة نظر مونتاجو فى هذا الصدد تتفق وما ذكره السير رونالد ستورز فى مذكراته (انظر الفصل الثالث) من أن السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الأولى كانت تخشى غضبة عشرات الملايين من المسلمين فى الهند

---

(٣٤) Stein, op. cit. p. 496.
(٣٥) Weizmann, op. cit. p. 192
(٣٦) Stein, op. cit. p. 498.
(٣٧) Stein, op. cit. p.p. 500 - 501 .

ودعاة الوحدة الاسلامية فى مصر . واذا كانت الحكومة البريطانية لم تصغ الى مونتاجو وهو يحذرها قبل ارتكاب الخطأ فقد اضطرت الى الاستماع الى خبرة علمائها وممثليها السياسيين وهم ينحون عليها باللائمة بعد وقوع الكارثة .

لقد تحدث ممثل بريطانيا « Sir Ormsby - Gore » فى اللجنة الدائمة لشئون الانتداب سنة ١٩٣٧ عن فشل السياسة البريطانية تجاه فلسطين والعالم العربى وعن الأسس الخاطئة التى استندت اليها الحكومة البريطانية فى اصدار وعد بلفور فقال :

« كانت السياسة البريطانية فى فلسطين منذ اعلان وعد بلفور وحتى سنة ١٩٣٧ قائمة على أساس تنفيذ وعد بلفور بانشاء الوطن اليهودى وكان مبعث هذه السياسة الاعتقاد بأن العرب واليهود سوف ينسون الخلاف بينهم فى غضون هذا القرن وينصهرون فى شعب واحد لأنهم ينحدرون أصلا من سلالة واحدة ويتصل نسبهم بابراهيم الخليل (عليه السلام) وقد أثبتت التجربة البريطانية خلال سبعة عشر عاما (١٩٢٠ — ١٩٣٧) فشل تلك السياسة القائمة على هذا الافتراض» (٣٨) ويمضى ممثل بريطانيا فى حديثه قائلا « ان سياسة القمع فى فلسطين من شأنها أن تؤدى الى الزج ببريطانيا فى صراع مع المسلمين بل فى صراع بين المسلمين من جانب وبريطانيا واليهود فى جميع أنحاء العالم من ناحية أخرى . انها لمأساة .. لقد كان العالم المسيحى فى العصور الوسطى يتخذ من اليهود موقفا لا نستطيع أن ننظر اليه بعين الرضا بينما كان العالم الاسلامى بوجه خاص يعامل اليهود معاملة ودية فى اسبانيا وفى الشرقين الأدنى والأوسط ، وعندما أخرج اليهود من اسبانيا لم يجدوا ملاذا يسكنون اليه بأعدادهم الكثيرة الا فى بغداد وغيرها من البلاد العربية . أما اليوم (١٩٣٧) فان الجاليات اليهودية

---

(٣٨) League of Nations, Permanent Mandates Commission Minutes of the Thirty-second (extraordinary) session Held at Geneva, 30 - 7 to 18 - 80, 1937. Geneva, 1937, pp. 16 - 17.

فى تلك البلاد تواجه خطرا عظيما بسبب فلسطين ومن المحتمل أن تسوء العلاقات الى حد ينذر بالخطر بين اليهود وبين المسلمين فى العالم كله ما لم نجد حلا لقضية فلسطين » (٣٩) .

وقال العـــالم البريطـــانى الدبيـــلوماسى «D. G. Hogarth» « ان وعد بلفور صدر استنادا الى أفكار خاطئة ومصدر الخطأ أن الحكومة البريطانية فى عام ١٩١٧ لم تدرك أن الشعب العربى لم يعان من اضطهاد الأتراك بالقدر الذى يدفعه الى التحرر اذا كان ثمن الحرية هو الخضوع لسيطرة أجنبية جديدة » (٤٠) .

ويأخذ هوجارث على الحكومة البريطانية أنها أخفت عن العرب المعنى الحقيقى لوعد بلفور زهاء خمس سنوات فلم توضح لهم الا فى سنة ١٩٢٢ أن وعد بلفور لا يعنى سيطرة اليهود على فلسطين (٤١) ولكن هوجارث يستدرك قائلا انه « لم يكن فى استطاعة بريطانيا أن تصدر مثل هذا الايضاح فى سنة ١٩١٧ لأنها لو فعلت ذلك لفقدت تأييـــد الصهيونية » (٤٢) .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية كان وزير الخارجية « روبرت لانسنج » على رأس المعارضين لوعد بلفور ونصح الرئيس ويلسون ألا يخضع لضغط الصهيونية الأمريكية (ممثلة فى لوى براندايس) لالزام الحكومة الأمريكية بتأييد الوعد وكان لانسنج يستند فى تقديم هذا النصح الى أسباب قوية منها أن أمريكا لم تكن فى حالة حرب مع تركيا وأنه ليس هناك اتفاق بين اليهود أنفسهم لانشاء وطن خاص بهم وأن وضع الأرض المقدسة تحت السيطرة الكاملة لليهود سوف يثير

---

(٣٩) League of Nations, op. cit. p. 17

(٤٠) مقدمة هوجارث لكتاب :
Philip Graves, Palestine, The Land of Three Faiths, London, 1923 p. 5 - 6.

(٤١) يشير المؤلف هنا الى الكتاب الذى أصدره ونستون تشرشل فى عام ١٩٢٢ ولكن الواقع أن وعد بلفور كما فهمته الصهيونية والحكومـــة البريطانية كان يعنى سيطرة اليهود على فلسطين ولكن فى المدى البعيد عندما يحرز اليهود الكثرة العددية من السكان عن طريق الهجرة .

(٤٢) Philip Graves, op. cit. p. 6.

غضب الطوائف المسيحية (٤٣) ولم يكن وزير الخارجية الأمريكي وحده ضد الصهيونية وانما كان يقف الى جانبه الكولونيل « هاوس» مستشار الرئيس ويلسون ومن أقرب المقربين اليه وهو الذى أقنع ويلسون بالتريث قبل اعلان تأييد الولايات المتحدة لوعد بلفور وحال دون تعيين براندايس نائبا عاما فى ادارة الرئيس ويلسون (٤٤) •

ورغم المحاولات التى بذلها سوكولوف وجيمس مالكولم مع الحكومة الفرنسية فى ابريل سنة ١٩١٧ ومقابلة سوكولوف لوزير خارجية فرنسا « ستيفن بيشون » فى ١٩ فبراير ١٩١٨ فان الحكومة الفرنسية لم تلتزم رسميا بتأييد وعد بلفور وأصدرت بيانات اتسمت بكثير من التحفظ والحذر حول سياستها ازاء فلسطين (٤٥) ولا شك أن المنافسة بين بريطانية وفرنسا فى الهلال الخصيب واتفاقية « سايكس — بيكو » كانت من العوامل الهامة فى تحديد موقف الحكومة الفرنسية من وعد بلفور والوطن القومى لليهود • وفى مؤتمر سان ريمو (٢٠ ابريل ١٩٢٠) أعلن ممثلو الحكومة الفرنسية أن فرنسا لم تصدر أى تأييد رسمى لوعد بلفور (٤٦) •

ولم تكن حكومة ايطاليا أقل تحفظا فى تأييد الصهيونية من الحكومة الفرنسية ولكنها استجابت أخيرا للضغط الصهيونى الذى أستعان بنفوذ بريطانيا والرئيس الأمريكى ويلسون وأصدرت بيانا فى مايو عام ١٩١٨ أعدت صياغته على غرار وعد بلفور وكان ذلك بعد الرسالة التى وجهها سوكولوف الى السفير الايطالى فى لندن بتاريخ ٢٢ ابريل ١٩١٨ •

اذا كانت المعارضة ضد الحركة الصهيونية قد بلغت هذا المدى من القوة والاتساع بين اليهود أنفسهم قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى فكيف تيسر للصهيونية أن تشق طريقها الى أعلا مواقع النفوذ السياسى فى لندن وواشنطون لتحول المعارضة الى تأييد ولتصور

---

(٤٣) Stein, op. cit. pp. 593 — 594

(٤٤) E. Rabinowitz op. cit. pp. 38 — 39

(٤٥) Stein, op. cit., p. 590

(٤٦) Stein op. cit. p. 592

الباطل الصهيونى حقا والحق العربى باطلا ثم يملى على مؤتمر الصلح فى باريس عام ١٩١٩ شروطها لانشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين رغم أنف الكثرة العربية فى فلسطين ورغم أنف الكثرة اليهودية التى وقفت ضد الحركة الصهيونية ؟

لا شـك أن ظهور وايزمان فى لنـدن وبرانديس فى واشنطون وصلتهما الشخصية بالدوائر السياسية العليا فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية كان من العوامل الهامة فى هذا التحول لمصلحة الحركة الصهيونية • ولكن ما كان لقادة الحركة الصهيونية فى لندن وواشنطون أن يحققوا هذا النجاح لو لم تهيىء لهم الحرب العالمية الأولى الظروف المواتية • كان الموقف الحربى فى الجبهة الغربية ينذر بالخطر فى عام ١٩١٦ ومطلع عام ١٩١٧ بالنظر للحلفاء وخاصة الجزر البريطانية التى أخذت تواجه خطرا متزايدا من الغواصات الألمانية وحصارا تزداد وطأته يوما بعد يوم وذلك تنفيذا للقرار الذى اتخذته القيادة الألمانية فى يناير ١٩١٧ بتوجيه ضربة قاضية [٤٧] لبريطانيا قبل أن تهب الولايات المتحدة لنجدتها • ولكن الحلفاء كانوا يعانون مشكلة خطـيرة داخل الولايات المتحدة الأمريكية وهى اتجاه الرأسمالية اليهودية فى أمريكا الى تأييد ألمانيا فى وقت كان الحلفاء يتطلعون فيه الى مزيد من الدعم المالى الأمريكى لتمويل الحرب •

لقد كان النظـام المصرفى الأمريكى فى قبضـة اليهود الذين ينحدرون من أصل ألمانى[٤٨] وكان هؤلاء حلفاء لا يستهان بهم لألمانيا • كذلك انحاز عدد كبير من الصحف فى أمريكا وكافة الصحف المسائية تقريبا الى جانب الألمان وكان من أسباب هذا الاتجاه أن ألمانيا تحارب روسيا القيصرية التى أذاقت اليهود مر الاضطهاد وكانت روسيا تحارب فى صف الحلفاء • كان من أشـهر الأسر اليهودية الألمانيـة أسرة « Warburg » وأسرة « Untermeyer » ومستر « Jacob Schiff »[٤٩]

---

(٤٧) D. Thomson, Europe Since Napoleon, p. 527

(٤٨) Friedman, op. cit. p. 40

(٤٩) Friedman, op. cit. pp. 42 — 63

وكان « Herr Warburg » أقوى عضو فى أتحاد البنـوك المركزية الأمريكية ويتمتع بنفوذ عظيم لدى وزارة الخزانة الأمريكية •

وقد أشار « Richard Gotthell »أحد الأساتذة الصهيونيين فىجامعة كولومبيا الى أثر النفوذ اليهودى فى الولايات المتحـدة فى رسالته المؤرخة ١١ مارس سنة ١٩١٦ الى « Lucien Wolf »قائلا « ان نفوذ اليهود الألمان من رجال المصـارف واسع للغاية وحتى الصـهيونيين المقيمين فى ألمانيا قاموا بحث رفاقهم هنا — أى فى أمريكا — لتأييد القضية الألمانية » [٥٠] وكان « Gotthell » عضوا فى لجنة الحقـوق الأمريكية التى تسعى الى اقناع الولايات المتحدة للوقوف الى جانب الحلفاء ضد ألمانيا ومن ثم أجرى «جوتيل» اتصالات مع السفير البريطانى فى واشنطون ليبذل مساعيه لدى الحكومة البريطانيه حتى تمارس نوعا من الضغط على حليفتها روسيا لتخفف من اضطهاد اليهود حرصا على تأييد اليهود الألمان فى أمريكا لقضية الحلفاء • وفى الوقت ذاته كان السفير الأمريكى فى القسطنطينية «Mr. Oscar Straus» يقوم بنشاط مماثل ، وكان محور تلك المساعى تأمين رؤوس الأموال اليهودية نظرا لأهميتها فى تمويل الحرب وخاصة بالنسبة لبريطانية التى ظل اعتمادها على القروض الأمريكية فى تصاعد مطرد [٥١] •

لقد بدأ التحول الرسمى لصالح الصهيونية فى الولايات المتحـدة الأمريكية بانتخاب لوى براندايس — وهوأيضا منأصل ألمانى — رئيسا للجنة التنفيذية التمهيدية للشئون الصهيونية عام ١٩١٤ ، وفى عام ١٩١٦ عين قاضيا للمحكمة العليا وباعتلائه منصة القضـاء الأمريكى وتوثيق صلته الشخصية بالرئيس ودرو ويلسون كسبت الصهيونية عددا من الشخصيات المرموقة فى مراكز قيادية منهم «Felix Frankfurter» أستاذ القانون بجامعة هارفارد و « Julian Mack » القاضى بمحكمة الاستئناف والفيلسوف«Horace M. Kallen» والكاتب«Lincoln Kirstein» ورجـال الأعمـال «Nathan Straus» وصاحـب

---

(٥٠) Friedman, op. cit. pp. 40 — 41

(٥١) Friedman, op. cit. p. 63

دار النشر « Ugene Meyer » ومن ثم أصبحت الصهيونيـة بفضـل نشـاط براندايس ونفـوذه الرسمى والشخصى تجمعـا سياسـيا تفتحت أمامه أوسع منافذ الاتصال بقمة الجهاز السياسى فى الولايات المتحدة الأمريكية (٥٢) وقد وضح أثر العلاقة بين براندايس وويلسون فى اختيار براندايس من قبل الرئيس ويلسون ليكون رئيسا للوفـد الأمريكى فى مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ وكان هذا الأختيار مؤشرا نحو اتجاه ويلسون للوقوف رسميا الى جانب الصهيونية (٥٣) كذلك وضحت علاقة فرانكفورتر وويلسون فى المراسلات التى دارت بينهما والتزم فيها ويلسون — أمام الحاح فرانكفورتر — بادراج وعـد بلفور فى معاهدة الصلح .

وعندما كثف وايزمان نشاطه فى لندن مع المسئولين البريطانيين فى النصف الأول من عام ١٩١٧ لأقناعهم باصدار وعد بلفور كان هناك تنسيق كامل بينه وبين براندايس ، فقد بعث وايزمان فى ٨ ابريل عام ١٩١٧ بتقرير واف الى براندايس تناول فيه الصعاب التى تواجههـا فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين وموقف فرنسا منها وناشـد براندايس أن يحصل على تأييد الحكومة الأمريكية ويهود أمريكا لفكرة فلسطين اليهودية تحت الحماية البريطانية (٥٤) .

ولعل اجتماع براندايس بالرئيس ويلسون فى ٦ مايو سنة ١٩١٧ كان استجابة لرسالة وايزمان ففى ذلك الاجتمـاع شرح براندايس للرئيس الأمريكى السياسة الصهيونية والمشاكل القائمة بين فرنسـا وبريطانيا حول سوريا وأثرها على مستقبل الوطن اليهودى وقد أكد له ويلسون أنه يؤيد الصهيونية وأنه سيذيع بيانا فى الوقت المناسب بعد أن يعرف وجهة النظر الفرنسية وأنه يترك اعداد الخطوط العامة للبيان وصياغته لبراندايس نفسه (٥٥) .

---

(٥٢) Halperin, op. cit. pp. 11 — 12
(٥٣) Rabinwitz, op. cit., p. 61
(٥٤) Weizmann, op. cit. p. 244
(٥٥) Rabinowitz, op. cit.,p. 63.

وعندما صدر وعد بلفور فى ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ كسبت الصهيونية فى الولايات المتحدة مزيدا من التأييد وتوجت مساعى براندايس بموافقة الكونجرس الأمريكى على وعد بلفور فى ٣٠ يونيو عام ١٩٢٢ وكان ذلك فى نظر الصهيونيين الأمريكيين انتصارا لفكرتهم على الرأى العام الأمريكى وبشيرا بقرب ميلاد الدولة اليهودية على الرغم من أن زعامة براندايس للصهيونية اليهودية انتهت بعد ذلك بوقت قصير اثر خلافات داخلية وآلت زعامة الحركة الى وايزمان فى لندن بينما أصبحت مهمة الصهيونية الأمريكية قاصرة على جمع الأموال لفلسطين (٥٦) وهى مهمة خطيرة .

وجدير بالذكر أن مشروع قرار تأييد وعد بلفور من قبل الكونجرس الأمريكى قوبل بمعارضة قوية من بعض أعضاء لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب الأمريكى لأن القرار يمثل فى نظرهم انتهاكا خطيرا لحقوق الشعب الفلسطينى . وقاد هذه المعارضة السناتور « James A. Reed » فى اجتماعات اللجنة التى عقدت فى يومى ١٨ و ٢٠ ابريل عام ١٩٢٢ برياسة « Sterhen G. Porter » لمناقشة قرار مجلس النواب رقم ٥٢ الخاص بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين (٥٧) وقد وردت مداولات الأعضاء فى اجتماع يوم ١٨ ابريل على النحو التالى :

مستر كوناللى « Mr. Connally » : من البديهى أن النظرية كلها تستند الى ما يدعيه الشعب اليهودى أن له حقا فى فلسطين ولكن من الواضح أيضا أن السكان الحاليين لتلك البلاد ظلوا يقطنونها منذ

---

(٥٦) Halperian op. cit., pp. 12 — 13

(٥٧) Eastablishment of a National Home in Palestine, Hearing Before The Committee on Foreign Affairs House of Representative Sixty — Seventh Congress second Session on H. Con, Res. 52.

Expressing Satisfaction at The Re-creation of Palestine as the National Home of The Jewish Race, Washington, 1922, pp. 36 - 41. Government Printing Office.

قرون كثيرة فهل هناك ما يعطى الأسلاف الأوائل الذين عاشوا فى تلك الأرض حقا أكبر من حق الآباء والأجداد الذين جاءوا من بعدهم ؟

مستر كوكران « Mr. Cockran »: ليس هناك نزاع بين أهل تلك البلاد • ان اقتراحك يحمل بين طياته الاجابة على سؤالك • ان أولئك اليهود لا يسعون الى امتلاك الأرض الا عن طريق الشراء •

مستر كونالى : انهم يودون الحصول عليها بحكم الايثار الذى يريدون الحكومة أن تسبغه عليهم •

مستر ريد « Mr. Reed » : فى اعتقادى أن لنا مبدأ هو المبدأ الأمريكى ولذلك فاننى لا أرضى لكم أن تؤيدوا هذا القرار لأنه قرار لا يشبه أمريكا « Un American » ان جميع الناس سواسية أمام القانون فاذا فضل واحد منهم على الآخرين فقد انتفت المساواة أمام القانون •

الرئيس : يبدو لى من حديثك أنك تعتقد أن وعد بلفور يمثل انتهاكا خطيرا لحقوق شعب فلسطين •

مستر ريد : لتسعة أعشار شعب فلسطين • واذا لم يكن قصدى واضحا فان وجودى فى هذا الاجتماع يصبح عبثا •

الرئيس : ان اجازة هذا القرار فى رأيك تعنى ضمنا الموافقة على قرارات عصبة الأمم فى سان ريمو •

مستر ريد : بالضبط •

الرئيس : هل هذا يعنى — وفى هذه الحدود — أن الحكومة الأمريكية أصبحت ملتزمة بسياسة عصبة الأمم ؟

مستر ريد : لست خبيرا فى القانون الدولى ولكن مشروع القرار الذى تقدم به السناتور « Lodeg » يذكر وعد بلفور بصورة قاطعة وهذه قرارات تسير جنبا الى جنب • اننى أعتقد أن الغرض من هذا العمل هو دفع أمريكا لتقف مع الدول الأجنبية فى تأييدها لوعد بلفور وهذا فى رأيى أمر جد خطير لأن وعد بلفور ليس أمريكيا (٥٨) •

---

(٥٨) Hearing Before The Committee on Foreingn Affairs, op. cit., p. 36

وفى موضـــع آخر من المداولات قال مستر ريد : لقـــد هزنى القرار هزاً عنيفاً لأنى أعتقد أنه من الخطأ أن تؤيد بلادنا وعدا كهذا • وانى لأذكر أن « Mr. L. Lipsky » تحدث عن تحويل فلســطين الى وضع شبيه بالوضع فى سويسرا ولكن الفكرة الصهيونية لا تهدف الى ذلك قط • فالوضع فى سويسرا يختلف تمام الاختلاف ، وأضرب مثلا بما قاله أحد أعضاء المكتب التنفيذى الصهيونى فى فلسطين « Mr. D. Eder » أمام احـــدى لجان التحقيـــق التى شـــكلها هربرت صمويل (لعله يعنى لجنة هايكرافت) ، فقد قال دكتور « Eder » : « انه لن يكون فى فلسطين سوى وطن قومى واحد هو الوطن اليهودى ، وأنه لن يكون هناك مجال لمساواة العرب باليهود باعتبارهم شركاء فى هـــذا الوطن » [٥٩] •

لم يصدر وعد بلفور بالصيغة المتطرفة التى اقترحتها المنظمـــة الصهيونية • فقد أرادت الصهيونية أن يشتمل الوعد على نص باعادة فلسطين لليهود باعتبارها الوطن القومى الخاص بهم وحـــدهم دون سواهم ومع ذلك فان الوعد فى صورته التى صدر بها حقق للصهيونية هذه الأمنية لأنه سلب الكثرة العربية فى فلسطين حقوقها السياسية المشروعة ووصفها بالطوائف غير اليهودية ، وامتن عليهم بالقـــول أن حقـــوقهم المدنية والدينية لن تضار ، وصمت صمتا تاما عن حقـــوقهم السياسية •

واذا كانت الصهيونية لم تظفر بالصيغة التى كانت ترجوها لوعد بلفور فقد عبأت كل طاقاتها ومواردها لاعداد وثيقة الانتداب على النحو الذى يحقق أهدافها فى فلسطين وشرعت فورا فى ايفاد لجنـــة الى فلسطين للتمهيد لتنفيذ السياسة الرامية الى انشاء الوطن اليهـــودى وقررت الحكومة البريطانية فى مطلع عام ١٩١٨ تشكيل اللجنة برياسة وايزمان وعضوية البروفسير « Sylvin Levi » رئيس الحلف الاسرائيلى المناوىء للصهيونية وجيمس روتشيلد وجوزيف كوين ودافيـــد ايدر و« Levi Bianchini » من ايطاليـــا وليون سيمون واسرائيل ســـيف

---

(٥٩) Hearing, op. cit. p. 40

وقبلت اللجنة على مضض « البروفسير ليفى » الذى اختارته الحكومة الفرنسية .

يحدثنا رونالد ستورز الحاكم العسكرى لمدينة القدس فى تلك الفترة عن دهشته لقدوم هذه اللجنة الى فلسطين فى وقت لم يتحدد فيه بعد مصير البلاد فيقول : « لقد اطلعت على برقية تلقاها كلايتون فى أوائل شهر مارس عام ١٩١٨ عن قدوم لجنة صهيونية من كبار اليهود لتكون حلقة وصل بين اليهود فى فلسطين والادارة العسكرية البريطانية وعجبت وعجب كلايتون معى من عدا التعجل وتساءلنا ألم يكن من الأجدى تأجيل زيارة هذه اللجنة حتى يتقرر مصير ادارة القطر بشكل أوضح ؟ ولكنها أوامر لابد من تنفيذها »[٦٠] . ويذكر ستورز أنه استقبل اللجنة غداة وصولها مدينة القدس وأن اللجنة كانت تحت رعاية الحكومة البريطانية وأن وايزمان خاطب جمعا من أهل مدينة القدس قائلا ان اليهود لم يتخلوا قط عن حقوقهم فى فلسطين وأنهم اخوة للعرب تجمعهم بهم أواصر القربى وأن اليهود عائدون فقط الى بلادهم وهم ليسوا غرباء عنها ، ثم حذر وايزمان العرب من الاستماع الى الدعاية المغرضة التى تروج أن للصهيونيين مطامع فى السلطة السياسية أو أنهم ساعون اليها[٦١] .

ان وايزمان الذى أدلى بهذه الأحاديث المعسولة لعرب فلسطين عام ١٩١٨ هو نفسه الذى قال :

« ان الذين أصدروا وعد بلفور لم يفكروا قط أن يتقرر مصير فلسطين والعرب يمثلون الكثرة الغالبة ، ولكن يمكن تقرير المصير عندما تصبح لليهود الكثرة العددية » وقال فى موضع آخر من مذكراته : « ان مجلس الحرب البريطانى لم يهدف الى قيام دولة يهودية فورا فى فلسطين دون استشارة أهل البلاد ولكن اذا استجاب اليهود للهجرة وأصبحت لهم الكثرة العددية فيما بعد فان فلسطين سوف تصبح وطنا

---

(٦٠) Storrs, The Memoirs of Sir Ronald pp. 359—360
(٦١) Storrs, op. cit. p. 360

يهوديا . هذا ولم يفكر المسئولون البريطانيون فى تقييد الهجرة بحيث يصبح اليهود فى فلسطين قلة دائمة » (٦٢) .

ويحدثنا ستورز عن سلوك اللجنة الصهيونية فى فلسطين التى كانت تتصرف كأنها هى الحاكمة ، اذ قامت بدفع اعانات مالية لرجال الشرطة والموظفين الصهيونيين فى الادارة البريطانية كما قامت اللجنة بتوجيه عمدة مدينة القدس أن يوظف اليهود فى تشييد الطرق وهـذا يعنى — فى رأى ستورز — اعفاء العمال العرب من الأعمال التى كانوا يقومون بها (٦٣) وعندما غادر ستورز مدينة القدس الى حيفا لانجاز بعض الأعمال وعاد الى القدس بعد فترة قصيرة علم من القائم بأعماله أن اللجنة الصهيونية اتصلت بسكرتيره اليهودى وطلبت منه تقريرا عن عمل المكتب وذلك أثناء غياب ستورز وكان هذا السكرتير على صلة سابقة بوايزمان (٦٤) .

كان سلوك اللجنة الصهيونية فى فلسطين مبعث حرج للمسئولين البريطانيين هناك فقد كانت مهمة هؤلاء المحافظة على الوضع القائم فى فلسطين حتى يتم تقرير مصير البلاد بصفة رسمية ولكن وايزمان كان يريدهم أداة طيعة يسخرها لتنفيذ البرنامج الصهيونى فورا لا سيما بعد أن تقدم الى الحكومة البريطانية بمطالب عاجلة للتنفيذ فى فلسطين ولكن الحكومة وجهت نظره الى الصعاب التى تكتنف تلك المطالب (٦٥) وكان وايزمان يطالب بحيازة الخط الحديدى بين يافا والقدس والحصول على المستعمرات الألمانية فى فلسطين وفتح باب الهجـرة لليهود الى فلسطين واستقرارهـم فيها وتحويل الأراضى غير المستغلة للمنظمـة الصهيونية ومنحها أمتياز ادارة المرافق العامة من مياه وكهرباء وخدمات

---

(٦٢) Weizmann, op. cit., p. 266

(٦٣) Ronald Storrs : Laurence of Arabia, Zionism and Palestine, Penguin, U.K. 1941, p. 52

(٦٤) Storrs, op. cit., pp. 51 — 52

(٦٥) Sir L. Mallet to Dr. Weizmann Enc. 2 in 212, July, 1, 1919 . Woodward and Butler, D.O.B.F.P. Vol. 4, pp. 306 / 7 .

الهاتف والبرق (٦٦) وصب وايزمان جام غضبه على جميع المسئولين البريطانيين فى فلسطين ابتداء من الجنرال اللنبى وتقدم بشكاة الى الحكومة البريطانية قال فيهـا ان الادارة العسكرية البريطانيـة فى فلسطين تبدى لليهود روحا عدائية واضحة وتغتنم كل فرصة للاضرار بمصالحهم والاساءة اليهم بينما يقوم هؤلاء المسئولون بتشجيع العرب ضد اليهود ، واتهم وايزمان الجنرال كلايتون بالضعف فى معالجة الموقف ووصف اللنبى بأنه مشغول بالقضية المصرية والمسألة السورية الى الحد الذى صرفه عن الاهتمام بأمر فلسطين أما « المقدم ستورز » فنال أوفى نصيب من التهم التى كالها زعيم الصهيونية للادارة البريطانية وهدد وايزمان الحكومة البريطانية بأن براندايس فى طريقه الى فلسطين وأنه سوف يطلع على الحقائق بنفسه وعندئذ سيكون الأثر فاجعـا للرأى اليهودى — الأمريكى (٦٧) !! •

أما وثيقة الانتداب على فلسطين التى أجازها مجلس عصبة الأمم وأصبحت نافذة منذ ٢٩ سبتمبر ١٩٢٣ فقد أعدتها المنظمة الصهيونية وهى فى جوهرها تمثل وجهة النظر الصهيونية رغم التعديلات الشكلية التى أدخلت عليها قبل اجازتها فى صورتها النهائية • ومن ثم فان القول بأن مجلس عصبة الأمم هو الذى حدد شروط الانتداب على فلسطين(٦٨) ليس صحيحا ، الا اذا كان المقصود بالتحديد الموافقـة على الشروط التى وضعتها المنظمة الصهيونية بعد اخضاعها لبعض التعديل الشكلى•

---

(٦٦) Dr. Weizmann to Sir L. Mallet, Enc. 1 in 212, Delegation Sioniste, Paris, June 18, 1919.
Woodward and Butler, op. cit., pp. 303 — 305

(٦٧) No. 213 Note by Sir R. Graham of Gonversations with Mr. Samuel and Dr. Weizmann 98082/2117/44, Foreign Office, July 2, 1919 Woodward and Butler op. cit., pp. 307—308.

(٦٨) Treaty Series No. 54 (1925) Convention Between United Kingdom and the United State of America Respecting the Rights of the Two Countries and Their Respective Nationals in Palestine, Signed, at London, Dec. 3, 1924, p. 2 . H.M.S.O., London, 1925.

ففى شهر يوليو عام ١٩١٩ فوض مستر بلفور المختصين فى الادارة السياسية للوفد البريطانى فى مؤتمر الصلح فى باريس وعلى رأسهم « Eric Forbes Adam » أن يبحثوا مع وايزمان وفرانكفورتر وكوهين ، وهم يمثلون المنظمة الصهيونية ، مشروع وثيقة الانتداب على فلسطين وقد أعدت هذه الأدارة مشروعا تمهيديا استندت اليه المنظمة الصهيونية فى اعداد مشروعها الخاص للانتداب وأهم ما نلاحظه فى مقترحات المنظمة الصهيونية التى قدمها « Ben V. Cohen » فى ٢٤ سبتمبر عام ١٩١٩ أنها أكدت العلاقة التاريخية بين اليهود وفلسطين التى تخول لليهود المطالبة باعادة بناء فلسطين باعتبارها وطنهم القومى وليست مجرد وطن قومى (٦٩) وهذا ما لم تستطع المنظمة الصهيونية أن تظفر به فى وعد بلفور ، بل كانت المنظمة تسعى الى النص على تأكيد ما سمته « بالحقوق التاريخية » لليهود فى فلسطين بدلا عن « العلاقة التاريحية » !! وقد أجازت عصبة الأمم النص الذى اقترحته المنظمة الصهيونية ليصبح مقدمة لوثيقة الانتداب ، كما أجازت المادة الرابعة التى أعدتها وصاغتها المنظمة الصهيونية وهى تتعلق بانشاء الوكالة اليهودية فى فلسطين والاعتراف بها . وبما أن وعد بلفور اقتراح صهيونى أصلا ونصا رغم ما أجرى فيه من تعديل طفيف فى الصياغة فان المادة التى أدرج بموجبها فى وثيقة الانتداب (المادة الثانية) تعتبر أيضا من وضع المنظمة الصهيونية وينطبق ذلك بالمثل على المادة السادسة من وثيقة الانتداب (تسهيل الهجرة اليهودية الى فلسطين) لارتباطها بانشاء الوطن اليهودى وتمثل المواد الثلاث المذكورة ، بالاضافة الى الديباجة أهم المرتكزات التى بنيت عليها وثيقة الانتداب على فلسطين (٧٠) . بل يرى وايزمان أن الديباجة كانت أهم فقرة على

---

(٦٩) No. 299 Memo, By Mr. Forbes Adam (Paris) 385/3/3/19140, September, 26, 1919 Woodward and Butler, op. cit., p. 428.

(٧٠) راجع مشروع المنظمة الصهيونية لوثيقة الانتداب ومشروع الوفد البريطانى فى :

Appendix to No. 299, Chapter V, Palestine Mandate, Woodward and Butler op. cit., pp. 429 - 438.

الاطلاق فى وثيقة الانتداب [٧١] ، وكانت تلك الوثيقة بمثابة الدستور الذى اهتدت به الادارة البريطانية فى حكم فلسطين واستند اليها كتاب الصهيونية فى ايهام الرأى العام العالمى أن الصهيونية انما استمدت حق السيادة على فلسطين بموجب الانتداب وهو وثيقة دولية !! وفى ذلك يقول فرانكشتاين « انه لا يحق لأحد غير اليهود ادعاء السيادة على فلسطين بعد اجازة وثيقة الانتداب — لأن أصحاب السيادة السابقين على فلسطين قد انقرضوا أو تخلوا عن حقوق السيادة كما فعلت تركيا بمقتضى المادة ٣٦ من معاهدة لوزان ١٩٢٣ » [٧٢] وقد رأينا أن وثيقة الانتداب كانت من وضع المنظمة الصهيونية كما أن تركيا لم تتخل عن سيادتها على فلسطين للمنظمة الصهيونية . ويوضح أحد رجال القانون الدولى الدكتور محمد طلعت الغنيمى الموقف بصورة أكثر جلاء فيقول « ان سببين من أسباب فقد الاقليم فى القانون الدولى قد توافرت بالنسبة لليهود حيال فلسطين ألا وهما : (١) الترك ، (٢) التقادم المسقط . أما حق العرب فهو التقادم المكسب وهو اكتساب الملكية بوضع اليد المدة الطويلة » [٧٣] . ويقول عن الانتداب « ان نظام الانتداب لا يترتب عليه زوال السيادة عن شعب الاقليم الخاضع للانتداب بل ان هذه السيادة باقية للشعب المذكور وأن كل ما للدولة المنتدبة بالنسبة للأقاليم التى سلخت عن تركيا هو تقديم المعونة والنصح فحسب » [٧٤] .

ولكن قبل بدء نفاذ الانتداب كان هربرت صمويل يمارس سلطاته بعد تعيينه مندوبا ساميا على فلسطين وقد تسلم ادارة البلاد رسميا فى أول يوليو عام ١٩٢٠ ليواجه شعب فلسطين الثائر بعد أن استنفد كافة الوسائل السلمية لاسترداد حقه المشروع وأخذت الثورات تتفجر

---

(٧١) Weizmann, op. cit., p. 348.

(٧٢) Ernst Frankenstein Palestine in the Light of International Law, London 1946 p. 13.

(٧٣) محمد طلعت الغنيمى : قضية فلسطين أمام القانون الدولى ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٥ .

(٧٤) الغنيمى : المصدر نفسه ص ١٠١ .

الواحدة تلو الأخرى وشرع صناع وعد بلفور فى حصاد ما غرست أيديهم وكلما اندلعت ثورة عربية فى فلسطين هبت الحكومة البريطانية لتتقصى الحقائق بتشكيل لجان للتحقيق فيما كانت تسميه الاضطراب وحوادث الشغب .

بدأت الحوادث فى عهد الجنرال « Louis Bols » عندما كان العرب يعتزمون الاحتفال بمناسبة دينية فى ٤ ابريل ١٩٢٠ وأسفرت المعركة عن ستة قتلى من اليهود وصاح وايزمان : انها مذبحة منظمة « Pogrom » بل سماها المذبحة الأولى تحت العلم البريطانى (٧٥) ، ليعيد الى ذهن القارىء فكرة اضطهاد اليهود والمذابح التى عرفوها فى روسيا القيصرية وربما كان غرض وايزمان من هذا النواح استدرار العطف على اليهود باعتبار أن حوادث ٤ ابريل سنة ١٩٢٠ كانت امتدادا لموجة اضطهاد اليهود فى مسرح جديد هو الوطن العربى ولكن تقرير لجنة التحقيق التى شكلت لمعرفه الحقيقة لم يؤيد وايزمان بل يحدثنا فيليب جريفز المراسل لجريدة التايمز فى فلسطين أن تقرير اللجنة لم ينشر لأنه كان ينقد المنظمة الصهيونية نقدا لاذعا وينتقد سلوك بعض الضباط البريطانيين(٧٦) وتوالت الأحداث الدامية بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٤ معبرة عن استنكار الشعب العربى فى فلسطين للسياسة البريطانية والتسلط الصهيونى فكانت اضطرابات يافا الأولى (أول مايو ١٩٢١) واضطرابات القدس الثانية (٢ نوفمبر ١٩٢١) وحوادث يافا الثانية (مارس ١٩٢٤) (٧٧) وكان من نتائج ثورة مايو ١٩٢١ فى يافا تشكيل لجنة قضائية للتحقيق برياسة القاضى البريطانى توماس هايكرافت « T. Haycraft » وقد جاء فى تقرير اللجنة أن رغبة الصهيونية فى السيطرة (٧٨) على فلسطين كانت سببا واضحا لاثارة العرب وأيدت هذا القول لجنة التحقيق فى حوادث أغسطس عام ١٩٢٩.

---

(٧٥) Weizmann, op. cit., p. 324.

(٧٦) Philip Graves, op. cit., pp. 60 — 61.

(٧٧) انظر تفاصيل هذه الحوادث فى : أمين سعيد — الثورة العربية الكبرى ج ٣ ص ٨٨ — ٩٨ .

(٧٨) Weizmann, op. cit., p. 349.

برياســة السير والتر شو فذكرت فى تقريرها أن السبب الأســاسى للاضطراب عداوة العرب لليهود بسبب خيبة آمالهم وعدم تحقيق أمانيهم السياسية والقومية وخوفهم علي مستقبلهم الاقتصادى [٧٩] .

وكان من نتائج أحداث مايو ١٩٢١ القرار الذى اتخذه هربرت صمويل وأعلنه على ملأ من أعيان العرب فى الرملة وهو يقضى بايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين وقد وصف وايزمان هذا القرار وطريقة اعلانه بأنه كان صدمة لليهود فى كل مكان [٨٠] .

لقــد ساعدت حــوادث سنة ١٩٢١ وتقرير لجنــة « Haycraft » وعودة اللورد « Northcuff » « A. C.W. Harmsworth » بعــد زيارة قصيرة لفلسطين ، على ايضاح بعض الحقائق للرأى العام البريطانى عن قضية فلسطين اذ كانت دار النشر التى يملكها اللورد نورثكليف أكثر دور النشر نجاحا فى تاريخ الصحافة البريطانية [٨١] ، وبعد عودته من فلسطين قامت الصحف التى يصدرها ومنها « الديلى ميل » و « والايفنج نيوز » بحملة ضد الصهيونية ونادت بالغاء وعــد بلفور وكان اللورد نورثكليف يرى أن الصهيونية خطر على الامبراطورية البريطانية وأنه من الجنون أن تثير بريطانيا قلق خمسين مليونا من المسلمين فى سبيل ارضاء خمسمائة ألف يهودى [٨٢] .

ولكن البيان الذى أصدرته الحكومة البريطانية — بيان المســتر تشرشل — فى حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٢ أكد عزم الحكومة على السير فى سياستها الخاطئة ازاء فلسطين ولم تر الحكومة البريطانيــة فى كل ما حدث سوى توتر ناجم عن سوء فهم لوعد بلفور !! يقــــول البيـــان :

---

(٧٩) تقرير لجنة التحقيق عن اضطرابات فلسطين التى وقعت فى شهر آب (أغسطس) ١٩٢٩ الترجمة الرسمية : مطبعة دير الروم — القدس ١٩٣٠ ص ١٩٧ — ٢٢٠ .

(٨٠) Weizmann, op. cit., p. 342.

(٨١) The New Encyclipaedia Britannica Micropaedi, 1976, Vol. 7, p. 401

(٨٢) Weizmann, op. cit., p. 351

« ان التوتر الذى ساد فلسطين من حين الى آخر يعزى معظمه الى مخاوف أخذت تساور بعض طبقات السكان العرب واليهود . أما مخاوف العرب فبعضها مبنى على تفاسير مبالغ فيها لمعنى التصريح الذى أعطى بالنيابة عن حكومة جلالته فى اليوم الثانى من شهر تشرين الثانى والذى يحبذ انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين . ذلك أنه نشرت بيانات غير رسميه بأن الغاية المنشودة هى جعل فلسطين يهودية برمتها واستعملت عبارات قيل فيها « ان فلسطين ستصبح يهودية كما ان انكلترا انكليزية [٨٣] فحكومة جلالته تعتبر هذه الامال غير قابلة للتحقيق وتعلن بأنها لا ترمى الى مثل هذه الغاية »[٨٤] ثم يمضى البيان مؤكدا التزام الحكومة البريطانية بوعد بلفور وزيادة عدد الطائفة اليهودية فى فلسطين بالمهاجرة [٨٥] .

ان بيان المستر تشرتشل يثير العجب والرثاء معا لأنه يؤكد أن الحكومة البريطانية لم تع الدرس بعد .

لقد زار هربرت اسكويث رئيس الوزراء البريطانى الأسبق فلسطين فى شتاء سنة ١٩٢٤ وأدلى عقب عودته بحديث يجعل بيان شرشل احدى سخريات هذا القرن قال اسكويث « ان العرب يمثلون ثلاثة أرباع سكان فلسطين ويبلغ عدد اليهود نحو عشر السكان ووصف القول بتحويل فلسطين الى وطن قومى لليهود بأنه لا يعدو أن يكون خيالا جامحا كما كان دائما » [٨٦] ولكن وايزمان يشكك فى صحة النتائج التى خلص اليها اسكويث من زيارته لفلسطين استنادا الى أن بلفور قد زار فلسطين أيضا بعد اسكويث ببضعة أشهر واستخلص

---

(٨٣) هذا التعبير من ابتكار وايزمان فى تعريفه لمعنى الوطن اليهودى فى فلسطين وقد ذكره مرارا فى مذكراته كما أكده لوزير الخارجيه الامريكيه روبرت لانسنج فى مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ انظر :
Trial and Error P. 305

(٨٤) بيان الخطة السياسية فى فلسطين الذى أصدره مستر تشرشل فى حزيران سنة ١٩٢٢ ، الذيل الخاص لتقرير لجنة والتر شو للتحقيق عن اضطرابات آب ١٩٢٩ ص ٢٦٥ .

(٨٥) المصدر السابق ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٨٦) Weizmann, op. cit., pp. 193 — 194

نتائج تختلف تمام الاختلاف [٨٧] • ويعنى وايزمان أن بلفور عاد من فلسطين وهو أكثر ايمانا بانشاء الوطن القومى لليهود فيها ، وفى هذا القول اشارة الى ما ذكره بلفور لوايزمان بعد انتهاء الزيارة بأنه « كان سعيدا بوجه خاص أن يرى المستعمرات اليهودية المزدهرة التى تنهض دليلا على سلامة وقوة الوطن القومى النامى » [٨٨] ولكن الميجر بولسون نيومان المراسل الحربى الخاص للصحف البريطانية فى القدس والذى شهد زيارة بلفور لفلسطين عام ١٩٢٥ يعطينا صورة تختلف تماما عن تقرير وايزمان • يقول مستر نيومان : ان بلفور وصل اللد فى ٢٥مارس ١٩٢٥ يرافقه وايزمان وسوكولوف ومندوب عصبة الأمم فقابله العرب بالمقاطعة وتظاهر ضده الطلاب • وأعلن الاضراب العام فى جميع أنحـاء فلسطين وكان اضرابا ناجحا وأوصدت المتاجر أبوابها وظهرت الصحف العربية مجللة بالسواد ورفعت الأعلام السوداء احتجاجا على السياسة البريطانية الموالية للصهيونية وأقيمت الصـلوات فى مساجد المـدن الكبيرة كلها وندد الخطباء فى المساجد بالصهيونية ودعوا الى الاتحاد لمقاطعة وعد بلفور وعمت المظاهرات الأقاليم فامتدت الى نابلس والخليل• وكان بلفور يتحرك فى فلسطين تحت الحراسة المسلحة واستقبلتهدمشق بالمظاهرات الصاخبة والهتاف العدائى ، وحاصرته الجماهير العربية فى فندقه ، ورمته بالحجارة •وقال نيومان : ان الناظر من نافذة الفندق كان لا يرى غير بحر من الطرابيش الحمراء [٨٩] •

لقد رافق نيومان مستر بلفور فى كل تحركاته فى فلسطين وسوريا ووصف نشـاط بلفور واشـتراكه فى الاحتفالات الصهيونية خاصـة الاحتفال بافتتاح الجامعة العبرية فى أول ابريل سنة ١٩٢٥ وقد أبدى نيومان حسرته على سذاجة بلفور وقال عنه انه غادر فلسطين دون أن يدرك حقيقة الموقف بل خرج بتصور خاطىء بعد أن قضى كل وقته مع

(٨٧) Weizmann, op. cit., p. 194
(٨٨) Weizmann, op. cit., p. 400
(٨٩) Major E.W. Polson Newman, The Middle East, London, 1926 P. 88

اليهود الصهيونيين ولم ير من الأماكن الا ما راق للصهيونيين أن يأخذوه اليها فلم ير فلسطين العربية ولم يعرف شيئا عن الحياة العربية هناك ولا عن المسألة العربية بل خرج مقتنعا بأن القضية العربية ليس لها وجود ، وهذا ما أدهش نيومان لأنه لم يتصور أن يكون رجل فى مكانة بلفور بهذا القدر من ضعف الادراك وقد كان رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية فى بريطانيا العظمى (٩٠) .

وهكذا أثبتت الصهيونية قدرتها على ربط مصلحتها فى فلسطين بمصالح الامبراطورية البريطانية واستغلال ظروف الحرب العالمية الأولى وضعف مركز الحلفاء فى عامى (١٩١٦ و ١٩١٧) لتحقيق مآربها حتى استطاعت فى أقل من ست سنوات (١٩١٤ — ١٩٢٠) أن تسترد أنفاسها وتدعم مواقعها فى وجه معارضة يهودية عاتية ، فحصلت على وعد بلفور وأملت شروط الانتداب على فلسطين وأمنت ظهرها بوضع هربرت صمويل على رأس حكومة الانتداب وألبست الوعد والانتداب معاً ثوبا كاذبا من الشرعية والالتزام الدولى بادراجهما فى ميثاق عصبة الأمم ومعاهدة سيفرس التى تم التوقيع عليها فى ١٠ أغسطس عام ١٩٢٠ (٩١) .

* * *

---

(٩٠) Newman, op. cit., p. 88 — 89

(٩١) انظر :

Sevres Treaty, 1920 pp. 161 - 192. Allied Papers Library of Congress Ref. D. 643, T. 8 - 1920 (E).

خاتمة

● أحداث خطيرة بين عامى ١٨٧٥ — ١٩٢٥ — التنظيمات والقضية العربية — آراء حول دعوة الاصلاح — المنابع الفكرية للثورة العرابية والثورة المهدية — السلطان عبد الحميد ودستور مدحت باشا — تركيا الفتاة عهد جديد للطغيان — سياسة الاتراك الاتحاديين تمهد للثورة العربية — أثر الحرب العالمية الاولى — كتشنر والشريف حسين — التمهيد للخديعة الكبرى — الصهيونية تطل برأسها — وايزمان فى بريطانيا وبرانديس فى واشنطون وسوكولوف فى أوروبا — الوطن العربى فى قبضة الصهيونية وحلفائها — فترة حاسمة (١٩١٩ — ١٩٢٥) — الغرب وعقدة الذنب أمام اليهود — الوطن العربى ضحية العقدة .

* * *

خاتمــــــة

لقد شـــهدت الفترة ــ موضع البحث ــ نهاية « عصر التنظيمات » وما يسميه مؤرخو الغرب « الاستبداد الحميدى » (١٨٧٦ ــ ١٩٠٨) وكان فى حقيقته صمودا حميديا • كذلك شهدت الفترة بداية الاستعمار الصهيونى فى فلسطين (١٨٨٢) وجهاد الأفغانى (١٨٣٨ ــ ١٨٩٧) فى العالم العربى والاسلامى ، وانعقاد المؤتمـــر الصهيونى الأول فى « بال » (١٨٩٧) وانفجار الثورة العرابية فى مصر (١٨٨٢) وتوطيد دعائم الحكم البريطانى فى السودان أو ما كان يسمى « الحكم الثنائى» (١٨٩٩) كما شهدت الفترة ذاتها الانقلاب العثمانى (١٩٠٨) الذى أطاح بالعهد الحميدى ومهد لدكتاتورية الأتـــراك الاتحـــاديين [1] ، واندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وانطلاق الثورة العربيـــة فى الحجاز (١٩١٦) واعلان وعد بلفور (١٩١٧) واثابة العـــرب على مؤازرتهم للحلفاء فى الحرب بانتزاع فلسطين منهم واهدائها للصهيونية العالمية واخضاع بلادهم لمزيد من التمزق والاحتلال الأجنبى باســـم « الوصاية » و « الحماية » و « الانتداب » •

وكان لكل من هذه الأحداث أثر مباشر أو غير مباشر فى تشـــكيل القضية العربية وتحديد اتجاهاتها « فالتنظيمات » هى الذريعة التى اتخذتها الدول الأوروبية الكبرى وعلى رأسها بريطانيا فى القرن التاسع عشر للتدخل فى شئون الدولة العثمانية ، تارة باسم الاصلاح وتـــارة باسم حمـــاية الأقليات ولكن الدوافع الحقيقيـــة وراءها كانت رعاية المصالح السياسية والاقتصادية لتلك الدول ، لأن وجـــود الخلافـــة العثمانية ــ على ضعفها ــ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان يمثل خطراً كبيرا على مصالح الدول الكبرى آنذاك ومصدر الخطر ــ كما تصوره ساسة ذلك العصر ــ أن ضعف الدولة العثمانية قد يغرى بعض الدول الأوروبية المتنافسة على اقتسام تركة الرجل المريض لتحقيق مطامعها الخاصة على حساب البعض الآخر • فروسيا القيصرية ما فتئت

---

(١) جمعية الاتحاد والترقى .•

تتطلع الى منفذ لها الى البحر المتوسط عبر المضايق التركية ، وفرنسا كانت شديدة الغيرة على ما سمته مصالحها فى شرقى ذلك البحر ثم فى افريقيا بعد احتلال تونس (١٨٨١) وبريطانيا — لاسيما بعد افتتاح قناة السويس — كانت ترقب بحذر هذه التطلعات من جانب روسيا وفرنسا زاعمة أن انهيار الامبراطورية العثمانية ينذر بخطر محقق على مصالحها فى الهند وتجارتها الخارجية ومن ثم تبنت بريطانيا الدعوة الى المحافظة على سلامة الدولة العثمانية واصلاحها من الداخل وهى دعوة حق أريد بها باطل ، وذلك فى اطار السياسة البريطانية تجاه هذه المسألة التى كانت تعرف « بالمسألة الشرقية » .

وصلة « التنظيمات » بالقضية العربية ، أن دار العروبة فى الشرق كانت جزءا من دار الخلافة العثمانية كما كانت حقل تجارب لعملية التنظيمات التى جلبت وراءها الامتيازات الأجنبية وتغلغل النفوذ الأوروبى فأصبحت مصر مثلا[٢] مسرحا لأسوأ أنواع التدخل الأوروبى الذى بلغ ذروته فى عهد الخديو اسماعيل وتوفيق عندما اتخذ التدخل أولا صورة رقابة مالية تحولت الى تدخل سياسى سافر ثم الى احتلال عسكرى (١٨٨٢) وكان أبرز معالم ذلك التدخل اخراج السيد جمال الدين الأفغانى من مصر تحت ضغط الحكومة البريطانية وتعيين بعض الأجانب فى مجلس وزراء مصر (ريفرز ويلسون ودى بانبير)[٣] وحرمان مجلس النواب الوطنى حق الرقابة المالية على شئون البلاد ومنح الخديو سلطة مطلقة يمارسها بتوجيه القنصل البريطانى والقنصل الفرنسى .

ولقد سرت مظاهر الظلم وسوء الادارة التى اتسم بها حكم

---

(٢) كان لمصر وضع خاص بعد معاهدة لندن ١٨٤٠ — استقلت فيه عن الدولة العثمانية مع بقاء السيادة العثمانية عليها وضمان العرش فيها لمحمد على باشا وأسرته من بعد بالتوارث ، انظر : راشد البراوى ، مجموعة الوثائق السياسية ج ١ ، المركز الدولى لمصر والسودان وقناة السويس القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٥ — ٣٠ .

(٣) انظر تفاصيل هذا التدخل فى كتاب روتشتين « Egypt's Ruin » (تاريخ المسألة المصرية) تعريب عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٢٣ ص ٦٣ — ٦٩ .

بعض الولاة فى أقاليم الدولة العثمانية ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، الى أجزاء أخرى من الوطن العربى ، مع ضعف السلطة المركزية فى القسطنطينية واتساع دائرة الصراع بين الدول الأوروبية على مراكز النفوذ الاقتصادى والسياسى والدينى فى الشرق الأوسط لا سيما فى الجزء الغربى من الهلال الخصيب (الشام) وكان رد الفعل لهذه الأوضاع دعوة الى الاصلاح الحقيقى نابعة من احساس الشعوب العربية والعثمانية بالحاجة الى التغيير الذى يلبى مطامحها ولا يمسخ شخصيتها وقيمها وتراثها فارتفعت الأصوات فى تركيا تنادى بالاصلاح الجذرى ، أصوات محمد نامق كمال (١٨٤٠ — ١٨٨٨) وضياء باشا كما ارتفعت صيحة الاصلاح فى الشرق العربى على أقلام جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبى .

وكان على سلاطين آل عثمان ، بعد منتصف القرن التاسع عشر أن يختاروا بين الاستجابة لدعوة الاصلاح المنبثقة من ضمير الشعب الحر أو دعوة الاصلاح التى تبنتها الدول الأجنبية[٤] ، وكان السلطان عبد الحميد الثانى الذى اعتلى عرش السلطنة فى عام ١٨٧٦ آخر سلاطين آل عثمان الذين واجهوا هذا الاختيار العسير .

ولكن السلطان عبد الحميد لم يكن يواجه دعوة للاصلاح فحسب وانما كان يواجه أيضا مدا استعماريا ينذر الخلافة الاسلامية بالفناء ودولا أوروبية متربصة . وكان مفهوم الأصلاح فى عصر التنظيمات — ولعله فى عصرنا هذا أيضا — مرادفا فى نظر الغرب لمعنى «العلمانية» وصياغة الحياة السياسية والاقتصادية فى دار الاسلام على النمط الغربى العلمانى . ومن ثم ، كان السلطان عبد الحميد حذرا فى تقبل الفكرة فلم ينفذ سياسة الاصلاح على النهج الذى أرادته الدول الأوروبية ، فاستغلت تلك الدول هذا الموقف لممارسة مزيد من الضغط على السلطان العثمانى وعلى ولاته فى الأقاليم العربية والعثمانية التى ظلت خاضعة للسلطان خضوعا مباشرا بينما واصلت بريطانيا وفرنسا تدخلهما فى مصر تحت ستار حماية الدائنين الأوروبيين فضعف مسند

---

(٤) انظر : د. حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث لجنة الجامعيين لنشر العلم ، مطبعة حجازى ، القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٦١ .

الخديوية ثم أوعزت بريطانيا للباب العالى بعزل الخديو اسماعيل وأسندت السلطة الى خلفه توفيق الذى أصبح يتصرف بتوجيه القنصلين البريطانى والفرنسى وأستشرى التذمر بين الجنود الوطنيين بسبب ما أصابهم من غبن فى عهد عثمان رفقى وأعوانه من الشراكسة وكانت تعاليم الأفغانى قد آتت ثمارها وتجاوبت دعوة المصلحين فى الأزهر مع صيحة رواد الاصلاح الدستورى أمثال شريف باشا ومحمود سامى البارودى وتهيأ الجو الثورى فانطلقت الثورة فى مصر يقودها أحمد عرابى وعندما التقت جهود القادة الوطنيين والعسكريين من العرابيين لم تعد الثورة ضد المظالم التى عانى منها أبناء الفلاحين فى القوات المصرية المسلحة ولكنها أصبحت ثورة وطنية ضد التدخل « البريطانى — الفرنسى » وضد النفوذ الأجنبى أياً كان مصدره وضد مساوىء حكم الخديو توفيق • وانتقلت مظاهر الضعف التى اتسم بها حكم أسرة محمد على خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر الى السودان الذى أصبح منذ عام ١٨٤١ اقليما تابعا لمحمد على وفقا لفرمان ولايته الذى ورد فيه « ان سدنتنا الملوكية كما توضح فى فرماننا السلطانى السابق قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط وحدود معينة وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر مقاطعات الدوبة والدرافور وكردفان جميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر » [٥] •

وكما أدى خطل سياسة الخديو وضعفه أمام التدخل الأجنبى الى اندلاع الثورة العرابية فى مصر ، فان سوء الادارة وتفشى المظالم فى ظل الادارة الخديوية فى السودان ووضوح مظاهر النفوذ الأجنبى كانت من العوامل الهامة التى أذكت ضرام الثورة المهدية فى السودان ولا يستطيع كاتب أن يتحدث عن الثورة العرابية دون أن يذكر الثورة المهدية ، اذ انفجرت الثورتان فى عام واحد [٦] (١٨٨١) ، احداهما ضد سلطة الخديو فى مصر والأخرى ضد حكمه فى السودان مع

---

(٥) راشد انبراوى : المصدر نفسه ص ٣٠ .

(٦) اذا اعتبرنا حادثة « أبا » (١٢ أغسطس ١٨٨١) اعلانا للثورة المهدية ومظاهرة عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١) انطلاقا للثورة العرابية .

اختلاف طبيعة الثورتين وأهدافهما وتباين الظروف المحلية التى مهدت لهما والظروف العالمية التى أدت الى قمع كل منهما ومع هذا الاختلاف فان المنابع الفكرية التى نهل منها قادة الثورتين كانت مشتركة وهى تتمثل فى تعاليم الأفغانى بما تحمله من بعث للشعوب الاسلامية ومناهضة للنفوذ الأجنبى واستلهام للقيم الاسلامية ودعوة المهدى بما تنطوى عليه من اعزاز للدين وجهاد فى سبيل الله وتحرير للأرض التى وطئتها أقدام المعتدين .

واذا كان السلطان عبد الحميد قد اضطر الى قبول دستور مدحت باشا استجابة للضغط الذى واجهه وأعلن ذلك الدستور فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٦ فانه ما لبث أن ألغاه وحل البرلمان فى الرابع عشر من شهر فبراير سنة ١٨٧٨ وظل يحكم الدولة بغير دستور حتى انفجرت ثورة تركيا الفتاة فى سنة ١٩٠٨ .

ومع أن السلطان عبد الحميد حاول أن يتدارك الموقف باعلانه دستور سنة ١٨٧٦ ، فى ٢٤ يوليو عام ١٩٠٨ ، فان الزمام أفلت من يده وانتهى عهده ليبدأ عهد جديد من عهود الطغيان هو عهد تركيا الفتاة الذى انتهى بانتهاء الدولة العثمانية ووقوع البلاد العربية فى قبضة الاستعمار والصهيونية .

ولعل أبعد الأحداث أثرا فى تشكيل القضية العربية وتحديد اتجاهاتها بعد زوال العهد الحميدى كانت سياسة الأتراك الاتحاديين ازاء الأقاليم العربية وظروف الحرب العالمية الأولى . فسياسة جمعية الاتحاد والترقى أو الأتراك الاتحاديين كانت تقوم على الارهاب وتتريك [٧] الشعوب العثمانية وارتكاب أنواع من المظالم فاقت كل ما كان يوجه الى العهد الحميدى من تهم وكان لهذه السياسة أثرها الواضح فى تحويل اتجاه القضية العربية من مجرد دعوة الى الاصلاح واللامركزية فى اطار الدولة العثمانية الموحدة الى حركة سياسية جادة ترمى الى استقلال البلاد ثم الى ثورة مسلحة ضد الأتراك .

---

(٧) أى تحويل الشعوب العثمانية الى أتراك عن طريق نشره اللغة التركية ومحاربة الاتجاهات الوطنية .

أما ظروف الحرب العالمية الأولى فقد أثرت على القضية من عدة وجوه : منها أن دخول تركيا الحرب الى جانب ألمانيا دفع بريطانيا الى تعديل سياستها المعلنة نحو « المسألة الشرقية » تعديلا جذريا فأصبحت بريطانيا أول دولة تقتطع جزءا حيويا — بل أهم جزء — من أقاليم الدولة العثمانية وذلك باعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤ بعد أن كانت تتظاهر بالدفاع عن سلامة الدولة العثمانية وممتلكاتها ، ومع أن اعلان الحماية لم يغير من الواقع شيئا وهو أن مصر كانت خاضعة للاحتلال البريطاني منذ هزيمة عرابي في معركة التل الكبير (١٨٨٢) فان انضمام تركيا الى ألمانيا واعلان الحماية على مصر أعطى بريطانيا الفرصة للظهور بمظهر الدولة الحادبة على مصر المدافعة عنها ضد مطامع ألمانيا وحلفائها الأتراك الاتحاديين مستغلة ذلك الشعور العدائي الذي أخذ ينمو عند قادة الحركة العربية ضد سياسة الأتراك لا سيما بعد المذابح التي ارتكبها جمال باشا عندما ولى أمر سوريا في سنوات الحرب الأولى ومن ثم أخذت بريطانيا تمهد لجذب قادة الحركة العربية الى صف الحلفاء في الحرب ضد تركيا وأصدرت توجيهاتها الى ممثلها في القاهرة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩١٤ [٨] ليستطلع موقف شريف مكة الحسين بن علي اذا استجابت تركيا لضغط حليفتها ألمانيا وقامت بتحركات عسكرية معادية لبريطانيا • وكان هذا التوجيه بداية الاتصالات التي انتهت برسائل « حسين — ماكماهون » الشهيرة واعلان الثورة العربية في الحجاز ضد تركيا ولصالح الحلفاء (يونيو ١٩١٦) وهكذا نرى أن بريطانيا أباحت لنفسها أن ترث السيادة العثمانية على مصر قبل وفاة الرجل المريض ولبست رداء المدافع عن حقوق الأمة العربية جمعاء ضد مطامع تركيا واستبدادها •

ومن ناحية أخرى أتاحت ظروف الحرب العالمية الأولى فرصة نادرة للحركة الصهيونية لتجمع صفوفها بعد الانقسام الخطير الذي أصابها نتيجة اختلاف قادتها حول قبول الاقتراح القاضي بمنحهم وطنا

---

(٨) Storrs (Ronald). The Memoirs of Sir Ronald. Storrs G.P Putnam's Sons, New York, 1937, P. 163.

قوميا لليهود فى شرقى افريقيا وظهر الاختلاف واضحا فى المـؤتمر الصهيونى السادس (١٩٠٣) ولكن الحرب بعثت فى الحركة الصهيونية نشاطا جديدا بقيادة وايزمان فى بريطانيـا وبرانديس فى الولايات المتحدة الأمريكية وسولوكوف فى القارة الأوروبية •

ففى بريطانيا كان حاييم وايزمان على صلة وثيقة بمحرر المانشستر جارديان ، مستر س•ب• سكوت الذى استطاع أن يمهد لاجتماع بين وايزمان ولويد جورج (وزير المالية آنذاك فى حكومـة اسكويث) وهربرت صمويل • وقد سبق هـذا الاجتماع اقناع لويد جورج بأن فلسطين اذا دخلت فى دائرة النفوذ البريطانى واذا شجعت بريطانيا هجرة اليهود الى فلسطين فانها سوف تصبح فى ظرف خمسة وعشرين أو ثلاثين عاما ، موطنا لنحو مليون من المهاجرين اليهود الذين«يعيدون اليها الحضارة ويقفون حراسا أقوياء على قناة السويس » وقد حمل هذا الرأى هربرت صميل فى رسالة الى لويد جورج مؤرخة فى ١٢ نوفمبر ١٩١٤ (٩) •

كذلك أتاحت ظروف الحرب لوايزمان أن ينتقل من جامعة مانشستر حيث كان يعمل محاضرا فى الكيمياء ، الى لندن فى عام ١٩١٦ حيث التحق بوزارة الحربية ونال حظا وافرا من الاعجـاب بسبب ابتكاره الخاص باعداد مادة الآسيتون ، ومن ثم وجد مجالا فسيحا للالتقاء بساسة بريطانيا فى الدوائر العليا واقناعهم بتأييد الحركة الصهيونية والتقى نشاطه هناك بنشاط زعيمين آخرين من زعماء الصهيونية هما تشلنوف (روسيا) وسولوكوف (بولندا) اللذين قدما الى لندن فى نهاية عام ١٩١٤ •

وفى الولايات المتحدة الأمريكية انحدر نشاط الصهيونية الى أدنى درجات الهبوط قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى لا سيما فى عام ١٩١٢ ولكن مع اشتعال نار الحرب ظهر لوى برانديس زعيما للحركة

---

(٩) Mrs. Blanche Dugdale, The Balfour Declaration Jerusalem,1940, P. 25.

الصهيونية فانتخب رئيسا للجنة التنفيذية الصهيونية التمهيدية فى ٣٠ أغسطس ١٩١٤ [١٠] وعين قاضيا للمحكمة العليا فى أول يناير عام ١٩١٦ ومنذ ذلك التاريخ أتاح له مركزه وصلته الخاصة بالرئيس ويلسون أن يوجه السياسة الأمريكية لخدمة الصهيونية وكان ثمرة نشاط وايزمان فى لندن وبراندايس فى واشنطون وسوكولوف فى باريس وروما والفاتيكان اعلان وعد بلفور وما تبع ذلك من نشاط انتهى بانحياز السياسةالبريطانية والأمريكية لارادة الصهيونية فى كل المسائل المتعلقة بفلسطين وقد وضح هذا الانحياز فى اصدار وعد بلفور وصيغته كما ظهر فى « معاهدة سيفرس » وفى فرض الانتداب البريطانى على فلسطين وفى صياغة وثيقة الانتداب وادراج وعد بلفور فيها وفى تعيين هربرت صمويل حاكما عاما على فلسطين عام ١٩٢٠ .

وظروف الحرب العالمية الأولى هى التى زينت لبريطانيا أن تقيم سياستها فى الشرق الأوسط على عدد من الوعود والاتفاقات بدأت برسائل «حسين — ماكماهون » (١٤ يوليو ١٩١٥) ثم اتفاق «سايكس — بيكو » (ابريل — مايو ١٩١٦) فوعد بلفور (٢ نوفمبر ١٩١٧) فرسالة هوجارث (يناير ١٩١٨) فالتصريح الموجه للسبعة (يونيو ١٩١٨) فتأكيدات اللنبى للامير فيصل (أكتوبر ١٩١٨) وختمها بالتصريح البريطانى — الفرنسى (٧ نوفمبر ١٩١٨) [١١] .

وقد حسب قادة الحركة العربية آنذاك أنهم قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مطالبهم فى الحرية والاستقلال بعد أن تضع الحرب أوزارها استنادا الى تلك الوعود ولكن الواقع المرير أثبت أن بريطانيا لم تحترم من هذه الوعود سوى وعد بلفور واتفاق «سايكس — بيكو» بعد ادخال بعض التعديلات عليه للتوفيق بين المطامع الفرنسية فى سوريا ومطامع

---

(١٠) Rabinowitz (Ezekel) Justice Louis D. Brandeis New York, 1968 pp. 18 - 38 .

(١١) Woodward and Butler, Documents on British Foreign Policy, First Series 1919 — 1939. H.M. S.O., London, 1952 Vol . 4. p. 241.

الصهيونية فى فلسطين وحتى وعد بلفور فان بريطانيا لم تنفذ منــه سوى ذلك الجزء الذى يرعى مصالح الصهيونية فى انشــاء الوطن القومى لليهود ضاربة عرض الحائط بتعهدها فيما يتعلق بصيانة الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية (١٢) المقيمة فى فلسطين • أما الوعود البريطانية الأخرى للعرب فانها لم تكن تساوى قصاصة الورق التى كتبت عليها •

وتطلع العرب فى مصر والهــلال الخصيب الى مؤتمر الســلام (١٩١٩) لانصافهم واستنجزوا بريطانيا وحلفاءها الوعود التى قطعت لهم أثناء الحرب ، ولكن عبثا • وقضى الأمر بعد ابرام معاهدة الصلح فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى والعراق تحت الانتداب البريطانى وذهبت فلسطين لقمة سائغة للصهيونية تحت قيادة هربرت صمويل المندوب السامى البريطانى وأحد زعماء الصهيونية (١٣) وظلت مصر فى قبضة الاحتلال البريطانى ، وفاز الشريف حسين بن على بلقب ملك الحجاز ريثما تمنحه بريطانيا حق اللجــوء السياسى الى قبرص وتعد له البارجة « دلهى » لتقله الى منفاه فى ١٨ يونيو عام ١٩٢٥ (١٤) وقد سبقه الى المنفى (٣ مارس ١٩٢٤) آخر سلاطين آل عثمان على اثر ازالة الخلافة الاسلامية من الوجود ، حتى فى مظهرها الروحى ، وظهر مصطفى كمال أتاتورك قائدا لتركيا العلمانية •

وأدرك قادة الأمة العربية — بعد فوات الأوان — مدى الخداع الــذى كانت تمارسه بريطانيــا فى علاقاتها معهــم وعبر الشريف حسين بن على عن حسرته قائلا : « لقد تجاهلت النقد الذى تلقيته من مسلمى تركيا بشأن علاقاتى مع بريطانيا وقد وجدت فى الاستجابة لدعوة بريطانيا لى لاعلان الثورة تجديدا لمجد العرب وارضاء لمشاعر المسلمين وكانت نتيجة ذلك نهاية العرب ونهاية تركيا على السواء »(١٥) •

---

(١٢) هكذا كان صناع وعد بلفور يسمون الشعب العربى فى فلسطين.

(١٣) لم يكن لهربرت صمويل منصب رسمى فى المنظمة الصهيونية ولكنه ظل يخدمها من وراء ستار .

(١٤) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى جـ ٣ — ص ٢١١ .

(١٥) Woodward and Butler, op. cit., Vol. 13 p. 309.

لقد كانت الفترة (١٩١٩ — ١٩٢٥) حاسمة فى تاريخ القضية العربية لأنها شهدت تقنين الاحتلال البريطانى فى العراق والاحتلال الفرنسىفى سوريا ولبنان باسمالانتداب تارة وباسم الحماية والوصاية ومعاهدات التحالف تارة آخرى ، بل كانت هذه الفترة — بحق — فترة التمكين للصهيونية فى فلسطين واحاطتها بضمانات وصفت بأنها دولية تمثلت فى الاعتراف بوعد بلفور على نطاق عالمى وادراجه فى وثيقة الانتداب على فلسطين والنص على الانتداب فى المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم • وقد حددت تسويات الحلفاء خلال الفترة (١٩١٩ — ١٩٢٠) معالم المعركة بين الأمة العربية والغرب من ناحية وبينها وبين الصهيونية العالمية من ناحية أخرى طوال النصف الأول من القرن العشرين وكسبت الأمة العربية المعركة ضد الاحتلال البريطانى والفرنسى ولكن معركتها مع الصهيونية ما زالت قائمة وقد تمتد أجيالا بل قرونا لأن طبيعة المعركة اليوم تختلف عنها بالأمس • لقد كانت الأمة العربية بالأمس تواجه احتلالابريطانيا وفرنسيا موقوتا مهما طال مداه ولكنها اليومتواجه قوة فرضت عليها بحد السلاح لتهيىء وطنا فى قلب العالم العربى لملايين اليهود الذين ظلوا هائمين على وجوههم زهاء ألفى عام يعانون التشرد والأضطهاد وعداء السامية (١٦)

---

(١٦) نزعة العداء لسامية «Antisemitism» تعبير قصد به — أصلا — وصف الحركة التى تهدف الى اذلال اليهود واضطهادهم لكن الكلمة بمعناها الحديث يقصد بها الاعمال التى يقوم بها الافراد أو الجماعات لحرمان اليهود من الحقوق المدنية والدينية والسياسية وحظر اقامة صلة طبيعية بين اليهود وبين غيرهم من أعضاء الاسرة ابشرية . وقد ظهر التعبير للمرة الأولى فى ألمانيا فى أعقاب الحرب الألمانية — الفرنسية (١٨٧٠/٧١) وتقول المصادر اليهودية أن « Wilheim Marr »كان — على الارجح — أول من ابتكر هذا التعبير واستخدمه فى نشرة أصدرها عام ١٨٧٩ وهى نفس السنة التى شهدت ظهور « رابطة معاداة السامية » بقيادة « Adolf Stoecker » وكانت الرابطة تمثل تحالفا للقوى المعادية لليهود استنادا الى بواعث اقتصادية ودينية وعنصرية . راجع :

— Universal Jewish Encyclopaedia, Vol. I, p. 341.

— J. Parkes, Antisemitism, Valentine Mitchell and Co., Ltd. London, 1963 , p. 28.

فى الغرب والشرق الأوروبى ، وهذا وضع لم يشهده الشرق العربى منذ أن حرر صلاح الدين بيت المقدس وقضى على آخر الدويلات الصليبية فيما يسمى « العصور الوسطى » ليعيد الى هذه المنطقة وحدتها العربية الاسلامية . ومما يزيد الأمر خطورة ، أنه عندما تغيرت موازين القوى فى النصف الأول من القرن العشرين عقب حــربين عالميتين طاحنتين واتخذت الصهيونية طريقها الى مواقع النفوذ فى العــالم الأوربى ، شرقيه وغربيه ، لم يجد هذا العالم ما يكفر به عن المظالم التى ارتكبها فى حق اليهود عبر القرون الا على حساب الأمــة العربية التى كان تسامحها مع اليهود مضرب الأمثال بشهادة مؤرخى اليهود أنفسهم(١٧) .



=

— Ibrahim el Hardallo, Antisemitism, A Changing Concept, University op Khatoum Press, 1970, p. 9.

(١٧) Salo Wittmayer Baron, A Social and Religious History of the Jews, 2nd. Ed. Columbia University Press, New York,1957 Vol. 3 P. 121.

وراجع ايضا :
Heinrish Graetz , History of the Jews, Philadelphia, 5117, 1956, Vol. 3 P. 88.

مصادر أخرى للكتاب

أثبتنا المصـــادر الأساسية فى أماكنها بهوامش الكتاب ، وهنـــاك مصـــادر أخرى هى :

● المصـــادر العربيـــة :

١ — احمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥٩ .

٢ — عبد العزيز الدورى : الجذور التاريخية للقومية العربية ، دار العلم للملايين — بيروت ١٩٦٠ .

٣ — عثمان أمين : محمد عبده ، أعلام الاسلام ، دار احياء الكتب العربية مصطفى البابى الحلبى وشركاه — القاهرة ١٩٤٤ (يوليه) .

٤ — شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول ، مكتبـــة الخانجى بمصر — ١٣٧١ هـ (١٩٥٢ م) .

٥ — لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، كتاب الهـــلال — ٢ الطبعة الثالثة — القـــاهرة — ١٩٦٩ .

٦ — محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام محمـــد عبده ، دار المنار — مصر ١٣٥٠هـ (الطبعة الأولى) .

٧ — مكى شبيكة : العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الأولى دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠ .

● المصـــادر الافرنجية :

1 — Ahmad (J.M.) , The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, Oxford University Press, 1960.

2 — Ahmad (Feroz) The Young Turks, O.U.P., 1969.

3 — Asher Ginzberg (Ahad Ha' Am), Nationalism and the Jewish Ethic, Edt. by Han Kohn, New York, 1962.

4 — Atiyah (Edward) The Arabs, Penguin Books, London, 1955.

5 — Balfour (J.A), Speeches on Zionism, Edt. by Israel Cohen, Arrowsmith, London, 1928.

6 — Blunt (W.S.) My Diaries (1888 - 1914) , London, 1932.

7 — Ghorbal (Shafik) The beginnings of the Egyptian question and the rise of Mehemet Ali George Routledge and Sons Ltd, London, 1928.

8 — Hourani (A) Minorities in the Arab World, London, 1947.

9 — Heller (Joseph) The Zionist Idea Schocken Books, New York, 1949.

10 — Laqueur (W.L.) Communism and Nationalism in the Middle East, Routeledge and Kegan Paul, London, 1957.

11 — Newmann (E.) The Birth of Jewish Statesmanship, A Story of Theodor Herzl's Life, New York, 1945.

12 — Noth (Martin) The History of Israel, Second English Edition Adam and Charles Black, London, 1958.

13 — Parkes (James) : A History of the Jewish People, Penguin 1962, Palestine, Oxford University Press, 1940.

14 — Rabinowiz (Oskar, K.) Herzl, Architect of the Balfour Declaration, New York, 1958.

15 — Rosenthal (E. I. J.) Judaism and Islam, Thomas Yoseloff, New York, 1961.

16 — Smith (W.C) Islam in Modern History (Nentor Book) New York, 1963.

17 — Tibawi (A. L.) Anglo — Arab Relations and the Question of Palestine, 1914 - 1921, Luzac and Co. Ltd., London, 1978.

18 — Taylor (Alan) Prelude To Isreal , New York, 1959.

19 — Weigall (A. E. P. Brome) A History of Events in Egypt from 1798 to 1914, Edinburgh - London , 1915.



الوثـــائق

١ ــ رسائل « حسين ــ ماكماهون » (١٩١٥ ــ ١٩١٦) ٠

٢ ــ البلاغ الانجليزى الرسمى فى شأن العرب والسلطة الاســلامية (٢٨ يوليو ١٩١٦) ٠

٣ ــ رســائل « فرانكفورتر ــ ويلســون » ٠٠ (٨ مايو ١٩١٩ ــ ٢١ مايو ١٩١٩) ٠

٤ ــ الاحصاء الرسمى لسكان فلسطين ٠٠ (١٩٢٢ ــ ١٩٣٦) ٠

* * *

(١) رسائل « حسين ــ ماكماهون » (*)

من ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ هـ الموافق ٣٠ أغسطس عام ١٩١٥ الـى جمادى الأولى سنة ١٣٣٤ هـ الموافق ١٠ مارس عام ١٩١٦ .

(عن مجلة المنار ج ٨ م ٢٣ ، ص ٦١٦ ــ ٦٢٣)

الكتـــاب الأول

« من نائب ملك الانكليز بمصر الى أمير مكة فى شأن الثورة الحجازية »

« فى ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ الموافق ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥ »

كتاب من السر أرثر مكماهون نائب ملك الانكليز بمصر

فى ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ ــ ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥

الى السيد الحسيب النسيب سلالة الاشراف ، وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية ، والدوحة القرشية الاحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السـيد ابن السـيد والشريف ابن الشريف السـيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكـرمة قبلة العالمين ، ومحط رجال المؤمنين الطائعين ، عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسـوم وافر التحيات العاطرة ، والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة . نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشـكر لاظهاركم عاطفة الاخلاص وشريف الشعور والاحساسات نحو الانجليز ، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأى واحد ، وأن مصـالح العرب هى نفس مصـالح الانكليز . والعكس بالعكس . ولهذه النية فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التى

(*) لقد نشرت هذه الرسائل فى عدد من المؤلفات التى صدرت من قبل باللغتين العربية والانجليزية ولكنى آثرت أن أنشر نماذج منهـا هنا تعميما للفائدة وتيسيرا لمن لم يتح لهم الاطلاع عليها من قبل .

المؤلف

وصلت الى سيادتكم عن يد على افندى وهى التى كان موضحاً بها رغبتنا فى استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند اعلانها . واننا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى رحب باسترداد الخلافة الى يد عربى صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة .

وأما من خصوص مسئلة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لاوانها ؛ وتصرف الاوقات سدى فى مثل هذه التفاصيل فى حالة أن الحرب دائرة رحاها ، ولان الاتراك لا يزالون محتلين لاغلب تلك الجهات احتلالا فعليا ، وعلى الاخص ما علمناه وهو مما يدهش ويحزن أن فريقا من العرب القاطنين بتلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التى ليس أعظم منها ، وبدل اقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة الى الالمان والاتراك .

نعم مد يد المساعدة لذلك السلاب النهاب الجديد وهو الالمان ، وذلك الظالم العسوف وهو الاتراك . ومع ذلك فانا على كمال الاستعداد لان نرسل الى ساحة دولة السيد الجليل ما للبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية ، وستصل بمجرد اشارة سيادتكم وفى المكان الذى تعينونه ، وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم فى جميع سفراته الينا ، ونحن على الدوام معكم قلبا وقالبا ، مستنشقين رائحة مودتكم الذكية ، ومستوثقين بعرى محبتكم الخالصة ، سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا . وفى الختام أرفع الى تلك السدة العليا كامل تحياتى وسلامى ، وفائق احترامى .

المخلص

السير ارثر مكماهون
نائب جلالة الملك

* * *

وقد أجابه الشريف حسين على هــذا الكتاب بكتاب مؤرخ فى ٢٩ شوال يلمح فيه بقبول تلك الحدود المعينة فيما سماه (مقررات النهضة) فأجابه بالكتاب التالى :

كتــاب ثان

من نائب الملك السر أرثر مكماهون الى الشريف حسين

فى ١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الى فروع الدوحة المحمدية ، وسلالة النسب النبوى ، الحسيب النسيب ، دولة صاحب المقام الرفيع ، الامير المعظم السيد الشريف ابن الشريف أمير مكة المكرمة صاحب السدة العليا ، جعله الله حرزاً منيعاً للاسلام والمسلمين ، بعونه تعالى آمين وهو دولة الامير الجليل الشريف حسين بن على أعلى الله مقامه .

قد تلقيت بيد الاحتفاء والسرور رقيمكم الكـريم المؤرخ بتاريخ ٢٩ شــوال سنة ١٣٣٣ وبه من عباراتكم الودية المحضة واخصلاكم ما أورثنى رضاء وحبورا . انى متأسف أنكم استنتجتم من عبارة كتابى السابق انى قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور ، فان ذلك لم يكن القصد من كتابى قط — ولكنى رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث فى ذلك الموضوع بصورة نهائية . ومع ذلك فقد أدركت من كتابكم الاخير أنكم تعتبرون هــذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة فلذلك فانى قد أسرعت فى ابلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضــمون كتابكم وانى بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنهــا التصريحات الآتية التى لا شك فى أنكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول .

ان ولايتى مرسين واسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال انها عربية محضة ، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة .

وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ وسرني ما رأيت فيه من قبولكم اخراج ولايتي مرسين وأضنة من حدود البلاد العربية • وقد تلقيت أيضا بمزيد السرور والرضى تأكيداتكم ان العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وغيره من السادة الخلفاء الاولين — التعاليم التى تضمن حقوق كل الاديان وامتيازاتها على السواء • هذا وفى قولكم : ان العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً ان هذا يشمل البلاد الداخلة فى حدود المملكة العربية لان حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء •

أما بشأن ولايتى حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة • ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما فالمسئلة تحتاج الى نظر دقيق ، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى فى الوقت المناسب •

ان حكومة بريطانيا العظمى كما سبقت فأخبرتكم مستعدة لان تعطى كل الضمانات والمساعدات التى فى وسعها الى المملكة العربية ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تتطلب ادارة ودية ثابتة واننا نستصوب تماماً رغبتكم فى اتخاذ الحذر ولسنا نريد أن ندفعكم الى عمل سريع ربما يعرقل أغراضكم ولكننا فى الوقت نفسه نرى من الضرورى جدا أن تبذلوا كل مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية الى غايتنا المشتركة وان تحثوهم على أن لا يمدوا يد المساعدة لاعدائنا بأى وجه كان • فانه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التى يمكن للعرب أن يتخذوها لاسعاف غرضنا عندما يجىء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته • وفى هذه الاحوال فان حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لى أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوى ابرام أى صلح كان الا اذا كان من ضمن شروطه الاساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الالمان والاتراك •

هذا وعربوناً على صدق نيتنا ولاجل مساعدتكم فى مجهوداتكم فى غايتنا المشتركة فانى مرسل مع رسولكم الامين مبلغ عشرين ألف جنيه .

وأقدم فى الختام عاطر التحيات القلبية ، وخالص التسليمات الودية ، مع مراسم الاجلال والتعظيم المشمولين بروابط الالفة والمحبة الصرفة لمقام دولتكم السامى ولافراد أسرتكم المكرمة مع فائق الاحترام .

المخلص
نائب جلالة الملك بمصر
السير أرثر هنرى مكماهون

* * *

وقد رد الشريف على هذا الكتاب حامدا شاكرا راضيا واعدا بالقيام بجمع كلمة العرب على قتال الترك طالبا بعض الاسلحة والذخائر والاقوات . فأجابه نائب الملك بالكتاب الآتى :

كتاب رابع

« من نائب ملك الانكليز بمصر الى الشريف حسين أمير مكة »

(فى جمادى الاولى سنة ١٣٣٤ يوافق ١٠ مارس سنة ١٩١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى ساحة ذلك المقام الرفيع ذى الحسب الطاهر والنسب الفاخر قبلة الاسلام والمسلمين معدن الشرف وطيب المحتد سلالة مهبط الوحى المحمدى الشريف ابن الشريف، صاحب الدولة السيد الشريف حسين بن على أمير مكة المعظمة زاده الله رفعة وعلاء .. آمين .

بعد ما يليق بمقام الامير الخطير من التجلة والاحتشام وتقديم خالص التحية والسلام وشرح عوامل الالفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية أرفع الى دولة الامير المعظم اننا تلقينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر من يد رسولكم الامين وقد سررنا لوقوفنا على

(٢) البلاغ الانجليزى الرسمى فى شأن العرب والسلطة الاسلامية
مصر فى (٢٨ يوليو ١٩١٦)
(عن مجلة المنار ج ٣ م ١٩ ص ١٨٨ — ١٨٩)

البلاغ الانكليزى الرسمى
فى شأن العرب والسلطة الاسلامية

أرسل قلم المطبوعات البلاغ الآتى الى الجرائد فى القطر المصرى :
مصر فى ٢٨ يوليو سنة ١٩١٦

نشر فى لندن انيوم البلاغ التالى :

« منذ سنين والعرب المعذبون بسوء الحكم التركى ينتظرون اليوم الذى يتمكنون فيه من استرجاع حريتهم السابقة وقد قاموا فى الماضى بثورات عديدة ضد الاستبداد التركى فى البلاد العربية .

« وقد أدى سوء تصرف الحكومة الحالية فى الآستانة وخضوعها التام لسلطة الالمان الى دخول تركيا مضطرة فى حرب متشؤومة أوصلت الاحوال فيها الى حد النهاية ، فرأى شريف مكة وغيره من الزعماء فى البلاد الغــربية أن الاوان قد آن لخلع النير التركى عن أعناقهم والمنــاداة باســتقلالهم .

« وكانت بريطانيا العظمى تعطف دائما على العرب فى أمانيهم ولكن صداقتها التقليدية لتركيا اضطرتها فى الماضى الى البقاء على الحياد . أما الآن وقد انضمت تركيا الى صف الدول الوســطى فقد أصبحت بريطانيا العظمى حرة فى اظهار عطفها على أولئك العرب الذين انخرطوا فى جانب الحلفاء ضد العدو والمشترك .

« على أن بريطانيا العظمى ستبقى محافظة على سياستها الثابتة فى الابتعاد عن أية مداخلة فى الشؤون الدينية ، وعلى بذل جهدها فى بقاء الاماكن المقدسة أمينة من كل طارىء خارجى .

« ومن النقط التى لا تقبل التغيير والتبديل فى سياسة بريطانيــا العظمى وهو أن تبقى هــذه الاماكن المقدسة فى أيدى حكومة اسلامية مســتقلة .

« ولا يخفى ان أحوال الحرب الحاضرة تلقى العقبات الكثيرة والاخطار فى سبيل الراغبين فى القيام بفريضة الحج ولكن العمل الذى قام به شريف مكة يجعل الأمل كبيراً فى اتخــاذ التدابير اللازمة التى تمــكن الحجاج فى المســتقبل من زيارة الاراضى المقدسة بســلام واطمئنان » اه

❋ ❋ ❋

(٣) رسائل « فرانكفورتر ــ ويلسون »

وهى الرسائل المتبـــادلة بين فيلكس فرانكفورتر عضـــو الوفد الصهيونى الأمريكى فى باريس والرئيس الأمريكى ودرو ويلسون حول اتخاذ فلسطين وطنا قوميا لليهود •

Franfurter - Wilson Correspondence Reproduced From Documents on British Foreign Policy, First Series. 1919 — 1939 Vol. 4.

By Courtesy of Her Majesty's Stationery Office, Atlantic House, Holborn Viaduct London, EC. IP. IBN. England.

No. 180

Mr. Balfour (Paris) to Earl Curzon (Received June 2)

No. 861 [82739/1051/44]

PARIS, *May 31, 1919*

Mr. Balfour presents his compliments to Lord Curzon and transmits herewith copies of the under-mentioned papers:

Name and Date	*Subject*
Correspondence communicated by Mr. Frankfurter,[1] May 21.	Establishment of Palestine as Jewish National Home.

ENCLOSURE 1 IN No. 180

Mr. Frankfurter to President Wilson

ORGANISATION SIONISTE, PARIS, *May 8, 1919*

My dear Mr. President,

Conscious of the duty of every American not to take from your time and energy, I am nevertheless compelled to bring to your attention the conditions that now confront Jewry, above all Eastern Jewry.

You are familiar with the problems and have stated their solution. The controlling Jewish hope has been—and is—your approval of the Balfour Declaration and your sponsorship of the establishment of Palestine as the Jewish National Home. The appointment of the Interallied Syrian Commission and the assumed postponement for months, but particularly beyond the time of your stay here, of the disposition of Near Eastern questions, have brought the deepest disquietude to the representatives of the Jewry of the world. As a passionate American I am, of course, most eager that the Jew should be a reconstructive and not a disruptive force in the new world order. I have reassured their leaders, with the conviction born of knowledge of your purposes. They have faith; I venture to think no people in Paris have more faith, the faith of 2,000 years. But they also have the knowledge of the suffering of millions of Jews; and the hopes of Jews the world over, which nothing

[1] Member of the American Zionist Delegation at Paris.

will assuage except the rededication, at last, of Palestine as a Jewish Homeland.

Moreover it is not merely a Jewish question. An extended delay in the Near Eastern settlement is bound to intensify the existing unrest by giving dangerous opportunities to Young Turk intrigue and to the stimulation of religious animosities.

The English authorities are eager to have Dr. Weizmann[2] and me go to Palestine to assure moderation in the Jewish population. We are doing all that can be done and I am confident the Jewish population will maintain restraint. But I dare not leave here while the Turkish issues are undetermined and while you are still in Paris to decide them.

You will forgive me for writing, but circumstances have made me the trustee of a situation that affects the hopes and the very life of a whole people. Therefore I cannot forbear to say that not a little of the peace of the world depends upon the disposal before your return to America of the destiny of the people released from Turkish rule.

Faithfully yours,[3]

ENCLOSURE 2 IN NO. 180.

President Wilson to Mr. Frankfurter

PARIS, *May 13, 1919*

My dear Mr. Frankfurter,

Just a line to acknowledge your important letter of May 8th,[4] and to say how deeply I appreciate the importance and significance of the whole matter.

Cordially and sincerely yours,
WOODROW WILSON

ENCLOSURE 3 IN NO. 180

Mr. Frankfurter to President Wilson

May 14, 1919

My dear Mr. President,

You know how profoundly words, even familiar words, move people today—how their hopes and their faith are sustained or saddened, by what you say or fail to say. Therefore I know you will want me to inform you, in all candour, that your note of acknowledgement to my letter of May 8th has occasioned almost despair to the Jewish representatives now assembled in Paris, who speak not only for the Jews of Europe but also for the American Jewish Congress, the democratic voice of three million American Jews. I do not fail to appreciate the forces which confront you here, and the circumspection which conditions impose upon you. On our side the task is to keep literally millions of Jews in check. Uncertainty, indefinite delay, seeming change of policy, bring a feeling of hopelessness which only those in intimate

[2] President of the Zionist Federation of Great Britain and Ireland.
[3] Signature lacking in original copy.
[4] Enclosure 1 above.

contact with the people whose fate is at stake can fully gauge. We are bending every energy to prevent the slow attrition of the spirit of such a people.

Therefore, you will forgive me for submitting to you the wisdom and justice of a reassuring word, written or spoken, even though it be repetitive—that you are purposing to have the Balfour Declaration written into the Treaty of Peace, and that you are aiming to see that declaration translated into action before you leave Paris.

Faithfully yours,[3]

ENCLOSURE 4 IN NO. 180

President Wilson to Mr. Frankfurter

PARIS, *May 16, 1919*

My dear Mr. Frankfurter,

I have your letter of May 14.[5] I never dreamed that it was necessary to give you any renewed assurance of my adhesion to the Balfour Declaration, and so far I have found no one who is seriously opposing the purpose which it embodies. I was very much taken by surprise that you should deem anything I wrote you discouraging. I see no ground for discouragement and every reason to hope that satisfactory guarantees can be secured.

In haste,
Sincerely yours,
WOODROW WILSON

ENCLOSURE 5 IN NO. 180

Mr. Frankfurter to President Wilson

May 20, 1919

My dear Mr. President,

I wish I could convey to you the feeling of relief and contentment that your letter of generous reassurance that the Balfour Declaration will eventuate into effective guarantees, has aroused. We are very grateful indeed.

May I ask you to have word sent me that I may show the letter to all those who are interested—not to be published of course—and that I may cable its contents to Mr. Justice Brandeis?[6]

Faithfully yours,[3]

ENCLOSURE 6 IN NO. 180

Mr. Close to Mr. Frankfurter

PARIS, *21 May, 1919*

My dear Mr. Frankfurter,

The President asks me to say in reply to your note of May 20[7] that he is entirely willing that you should show his letter to those who are interested and use it in the way that you suggest.

Sincerely yours,
GILBERT F. CLOSE
Confidential Secretary to the President

[5] Enclosure 3 above.
[6] In 1914 Mr. Brandeis had been appointed Chairman of the American Provisional Executive Committee for Zionist Affairs.
[7] Enclosure 5 above.

❋ ❋ ❋

(٤) الاحصــاء الرسمى لسكان فلسطين (١٩٢٢ — ١٩٣٦)

Growth of Population Palestine Royal Commission Memoranda Prepared by The Government of Palestine, P. 2, 1937.

By Courtesy of Her Majesty's Stationery Office , London E.C. I. IBN. England.

PALESTINE ROYAL COMMISSION.

1. Growth of Population.

8.—A census of population was taken in October, 1922, and again in November, 1931 In the intervening period statistics of births and deaths and of migration were used to estimate mid-year populations. A discrepancy arose at the census of 1931 between the expected and the enumerated population due to incomplete recording of births and deaths and of migration, and possibly to faulty enumeration of suspicious and primitive people. In the case of Jews the discrepancy was about two thousand. The growth of population between the two census years and since 1931 is shown in Table I below.

9.—The Moslem population at the census of 1922 numbered 589,177, or 78.8 per cent. of the total population. There has been a steady increase, equivalent to a rate of 2.6 per cent. per year over the whole period until 1936. At this rate of increase a population would double itself in about 27 years. The Moslem population reached 848,342 in 1936, representing nearly 61 per cent. of the total population.

10.—The Jewish population at the census of 1922 numbered 83,790, or 11 per cent. of the total population at that date. The Jewish population rose rapidly to 150,040 in 1926, remained practically stationary until 1928, emigration nullifying the effect of natural increase, and then rose steadily to 172,028 in 1931. Thus the number of Jews more than doubled in the nine years from 1922 to 1931, the gain being equivalent to a rate of increase of 8.4 per cent. per year.

In the period from the 30th June, 1932 to the 30th June, 1936, the Jewish population again doubled, an average rate of increase of 19.7 per cent. per year. It reached the figure of 370,483 in mid-1936, representing 27.7 per cent. of the total population of the country.

There has been unrecorded illegal immigration both of Jews and of Arabs in the period since the census of 1931, but it is clear that, since it cannot be recorded, no estimate of its volume is possible.

11.—The Christian population at the census of 1922 numbered 71,464, representing 9.5 per cent of the total. It increased steadily to 106,474 in 1936, equivalent to a rate of increase of 3.0 per cent. per year over the fourteen years. At this rate of increase a population would double itself in 24 years. The proportion of Christians to total population in mid-1936 was 7.96 per cent.

12.—The allocation of the total increase in the period from the census of 1922 to the 30th June, 1936, to natural increase and increase by migration is shown in Table II below.

The table indicates that all three main religious communities have gained by migration, the smallest proportional gain being that of the Moslems. It is of interest that the Jewish increase by migration in the fourteen year period is very nearly the same as the Moslem natural increase in the same period, about 237,000.

TABLE I.

Population of Palestine (excluding members of His Majesty's Forces) at the Census of 1922, and as estimated at the 30th June in each of the years 1923-1936, by religions

Year	Total	Moslems	Jews	Christians	Others
1922	752,048	589,177	83,790	71,464	7,617
1923	778,989	609,331	89,660	72,090	7,908
1924	804,962	627,660	94,945	74,094	8,263
1925	847,238	641,494	121,725	75,512	8,507
1926	898,902	663,613	150,040	76,467	8,782
1927	917,315	680,725	149,789	77,880	8,921
1928	935,951	695,280	151,656	79,812	9,203
1929	960,043	712,343	156,481	81,776	9,443
1930	992,559	733,149	164,796	84,986	9,628
1931	1,023,734	753,812	172,028	87,870	10,024
1932	1,052,872	771,174	180,793	90,624	10,281
1933	1,104,884	789,960	209,207	95,165	10,532
1934	1,171,158	807,180	253,700	99,532	10,746
1935	1,261,082	826,457	320,358	103,371	10,896
1936	1,336,518	848,342	370,483	106,474	11,219

TABLE II.

Increase in population of Palestine (excluding members of His Majesty's Forces) in the period October, 1922 to 30th June, 1936, by religion, allocated to natural increase and to increase by migration.

Population: —	Total	Moslems	Jews	Christians	Others
at Census of 1922	752,048	589,177	83,790	71,464	7,617
at 30th June 1936 (Estimated)	1,336,518	848,342	370,483	106,474	11,219
Total Increase	584,470	259,165	286,693	35,010	3,602
Natural Increase	315,013	236,630	49,655	25,462	3,266
Increase by Migration	269,457	*22,535	237,038	9,548	336

* Includes a number of persons, estimated at 10,000, living on land transferred from Syria to Palestine in 1923.



الفهـــــارس

فهـرس الأعـلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

* * *

فهرس الأماكن والبلدان

(ا)

(ب)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

محتويات الكتاب

الصفحات

الفصـــل الثانى : عرب عثمانيون

الفصل الثالث : الخديعة الكبرى

الصفحات

الفصل الرابع : قبض الريح

الفصل الخامس : الصهيونية

الصفحات

الصفحات

الوثـــائق
(٢١٩ — ٢٣٦)

الفهـــــــــارس
(٢٣٧ — ٢٥٩)

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ٤٣٥٩/٨٥
الترقيم الدولى ٩٧٧-٣٠٧-٠٥٣-٠

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأزهر: ٣ ميدان الموصلى
بجوار جامع الرعاة

هذا الكتاب

من الأقوال المعروفة « **فرق تَسُد** » . . وهذا هو « **دستور** »**الاستعمار** . إن ما يجرى الآن فى « **فلسطين** » وغيرها فى أراضى الأمة العربية والإسلامية من **الانقسامات** . . والحروب . . والدمار . . هو إستكمال للمخطط الذى وضعه - أعداء الفكرة الإسلامية - **من صليبيين وصهيونيين وملاحدة** - وللوصول الى أهدافهم كانت أمامهم - صخرة عاتية - هى الخلافة الإسلامية .

- فهل كانت « **الخلافة الإسلامية** » جامعة للأمة العربة والإسلامية وعنصراً أساسياً فى اتحادهم وقوتهم . . ؟
- وما هى الدسائس والمؤامرات التى - دبرت باحكام - لزوال هذه الخلافة . . ؟
- وما هى حقيقة الشائعات التى أطلقت على - **خليفة المسلمين** - وتلقفها المغرضون ونشروها . . ؟
- كيف ان الوجه الذى صبغه « **الاستعمار** » باشارات الحدب على مصالح العرب والمسلمين ، ضد ما أسموه - بالاستعمار التركى - كشف القناع عن زيفه . .وأبان أنه بعمل - **لتفتيت** - العرب والمسلمين . . وهو ملطخ بدماء البشرية . . وكيف انسلخ من وعوده . وعهوده . . ؟
- هل كان هناك أفراد من - العرب - تطلعون فى الملك . . أو . . الإمارة - فوقعوا تحت تأثير الوعود الخلابة - فساروا بالعمل - متعاونين مع الأعداء - على اضمحلال الخلافه الإسلاميه . وتقطيع أوصالها إلى . . دويلات . . وإمارات . . ومن هم . . ؟
- وهذا الكتاب « **نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية - دراسة للقضية العربية فى خمسين عاما - ١٨٧٥ / ١٩٢٥ م** » يتولى الاجابه على هذه الأسئلة وغيرها . . ويكشف النقاب عن حقيقة الأحداث فى تلك الفترة العصيبة . . ويبين الوقائع الصحيحة - مدعمة بالوثائق - دون خوف . . أو تحامل . . أو مجاملة . . احقاقا للحق وتصحيحا لوقائع التاريخ .
- ومؤلف الكتاب - استاذ فاضل - غاص فى بطون الكتب والمراجع - أمضى وقتا طويلا فى البحث والتنقيب - ساعدته ظروف عمله فى التنقل الى دول أوربا . . والدول العربية . . فاطلع على - الوثائق - والمستندات والمراجع التى جعلت هذا البحث جديدا فى موضوعه . .
- ويسرنا أن نقوم بنشر هذا الكتاب - ليعرف العرب والمسلمون - كيف حدثت « **نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية** » . . وبالله التوفيق .

مشروع

العالم الإسلامي

في 200 سنة

